

عين الحمئة
حضرة مولانا المارشال

الطبعة الأولى

1446 هـ

2025 م

اسم الكتاب: حضرة مولانا المارشال - عين الحمئة

التأليف: أحمد أمين حبيب

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 320 صفحة

عدد الملازم: 20 ملزمة

مقاس الكتاب: 14x20

عدد الطباعات: الطبعة الأولى

الترقيم الدولي: 978-9921-815-89-4

القاهرة - جمهورية مصر العربية



٠١٠١٢٣٥٥٧١٤

٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣



elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com



دار الشريعة



جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة
محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم .
حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا
يجوز نسخ أو طبع أو اجزاء أو إعادة
نشر أية معلومات أو صور من هذا
الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

رواية

عين الحمئة حضرة مولانا المارشال

الجزء الأول

تأليف

أحمد أمين حبيب

الرواية مسجلة بالمجلس الأعلى للثقافة - إدارة حقوق
المؤلف - جمهورية مصر العربية تحت رقم: 203 لسنة 2024



جميع الأعمال العلمية الأثرية والكتب والمراجع
التاريخية المذكورة في الرواية حقيقية



إِنَّ مَنْ يُسَيِّطِرُ عَلَى الْمَاضِي يُسَيِّطِرُ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ،
وَمَنْ يُسَيِّطِرُ عَلَى الْحَاضِرِ يُسَيِّطِرُ عَلَى الْمَاضِي.

جورج أورويل



(1)

فبراير - 1995م

التقط البروفيسور جاري وولش نفساً عميقاً وهو يتجول بغبطة داخل المقبرة الواسعة التي بدأ فريقه الأثري يُبشّر عمله فيها بحماسة بالغة. لاحت على مُحيّاه أمارات السعادة والزَّهو. عام كامل قضوه في البحث والتنقيب عنها، حتى تكلَّل جهدهم بالعثور عليها. راح الرجل يدور برأسه في المكان بانبهار بالغ وعيناه تشعانَ ببريق حماسيٍّ فهذا الكشف هو الأهم في حياته على الإطلاق. أخذ يتجول قريباً من الجدران مُدققاً النظر في النقوش والرسومات التي غطَّت جدران المقبرة بالكامل. استغرق فترة في تأمل أحدهم قبل أن يلتفت إلى الجدار عن يساره ليجد نقشاً ما تُغطّيه الأتربة فراح يُزيلها بيده وهو يُمعن التَّحديق فيه. ثوانٍ واقشعرَ بدنه بشدّة واعتراه الدهول والنقش يتضح رويداً رويداً أمامه. أخذ يُزيل الأتربة بلهفة وعيناه تسمرتا على الجدار. تصاعد لُهاؤه من فرط الإثارة والانفعال. كان النَّقش عبارة عن نبع ماء بجواره شجرة يجلس تحتها شخص ما. اقترب وولش ببصره مُمعناً النظر أكثر فشَهِق بذهول وأفقدته المفاجأة توازنه فتراجع خطوة للخلف، ورَجفة باردة تضرب جسده بالكامل. لوهلة شعر بالأرضية تهتز تحت قدميه لكنه لم يُعرِ الأمر اهتماماً راح يُثبّت بصره على النَّقش لكن بغتة حدث انهيار مفاجئ ليجد نفسه يهوى بسرعة. حاول التشبُّث بأيّ شيء فلم تجد يده سوى الفراغ فأطلق صرخة عالية واندفع مساعده نحو الفجوة التي خلفها سقوطه مستطلعين الأمر بفزع.

- بروفيصور وولش، هل أنت بخير؟

لم يسقط مسافة طويلة، قرابة مترين فقط. لكن جسده العجوز كان يئنُّ بشدة إثر اصطدامه بأرضية صخرية والغبار حجب عنه الرؤية والهواء، فراح يُسعل قليلاً قبل أن يتمالك نفسه وهو يحاول النهوض.

- أنا بخير، لا تقلقوا.

- احترس جيداً ريثماً نُخرجك من أسفل، الأرضية هنا هشة للغاية.

- حسناً، أسرعوا.

سقطت عُويناته فراح يبحث عنها حتى اصطدمت بيده وسط كومة من الحجارة والأتربة. سرّه أنه وجدها سليمة، فمسح عدساتها وأعاد وضعها على عينيه. بدأ الغبار في الانزياح واتضحت الرؤية أمامه تدريجياً، فاهتزّ جسده وارتعش لسانه وتجلّت في عينيه نظرات ذُهور طاغية وهو يتلفت حوله مشدوهاً مدهوشاً. حاول النطق فلم يستطع فأطلق صرخة عاتية فما يراه في تلك اللحظة كان مستحيلاً بكل المقاييس.

الفصل الأول

قرطبة 344هـ / 955م

راحت خطواته تتسارع تارة وتباطأ تارة أخرى. عيناه أخذتا في الدوران حوله وتفحص كل شيء بفضل طفوليٍّ. شوارع طويلة ممتدة، تضيق تارة حتى تتلامس أكتاف المارة وتتخبط أجسادهم، وتتسع تارة حتى تكاد تبتلع من فيها. خفقان القلوب له صوت وصدى يطرق مسامعك. إذا ضجّت الشوارع والدور بأهلها اتسعت القلوب، وإذا غاض الرزق، فاض الحب. وإذا ضاقت الدنيا اتسعت عباءة الأحلام وصارت فضاء، كأنها تُخرج لسانها لشطف الحياة وقسوتها. عباءة أحلام أبدع نساؤها صنعتها، تحتال فيها ومن حولك موج مُتدفق من كل شيء، روح وريحان، رائحة خبز ساخن وأريج برتقال، ليمون وتين، عنب وزيتون، ضحك ودموع، مرح وشقاء، وجوه ناضرة، ووجوه حفرت التجاعيد والهموم خرائط زمنية على جباههم. قلوب تنبض بالوجد والحب، وقلوب ثقبها استحالت ممرات تقود إلى دهاليز ومتاهات لا نهاية لها. المنظر حوله كان يملأ الصدور مهابة وإجلالاً. قرطبة؛ جليلة المقام، عظيمة الصروح والبنيان، أنوارها في عيون الورى لامعة، ونجومها عبر الزمان ساطعة، واديها قريع خصيب، وناديا يندو لقاصديها من كل مشرب بنصيب. حوضها مورود ومقامها محمود، وذكرها في الآفاق معلوم مشهود. جامعها الكبير لو حالفك الحظ واجتباك ومرت بجواره وأدركتك همساته فلربما صرت شاعراً عليماً أو أديباً أريباً

يُشار إليه بالبَنان. أما لو وَلَجْتَهُ وَأَصْغَيْتِ وَأَصْخَيْتِ وَمَسَّتْكَ نَفحاته فلربما
كَلِمَتِ الشجر والحجر ولربما مَلَكْتَ السهل والمَدَر.

زَفر قاسم بحرارة بالغة وهو يُدير رأسه متأملاً المشهد حوله. ساحة
الزَهراء تُفْضي إلى عدة شوارع حافلة بالعابرين، أحدهم يُفْضي إلى جامع
قرطبة، وثانٍ يَعْبُجُ بالورَّاقين وكتبة العرائض، وثالث تفوح منه روائح
طعام زكية، ورابع يُؤوي باعة الحرير والأقمشة، وخامس وسادس وسابع.
طوفان بشريٌّ مُتلاطم اختلطت مشاربه ومآربه ما بين داخل إلى مدينة
الزَهراء ومُغادرها. زَهراء عبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس القاهر الظَّافر.
أعجوبة زمانها ودُرَّة مكانها. ابتناها وشيَّدناها لتكون مقر الحكم والإدارة؛
فصارت مَحَطَّ الأنظار وإليها تُشَدُّ الرِّحال وتهفو القلوب. بُغية الأمراء
والوزراء والسفراء من شتى أنحاء المعمورة، كل منهم يأتي مُقدِّماً فروض
الولاء والطاعة، طامعاً وطامحاً في نيل صداقة قرطبة التي بلغت أوج عظمتها
ونَهضتها في تلك الآونة.

تَنهَّد بعمق وهو يستند بكتفه إلى جدار أحد الحوانيت تاركاً نفسه نُهْبَةً
للهواجس والظنون التي داهمته وراحت تتلاعب بعقله وتؤرجحه يُمينة
ويُسرة فأخذ يُجمِّع قائلاً:

- آه يا قرطبة استقبلني بوجه غير الذي كنت أرجو وأمل.

بالقرب منه أخذ شاب قرطبيٌّ يتسكَّع هنا وهناك مُلقياً دُعاباته على
أصحاب الحوانيت والباعة؛ كان جليلاً أنه معروف لديهم. وقف بجوار بائع
دُرَّاق والتقط حبة مسحها في ثوبه ثم ألقاها في فمه وراح يتجاذب حديث
باسم مع البائع. حانت منه التفاتة فأبصر قاسماً؛ شيء ما جذبته ناحيته فراح

يتفحّصه لبعض الوقت قبل أن يُعدّل عباءته الزرقاء المزركشة ويمر بيده سريعاً على شعره المنسدل خلفه ثم تقدّم بخطوات واسعة ناحية قاسم حتى صار خلفه مباشرة فأخذ نفساً عميقاً وقال:

- مرحباً بك في قرطبة.

جَفَلَ قاسم والتفت خلفه مُواجهاً الشاب الذي رسم ابتسامة واسعة على وجهه وأشار إلى الزهراء مُستطرداً بنفس اللهجة:

- الزهراء هكذا كل يوم؛ تموج بالبشر وتموج بالقَدَر؛ نجم يأفل وآخر يصعد، هذا ديدنها.

تأمّله قاسم لثوان؛ كان في مثل عمره تقريباً لم يتجاوز الثلاثين بعد. هزّ رأسه بضيق ولم يُجِب. عاد إلى سُروده وتأمّلاته. كان آخر ما يعوزه شاب مُتطفّل، فضولي، متحدّق، يقطع على عقله خلوته وعزلته. كان يقدح زناد فكره علّه ينجح في إيجاد مخرج لمأزقه الحالي.

لم يأكبه الشاب بإعراض قاسم وجفائه وكأنه لم يلمح ذلك. اندفع في الحديث قائلاً:

- تبدو غريباً، على مُحَيَّاك سِمة التائه الشارد، يُخَيِّل لي أنك مشرقيّ.

قَطَبَ قاسم جبينه ومن دون أن يلتفت إلى الشاب أجابه في نفور وباقتضاب محاولاً التخلص من تطفّله:

- من مصر.

صفّق الشاب بيديه بجذل وأطلق صغيراً طويلاً وتحرك حتى صار في مواجهة قاسم وهو يقول بإعجاب:

- كم أتوق لرؤيتها؛ زارها والدي ذات مرة وحكى لي الكثير عنها.
- صمت قليلاً ثم استطرد بلهجة حاملة فاتحاً ذراعيه:
- كم أغبطه على كثرة ترحاله.
- قالها وهزَّ رأسه بأسى مُتبعاً بنبرة حزينة:
- كان هذا فيما مضى قبل أن يتوفاه الله.
- التقط نفساً عميقاً وعادت إليه حماسته وهو يقول:

- الأمور متوترة هذه الأيام بين المعز الفاطميِّ صاحب مصر وعبد الرحمن الناصر. أسطول الفاطميِّ هاجم شواطئ الأندلس وارتدَّ إلى صقلية محملاً بالأسرى والغنائم؛ لكن منذ أيام هاجم أسطول الناصر تونس ردّاً على ذلك.

- أجل، سمعت ذلك.

- أصحاب العروش يتشاحنون ويتقاتلون ونحن ندفع الثمن.
- قالها الشاب بمرارة فرمقه قاسم بنظرة متسائلة فأتبع قائلاً:
- الحرب البحرية عطّلت حركة السفن وأغلقت الموانئ، أعمالنا توقفت.
- عدل عباة وقال بزهو وهو يَرَبِّت على صدره.
- أنا بحار، أعمل في نقل البضائع بين موانئ الأندلس وجنوة والبندقية.
- سعدت بلقائك أيها البحار.

قالها قاسم ببرود وهو يُشِيح بيده دلالة على عدم اكتراثه بالأمر. لم تكن لديه رغبة ولا نَهْمَة في الحديث. لكن الشاب لم يَأْبَهُ أيضاً واندفع متسائلاً والفضول يُطِلُّ من عينيه .

- ما سبب قدومك إلى قرطبة؟
- رَحالة وطالب علم. جئت ناويًا المكوث بضعة أشهر للتجوُّل والتعلُّم في جامع قرطبة.
- قالها بلهجة باردة ضَجِرة مؤملاً إنهاء هذا الحوار العبثي.
- خيرًا فعلت. هنا ستجد بُغيثك؛ علمًا أَرَدْتُ أو تجارة؛ أو هواً ولذة تأتيك وهي تسعى. قرطبة يا صاح مقصد الجميع؛ لا تَرُدُّ أحدًا خائبًا أو منكسرًا؛ هنا الخواطر تُجبر والقلوب تُطيب وتُؤسر.
- رماه قاسم بنظرة مُتهكمة ثم مطَّ شفتيه.
- يبدو أنها خالفت منطقها هذا معي.
- كيف؟
- فقدت نقودي؛ لا أدري هل سُرِقَتْ أم سقطت مني سهوًا؟
- قالها بحَنق فتأمَّله الشاب القرطبيُّ بشك واضح.
- لا عليك؛ لم أقل هذا لطلب صدقة أو نَشْدان عطف.
- قالها قاسم بلهجة المُعتدِّ الذي يرفض الانتقاص من نفسه فارتبك الشاب وشعُر بالخجل وصاح بصدق
- لا تقل هذا؛ هَلَمْ معي إلى داري ريثما تُدبِّر أمرك.
- لا عليك، سأجد مخرجًا ما.
- لا تقل هذا يا رجل، ليس من اللياقة والتهذيب أن أتركك وحدك في ضائقتك هذه.

ابتسم قاسم بامتنان وتردّد لثوانٍ قبل أن يقول بلطف:
 - أشكرك على كرمك؛ لكن لو أردت مساعدتي فدلّني على سوق
 الكتّيبين؛ أحمل معي عددًا لا بأس به من الكتب النادرة؛ أستطيع التّكسّب
 من بيعها.

قالها وأشار إلى حقيبة قماشية استقرت بجواره فصاح القرطبيّ.
 - إنه قريب من هنا؛ هلمّ معي أعرف بعضهم هناك.
 عاون قاسم في حمل الحقيبة وهو يقول بودّ بالغ.
 - أصدقائي ينادونني «البحار».
 - حسنًا أيها البحار اسمي قاسم بن عمار.
 توجهنا ناحية السوق وهما يتبادلان أطراف الحوار.
 - أعرف معظم الكتّيبين هناك، أرتاد حوانيتهم كل حين وآخر، أبتاع
 منهم بعض الكتب.

- وفي أيّ العلوم تقرأ؟
 - إذا هممت بالسفر إلى بلد ما، بحثت عما كتّب عنها ودوّنه الرحالة عن
 طبائع شعوبها وجغرافيتها، فأدخّل البلد وأنا مُلمّ بكثير من أحوالها، وأيضًا
 أحبذ كتب الأدب والشعر.

- الأدب، والشعر؟
 - ماذا، ألا يبدو عليّ هذا؟
 - لا لم أعن ذلك، فقط أمارحك.

ضحك البحار قائلاً:

- ما لا تعلمه أيها المصريُّ أن البحارة هم أولى الناس بالشعر والأدب،
فحين يطول بقاؤهم في البحر وينأى بهم عن بلادهم وأحبابهم، يهرعون إلى
الخيال يُعزُّون به أنفسهم ويُسلُّونها ويؤمِّلونها بقُرب اللقاء.

- أرى الشعر بدأ يجري على لسانك أيها البحار.

ضحك البحار وهو يقول:

- لم أخضُ غماره إلا منذ شهور، لكن أعجب ما في الأمر أني أقبلت على
الشعر وأحببته بسبب عملي في البحر، كنت أبتاع كتباً ذات يوم فغمزني
البائع قائلاً: «ابن عبد ربه نال من صانع خرائطكم وهجاه هجواً عنيفاً».
وناولني الرجل ديوان ابن عبد ربه لأرى مقالته ومن يومها صار الشعر
رفيقي وأنيسي.

- ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد؟

- ومن غيره؟!!

- ألهُ ديوان شعر؟

ابتسم البحار وقد حانت له الفرصة لينال من المصريِّ فقال مُمازحاً إيَّاه:

- آه، الآن من يسأل عن الشعر؟

ابتسم قاسم وربَّت على كتف البحار:

- لك هذه يا صديقي، لكن لم أعلم أبداً أن لابن عبد ربه ديوان شعر.

- له ديوان جيد في الشعر، لكنه لم يحظ بشهرة ككتابه العقد الفريد.

- وأيُّ صانع خرائط كان يهجوهُ ابن عبد ربه؟

- الفقيه والعالم أبو عبيدة بن مسلم الفلكي.
- بالطبع أعرفه، عالم أريب واسع الاطلاع وله عند الفقهاء والفلكيين مكانة.
- أما عند الشعراء فلا.
- ولم؟
- أبو عبيدة ممن يقولون بكروية الأرض، الأمر الذي لم يُنفع الشاعر ابن عبد ربه، فهجا الفلكي ورماه بالجهل.
- بدت الدهشة على وجه قاسم ومطّ شفتيه مستغرباً قبل أن يقول:
- وأنت إيها البحار، بم تقول؟ مُسَطَّحة هي الأرض أم كروية؟
- لست عالماً لأدلو بدلوي في هذا الأمر، لكن دائماً أحتكم إلى عقلي.
- هاه، وما الذي يُخبرك إياه عقلك؟
- توقّف البحار عن السير واستدار ناحية قاسم وقال بجديّة.
- نظرات الناس ومشاهداتهم الأمور تختلف على مذهبين؛ أحدهما مذهب القلب والخيال، وثانيهما مذهب العقل والعلم، فالقمر عند أصحاب المذهب الأول إما منير متألّئ يُداعب العشاق ويناجيهم، وإما حالك مُتَجَهَّم يُنذر بالشؤم والثُبور، أما أصحاب المذهب الثاني فالقمر جرم ساويٌّ يدور في الفلك الأعلى لأسباب نجهلها، ولا ندرى عنه إلا القليل، أقلها وعلامات وبالنجم هم يهتدون، وحين أكون في البحر، أهتدي بخرائط الفلكي وكتبه التي يقول فيها بكروية الأرض، ولا ينفعني ابن عبد ربه وشعره.
- قالها وانفجر ضاحكاً ومن خلفه قاسم قبل أن يُتبع البحار:

- أما شعر ابن عبد ربه فحين يهدأ البحر ويغفو، وتَنقَشُ الغيوم وتتضح صفحة السماء، حينها يبدأ عالم الشعر في بث سلطانه وتوطيد أركانه، فأستلقي على سطح السفينة مُتَغَيِّبًا مُتَرَنِّمًا، مُغَازِلًا القمر ومُدَاعِبًا نجوم السماء. قالها وهو يشير أمامه قائلاً:

- ها قد وصلنا سوق الكتبيين.

دَلَفَا إلى السوق ومَرًّا على أربعة حوانيت عَرَضَ عليهم قاسم ما لديه فلم يَأْبَهُ أحدهم. وَقَفَا يلتقطان أنفاسهما والبحار يتسائل مستفسراً:

- ربما كتبك هذه لا تروق لهم!!

تَمَلَّم قاسم في وقفته وقال بضيق:

- لعلهم يملكون منها نسخاً أخرى؛ لكن تلك التي بحوزتي مخطوطات قديمة لا تُقَدَّر بثمن.

صمت قليلاً وأدار رأسه متأملاً السوق الذي عَجَّ بأصناف وألوان من البشر؛ عرب، وبربر، وقشتاليين، وبشكنس وغيرهم. تداخلت اللغات واللهجات في رأسه فنفضها بقوة وتساءل بلهفة:

- هل من أحد آخر نقصده؟

أطرق البحار برأسه قليلاً قبل أن يرفعها قائلاً:

- ربما سانشو القشتاليُّ؛ دائماً يبحث عن الكتب القديمة والنادرة؛ وربما يروقه ما لديك.

- أين حانوته؟

- في نهاية السوق.

بضع دقائق و كانا بداخل حانوت سانشو. كان عبارة عن ممرٍ طويل متسع يعقب برائحة الورق القديم. المكان كان ضيقاً ومزدحماً وسقفه منخفض، وعلى جانبيه رفوف خشبية تحمل أعداداً هائلة من الكتب مُصنفة حسب محتواها، بينما ارتصّت على الأرضية أكداس ضخمة أكثر مما تضمُّه الرفوف. وفي نهاية الحانوت كان يقبع سانشو خلف مكتبه الخشبيّ مُدقّقاً النظر في الشاين. كان في آخر الخمسينيات من عمره وجهه أحمر ناريّ وعينه زرقاوان يشع منهما غموض ودهاء، وشعره أشقر مُجعد. كان رجلاً من النوعية التي لا تشعر حيالها بالارتياح. اقتربا فاستقبلهما بابتسامة عريضة اعتاد أن يؤديها كلما دَلَف أحدهم إلى المتجر.

- مرحباً، بأي شيء أخدمكما؟

تنحنح البحار قائلاً:

- لدينا ما نعرضه عليك، كتب قيمة.

تعوّد تكرار مثل هذا الموقف كل يوم حتى ملّه. الناس تعتقد أنها لو امتلكت كتاباً اصفرّت أوراقه واثنت صار ذا قيمة وبيع بمثل وزنه ذهباً. تبدّلت ابتسامته وتأمّلها جيداً قبل أن يشير إلى مقعدين مقابلين له قائلاً في فتور:

- اجلسا وأرياني ما لديكما.

جلسا سريعاً ورفع قاسم حقييته واضعاً إياها فوق ركبتيه وأخذ يُفرغ محتوياتها. وضع أمام سانشو كتاباً له غلاف جلديّ أسود.

- هذا المجلد يحوي أجزاء من تاريخ هيرودوت؛ نسخة قديمة باللاتينية.

تأمّل سانشو الكتاب بنظرة فاترة بينما طفق قاسم يُخرج كتاباً آخر بحماسة:

- وهذا كتاب عن تاريخ مصر حتى دخول العرب إليها. كتبه الأسقف
يوحنا النقيوسي؛ الذي عاصر دخول العرب.
مرت دقائق أخرج خلالها بضعة كتب وضعها أمام سانشو الذي هزَّ
كتفيه وقال بهدوء بالغ:

- بضاعتك مُزجاة لا تروقني؛ كلها مصنفات لا قيمة لها .

رفع قاسم حاجبيه وقد أحنقته كلمات سانشو فامتعض وجهه وسيطر
عليه الغضب وأشار بكفه بعصبية قائلاً:

- كيف تملك مكاناً مثل هذا ولا تدرك قيمة ما أعرضه عليك؟
هزَّ سانشو كتفيه وفرد ذراعيه مبتسماً بتهكُّم:

- على رسلك إيها الشاب، ومرحباً بك في قرطبة، حانوتي هذا يحوي
أكداًساً مما تحمل؛ حسبتك تحمل شيئاً ذا قيمة.

همَّ قاسم بقول شيء ما لكنه أحجم وتبادل مع البحار نظرات صامتة
حائرة قبل أن يشرع في عصبية بإعادة الكتب إلى حقييته وهو يُغمغم بكلمات
ساخطة غير مفهومة. كان في حالة غضب وتوتر هائلين راحت يده من
فرطهما ترتعشان فسقط منه كتاب على مكتب سانشو فانحنى الأخير مُلتقطاً
إياه ومرره إلى قاسم. لكن انحناء جسده ألقى ببصره داخل الحقيبة فلمح
ما جعل جسده يرتجف فضولاً؛ فأشرأب بعُنقه مُدققاً النظر فلمح لفافات
ورقية أدرك كُنْهها على الفور. عاد بجسده إلى الخلف وهو يبتلع ريقه محاولاً
إخفاء فضوله. تبدلت سحنته تماماً وحلَّ وجه آخر بشوش مبتسم وهو يقول
بلهجة ودودة ملوَّحاً بسبَّابته:

- عرضت عليَّ أشياء وتركت أشياء وما أحسبه النسيان.
 رmqه قاسم بنظرة متسائلة، في حين استطرد القشتاليُّ بلهجة ناعمة
 كالأفاعي:

- يبدو أنك لم تعرض عليَّ كلَّ بضاعتك.
 رفع قاسم عينيه باستغراب فيما أشار سانشو إلى الحقيقة مُردِّفًا:
 - لم تُرني تلك اللِّفافات.
 ضاقت عينا قاسم وحدَّق في سانشو لثوانٍ قبل أن يُعاود وضع الكتب في
 حقيبتة قائلاً بحزم:

- عرضت عليك كلَّ ما لديَّ؛ البرديات ليست للبيع.
 لم يكن القشتاليُّ من النوع الذي يستسلم بسهولة أو يترك صفقة ثمينة
 تذهب من بين يديه. كان خبيرًا في مضماره مُحَنَّكًا في إنهاء صفقاته. فراجع في
 مقعده وشَبَّكَ أصابع كفيه أمام وجهه وابتسم بخُبث قائلاً:
 - لديَّ لك صفقة رابحة.

جذبت الكلمات انتباه الشابين فاعتدلا في وقفتهما وأصغيا باهتمام بينما
 استطرد سانشو:

- أمنحك عشرة دنائير ذهبية مقابل بضاعتك المزجاة.
 تهلَّلت أسارير الشابين وهمَّ قاسم بقول شيء ما لولا أن أكمل سانشو
 بنفس لهجته:

- شريطة أن تُرني تلك البرديات وتُطلعني على محتواها.
 أطلق البحار صغيرًا قصيرًا ثم قال:

- صفقة رابحة أيها المصري؛ لو كنت مكانك لما ترددت لحظة.

راح قاسم يتأمل عينيّ سانشو الماكرتين وهو يُقلب الأمور في رأسه. انقبض قلبه فجأة ورفّت عينه اليسرى. لطالما أخبرته أمه أن هذا نذير شؤم وأن مصيبة ما ستحلُّ، كان يضحك آنذاك ويعزو الأمر إلى الخُرافات التي ملأت عقلها العجوز. لكن في تلك اللحظة ساوره شعور غريب أن هناك طامة تتربّص لثب عليه. ودّ لو قال لا ورفض الصفقة؛ لكن الظروف. لَعَن الظروف والحاجة في سره بينما انطلق داخل عقله صوت هادر كالرعد مطالبًا إياه برفض الصفقة. نَفَضَ عن رأسه كل تلك الهواجس وقال على مَضَض وهو يدافع نفسه:

- اتفقنا.

قالها وأعاد وضع الكتب أمام سانشو الذي نحّاها جانبًا بلا مبالاة ونقد قاسم الدنانير العشرة ثم قال بلهفة وفضول عاتيين وهو يُشير بكفه:

- هيّا؛ أرنى ما لديك.

جلس قاسم وهو يُخرج البرديات بحرص واضعًا إياها أمام سانشو الذي وَمَضَت عيناه بوميض غريب؛ بينما أخرج قاسم كُتُبًا صغيرًا جلده أحمر سميكًا وضعه بجوار البرديات. بلغت الإثارة مبلغها من سانشو وقاسم يَشْرَع في فرد البرديات أمامه. كانت مكتوبة بالمصرية القديمة فشعر القشتالي برجفة هائلة تسري في أوصاله وهو يتأملها برهبة شديدة فيما طَفِقَ قاسم يقول بصوت عميق:

- إنها برديات مصرية قديمة تحكي عن أسطورة أحد ملوك مصر؛ الذي قاد جيشه حتى مغرب الشمس. أرضًا لم تطأها قدم بشر. وهناك رأى

الأعاجيب والأشياء الغريبة؛ ثم عاد من هناك مُحَمَّلًا بنفائس وأشياء بديعة لم ترها عين بشر من قبل قط. وحين عاد إلى مصر قصَّ على الكهنة أخبار رحلته وما لاقاه فيها من عظام لكن أعجب ما رواه كان عن نبع الحياة؛ من يرتو منه ينل الخلود.

شعر سانشو بالقشعريرة تسري في جسده وأخذ وميض عينيه يتزايد وهو يتساءل بانفعال هائل:

- أيُّ أرض تلك؟

هزَّ قاسم كتفيه قائلاً:

- إنها أسطورة قديمة؛ ليست حدثًا حقيقيًا.

قالها وأخذ يُقلب البرديات حتى توقَّف عند إحداها فأشار إليها قائلاً:

- هذه الخريطة يُقال إنها تصف موضع تلك الأرض بدقَّة. لكنها مُشَفَّرة بشيفرة عجيبة لم ينجح أحد في فك رموزها وطلاسمها.

اقترب سانشو بجسده متأملًا الخريطة متسائلًا بذهول:

- من أين حصلت على تلك الأشياء يا فتى؟

- راهب مصريٌّ كان يقيم قرب بلدتنا أعطانها مع ذلك الكتاب الذي يحوي ترجمة البرديات بالقبطية فنقلتها أنا إلى العربية.

صمت قليلًا ثم استدرك سريعًا وكأنه تذكر أمرًا ما:

- الكُتُب أيضًا عمره قرون؛ كُتِب في زمن غابر حين كان القبط لا يزالون يفقهون رموز المصرية القديمة؛ الآن لا أحد يفقهها.

طال تحديق سانشو في البرديات والكتيب قبل أن يرفع وجهه وهو يبتلع ريقه بصعوبة قائلاً بحرارة ورذاذة يتطاير:

- أدفع لك عشرين ديناراً ذهبياً مقابل البرديات والكتيب.

ابتسم البحار بذهول بينما جُمِدَت ملامح قاسم وطال صمته وسانشو يرقُب شفّتيه بتوتر متظّراً كلمة قاسم التي جاءت بحزم بالغ:

- ليست للبيع.

وَجَم سانشو بينما كسا الذهول وجه البحار فراح يقول في استهجان:

- هذه صفقة لا تُرفض يا فتى؛ هيا اعقدّها الآن.

هَبَّ قاسم واقفاً مُلمّلاً بردياته واضعاً إياها داخل الحقيبة وشدَّ رباطها وحملها على كتفه مسدداً نظرات حاسمة إلى سانشو:

- معذرة، هذه الصفقة لا تُناسبني.

قالها وأولاه ظهره وانطلق مغادراً المتجر فانتفض سانشو واقفاً وجسده البدين يهتز من فرط الانفعال وهتف بلهفة:

- سأجعلها خمسين ديناراً ما رأيك؟

تهللت أسارير البحار ولحق بقاسم رابتاً على كتفه:

- ما بالك؟! هذه ثروة يا رجل.

لم يلتفت قاسم وأكمل سيره بخطوات واسعة مغادراً المتجر غير مبالي بصيحات البحار أو نداءات سانشو الذي اندفع من مكانه وجسده البدين يترجح متأملاً الشابين اللذين ابتعدا بينما نقاشهما الحاد يطرق مسامعه. أشار إلى شخص يجلس بالخارج فهرول ناحيته فهمس سانشو مشيراً إلى الشابين:

- اذهب خلفها واعرف أين يُقيمان.

أوماً الرجل برأسه وانطلق خلفها؛ فيها أخذ سانشو يرشقهما بنظرات ساخطة وهما يتبعدان حتى غابا عن ناظره فدمدم بغضب قائلاً:

- على الغزلان ألا تتباهى بطيب لحمها أمام الذئاب.

* * *

قارب الوقت منتصف الليل. بدأت نُدْفُ الثلج في التساقط. ليلة شتاء باردة خلت فيها الطرقات من المارة تماماً وحلَّ السكون ونشر الهدوء سلطانه. تَلَفَّت سانشو حوله بحذر ليتأكد أن لا أحد يتبعه. سار بخطوات واسعة حتى وصل إلى كنيسة قديمة تقع على أطراف المدينة. دفع بوابة السَّيَاح الأماميَّ برفق فانزاحت أمامه فدلَّف مسرعاً متجاوزاً حديقة صغيرة حتى صار أمام باب الكنيسة مباشرة. أمسك بالحلقة المعدنية وطرق الباب برفق أربع طرقات متتالية ثم طرقة خامسة بها نوع من الحِدَّة؛ توقف بعدها ملتقطاً أنفاسه وهو يفرك كفيه بعصية. مرت ثوان ثقيلة بطيئة قبل أن ينزاح الباب كاشفاً عن فُرْجة صغيرة أطلَّ منها عملاق جامد الملامح صارم القسَمات. أخذ يتأمل سانشو متفحصاً إياه قبل أن يسأله بصوت جاف غليظ:

- ما سبب المجيء الآن؟

أجابه سانشو في حرارة:

- الأمر خطير للغاية، يجب أن ألتقي الأستاذ حالاً.

ظل العملاق يُحدِّق فيه لثوان من دون أن تتبدل ملامحه الجامدة، قبل أن يتراجع للخلف بجسده الضخم مُفسِّحاً الطريق ساعماً له بالدخول. أوصد الباب ثم قاد سانشو إلى داخل الكنيسة متوجّهاً ناحية القاعة الكبرى. وصلا

حتى منتصفها ثم عرجا ناحية اليسار متوجهين إلى ممر طويل ضيق، إضاءته خافتة، فقط ارتصت بضعة مشاعل على جنباته يتراقص لحيهم مخلقا ظلالاً مخيفة أخذت تتقافز على أرضية الممر. توقفاً أمام باب خشبي ضخم في نهاية الممر دفعه العملاق بقوة ثم غاب خلفه ومن ورائه سانشو. كان أمامهم درج حجري طويل ضيق يقود إلى أسفل. هبط الرجلان ليجدا أنفسهما في ممر آخر لكنه أقل طولاً من سابقه ينتهي بباب معدني، طرقه العملاق بهدوء ووقف باحترام بالغ حتى فتح أحدهم الباب. كان طويلاً نحيلًا حادّ النظرات يملأ وجهه نمشٌ بُني صغير، ويرتدي زياً أسود قائماً شبيهاً إلى حد ما بأردية الرهبان. أشار إلى العملاق بالانصراف فيما دخل سانشو وسكّ النحيل الباب ثانية. التفت سانشو ناحية ركن الحجرة الواسعة حيث يقبع مكتب خشبي عتيق يجلس خلفه كهل أشيب في الستينيات من عمره معقوف الأنف له ملامح صارمة ونظرات ثابتة ويرتدي أيضاً نفس الرداء الأسود. كان على الجدار خلفه شعار جلدي ضخم يحمل صورة جمجمة يخترقها صليب. حلّ صمت مهيب لم يقطعه سوى إشارة الرجل إلى سانشو بالاقتراب، فهرول سريعاً ناحيته مطأطئاً رأسه باحترام وتبجيل بالغين.

- ما سبب قدومك الآن؟

قالها الأستاذ بصوت أجش يثير الرّجفة في قلوب سامعيه، فهزّ سانشو رأسه متوتراً فيما وقف النحيل خلفه بهدوء. أخذ سانشو نفساً عميقاً محاولاً التغلب على توتره ورهبته ثم ابتلع ريقه وراح يقصّ على الأستاذ ما جرى له مع المصري ورفيقه. انتهى من حديثه ولهائه يتصاعد وهو يرمق ملامح الأستاذ الجامدة التي اختفت تعابيرها تماماً، فقط قلب كفيه قائلاً:

- ما الذي يهمننا في ذلك؟ لم نحصل من قبل على برديات مصرية، ما الذي قد يُفيدنا فيها، ثم إنك تقول إنها عن أسطورة؟
- امتعض وجه سانشو وهربت منه الدماء ولم يُجر جوابًا قبل أن يريح الأستاذ أعصابه قائلاً بحزم:
- لكن من الجيد أنك أطلعتنا على الأمر، الأوامر التي لديك تنصُّ على إبلاغنا بأي شيء غريب أو نادر.
- تنفس سانشو الصُّعداء وتهللت أساريه والأستاذ يسأله باهتمام:
- هل عرفت أين يقيم ذلك المصريُّ؟
- أجل يا سيدي، لقد أرسلت أحد رجالي خلفها. المصريُّ يقيم عند ذلك العربيِّ قريبًا من حيِّ العطارين.
- أوماً الأستاذ برأسه مشيرًا إلى النّحيل قائلاً بلهجة أمّرة:
- رامون، اهتم بالأمر قبل بزوغ الفجر.
- أحنى رامون رأسه باحترام فيما برقت عيناه بشراسة ووحشية لا حدود لهما.

* * *

- وضع البحار عدة أطباق تحمل صنوفًا من الطعام على مائدة صغيرة أمام قاسم وهو يقول بود وترحاب:
- سينال إعجابك طعامنا الأندلسيُّ، له مذاق خاص أيها المصريُّ.
- أجابه قاسم وهو يسترخي في جلسته:
- كل شيء في الأندلس له مذاقٌ خاص، تروقني هذه البلاد كثيرًا.

رفع البحار حاجبيه وقال متهمًا:

- لكن تصرفك لا يروقني، أضعت على نفسك اليوم صفقة رابحة.

ابتسم قاسم وهو يهز رأسه:

- ليس كل شيء يصلح أن يكون صفقة، بعض الأشياء أثمن من أن تقدرها بالمال.

واصل البحار تهكمه:

- وما الثمين في تلك الورقات أيها المتحذلق؟

- صدقني لست أعرف. لكن منذ حصلت عليها من الراهب باخوميوس وأنا أؤمن أن وراءها سرًا عظيمًا.

تساءل بفضول:

- ولم أعطاك الراهب البرديات؟

اعتدل مجيبًا:

- كان صديقًا لوالدي، وكان يقيم في دير قريب من قريتنا، ولم يكن أبي يكف عن زيارته وكنت دائمًا برفقته أحببني الراهب وقربني منه وعلمني الكثير. علمني القبطية والفلسفة ودرس لي تاريخ مصر.

قطع كلامه وشرد قليلًا قبل أن يزفر بحرارة مستطردًا:

- بعد وفاة والدي صار لي الراهب بمنزلة الأب. وأكثر من زيارته ومجالسته، كان ودودًا عطوفًا حلو المعشر صاحب دُعاة، وحين أحسّ بدنوّ أجله أوصى لي بتلك البرديات والكتيب ومعظم مقتنياته.

مطّ البحار شفثيه وتساءل مستغربًا:

- وما أهمية تلك البرديات؟

قَطَّبَ قاسم حاجبيه وقال في حيرة شديدة:

- حتى الآن لا أعرف.

اكتسبت لهجته ثقة عالية وهو يُتبع:

- لكن أوقن أن خلفها شيئاً ما، شيئاً خطيراً وعظيماً للغاية .

تأمله البحار لثوانٍ قبل أن يُلوِّح بيده قائلاً من دون اكتراث:

- الأمر الخطير أن الدجاج يجب أن يُؤكل ساخناً، إذا برد سيكون مذاقه سيئاً.

قالها وشرع يتناول طعامه فابتسم قاسم لدعابته وراح يشاركه الطعام بَنَهَم. بعد ساعة كان الاثنان يُعْطَّان في نوم عميق من دون أن يشعرا بالرجلين الملثمين اللذين كَمِنا فوق سطح المنزل.

* * *

فَرَكُ الأستاذ كَفَّيه بعصبية وهو يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً، والتوتر بادٍ على ملامحه. أخذ نفساً عميقاً ثم توقف أمام الشعار الجلديّ خلف مكتبه وراح يتأمل به تركيز وهو يُمعن الفكر في أمر ما. التقط نفساً عميقاً ثم استدار ببطء وسحب مقعده وألقى بجسده عليه وهو يتناول عدة أوراق من على سطح مكتبه وراح يطالعها بتركيز وانتباه شديدين. كان أمامه قائمة تضم عدداً من الأسماء وضع أمام كل منها تعريفاً بصاحبها وتعليقاً ما حوله. راح يمر ببصره على القائمة، التي امتلأت بأسماء من عينة قاضي قرطبة، أمير الثغور، والي إشبيلية، كبير الموالي، زعيم اليمانية، زعيم القيسية، كبير الصقالبة. تناول

قلمه وراح يخط دوائر حول بعض الأسماء، قبل أن يبدأ تقليب الأوراق ليستقر عند إحداها وتتسمّر عيناه على عنوانها (إحياء مسيلمة نبيّ اليمامة).

طال به التوقف والتحديق في الورقة ولم يشعر بنفسه إلا مع صرير الباب المعدنيّ، فالتفت بلهفة ليجد رامون يتوجه ناحيته بوجهه البارد القاسي حاملاً البرديات والكتيب وعيناه تشعان ببريق وحشيّ ظافر.

وضع الأوراق على المكتب أمام الأستاذ الذي ابتسم بسعادة قائلاً:

- هل أرقّتم دماء؟

- لم يلزم الأمر منا ذلك، الشباب كانا يغطّان في نوم عميق، دخل رجالنا خلسة وحصلوا على بُعيتنا وغادروا من دون أدنى جَلَبَة.

تجلىّ الارتياح على وجه الأستاذ وقال:

- جيد. لا نريد دماء خلفنا تثير التساؤلات والشبهات، خاصة هذه الأيام، رجال الناصر نشطون بشدة.

قالها وراح يتفحص البرديات بعناية وهو يقلّب أوراقها بحرص، ومن دون أن يرفع عينيه عنها أشار بيده إلى رامون قائلاً:

- أحضر غاليرا حالاً.

تحرك رامون سريعاً متجهّاً إلى الجدار عن يساره وأزاح ستاراً جليدياً له نفس لون الحجرة ليظهر من خلفه باب صغير أدار مقبضه ثم جذبه ودفع نفسه خلفه مُخنياً ظهره ليتمكن من الدخول.

اختفي لبضع دقائق استغرقها الأستاذ في تصفح الكتيب قبل أن يتناهى إلى مسامعه خطوات رامون الذي ظهر على عتبة الباب وعلى ساعده يستند عجوز جاوز الثمانين من عمره يرتدي الرداء نفسه وهو يخطو خطوات وئيدة مهلة. كانت رأسه صلعاء تمامًا، على حين أتى الزمن على جسده فأكل لحمه وأذاب شحمه، وأبلاه وقَلَصه حتى صار ضئيلاً للغاية. لكنَّ ذهنه ظل صامداً رغم السنون، كان مُتوقِّداً كقلب الشمس الملتهبة، لامعاً صارماً كنصل سيف بتار يخشاه حتى الصداً. رفع الأستاذ بصره نحو العجوز الذي أخفت التجاعيد ملامح وجهه فلم يُبدِ غير عينه الوحيدة السليمة بينما طُمست الأخرى تماماً. اقتربا من المكتب فأجلس رامون العجوز برفق ثم سحب مقعداً وجلس صامتاً بجواره.

تأمل الأستاذ غاليرا لثوانٍ قبل أن يقول وهو يشير إلى البرديات:
- قبل أن أفتحك في أمر هذه أودُّ إخبارك أن خطة إحياء مُسيلمة التي وضعتها قد دخلت حيز التنفيذ.

لاحت السعادة على مُحيّا غاليرا وهزَّ رأسه بغبطة قبل أن يستطرد الأستاذ بامتنان:

- وجودك إلى جوارنا منحة من الربِّ لنا يا غاليرا.
رفع غاليرا رأسه ببطء وهو يقول بصوت عميق كأنه قادم من جوف بئر سحيقة:

- وأمر اللاتينية، ماذا فعلتم بشأنه؟
- أعطينا أوامر إلى كل الكنائس والأديرة التابعة لنا، للتوسع في تعليمها، وإخضاع رعاياهم لدروس يومية بشتى السبل.

- حسناً فعلتم إياها الأستاذ، اللغة روح وهوية إذا فقدتها المرء انسلخ من كينونته ومعتقدده وصار سهلاً لديه تقبُّل أيِّ فكر جديد، ولكم يُحزنني أن أرى أبناء إسبانيا من المسيحيين ينظمون الشعر بالعربية، ويعجز المرء منهم عن كتابة بضع كلمات بلغته اللاتينية، إذا واصلنا هذا المنحدر، سندوب رويداً رويداً وسط العرب كما ذابت قبلنا أمم كثر.

رفع رامون صوته متحدثاً:

- كتب العرب وعلومهم هي من تُجبر الناس على تعلم العربية ليسهل تحصيلهم تلك العلوم.

- حتى لو تعلموا العربية، يجب أن تظل اللاتينية حيّة بداخلهم، مذكرة إياهم بهويتهم وأصلهم.

هزَّ الأستاذ رأسه مؤيداً غاليرا قبل أن يدفع بالبرديات والكتيب أمامه ويسأله باهتمام:

- لبثت سنين من عمرك في مصر.

هزَّ غاليرا رأسه ببطء وقال بصوت عميق هادئ:

- أجل، كان هذا منذ خمسين سنة. قضيت هناك ست سنوات تعلمت خلالها القبطية ودرست تاريخ مصر.

اقترب الأستاذ بجسده واستند بمرفقيه على سطح المكتب مُدققاً النظر في غاليرا قائلاً:

- هل رأيت برديات مصرية قديمة من قبل؟

- أجل، الكثير منها، لكن لا أفقه لغتها، لم يعد هناك من يفهم رموزها.

أشار الأستاذ إلى البرديات والكتيب:

- حسنا، تفحص هذه، لحسن طالعنا معنا ترجمتها بالعربية والقبطية.

شعر غاليرا بالبرد يخترق أحشاءه وينشب فيها أنيابه فندت منه شهقة وقال بآلم:

- أشعر بالبرد.

قالها بتوجع وجسده العجوز يرتعش فنهض رامون لفوره وألقى ببضع قطع من الخشب داخل المدفأة الحجرية، فيما انحنى غاليرا ببطء وراح يتفحص البرديات باهتمام لبضع دقائق شعر خلالها بحرارة جسده ترتفع، ولم يدر هل بسبب الرهبة التي تملكته أم بفعل نيران المدفأة. قلب البرديات حتى توقف عند الخريطة، تأملها بإعجاب وذهول بالغين، وراح يمر بيده على نقوشها ورسوماتها بانبهار جعله يهتف بحرارة:

- لم أر خريطة من قبل بهذه الدقة والجمال.

تأملها لثوانٍ أخرى قبل أن يقلب في البرديات مجدداً لتقع عيناه على بردية تحمل رسومات دائرية دقيقة برّاقة راح غاليرا يُملّس عليها بأصابعه قائلاً بانفعال:

- يا إلهي، لقد شاهدت هذه الرسومات من قبل.

- أين رأيتهما؟

- في معبدتين في مصر، زرتهما وشاهدت فيهما تلك الرسومات التي تُمثل أبراجاً فلكية، بعض المصريين قالوا لي إنها رسم كامل للسماء وإن كنا حتى يومنا هذا لم نفهم طبيعته ورموزه بسبب جهلنا بالمصرية القديمة.

قالها ونَحَّاهَا جانبًا والنقط الكُتِيب وراح يمر ببصره على الترجمة القبطية، وطوال ساعة كاملة لم يتفَوَّه أحدهم بكلمة. ظل غاليرا مُنَكَّبًا على الكُتِيب وعينا الرجلان تتابعانه بفصول ولهفة والثواني تمر عليهما كالدهر والشغف يكاد يفتك بهما. أخيرًا انتهى غاليرا فرفع رأسه ببطء وتأمل وجه الأستاذ قليلًا ثم حكَّ أسفل ذقنه وأخذ يقول:

- إنها تروي أسطورة مصرية قديمة عن وصول أحد ملوكهم إلى مغرب الشمس، حيث وجد نبع الحياة.

- لم أسمع من قبل عن نبع الحياة هذا.

قالها الأستاذ باستغراب فأجابه غاليرا بتلقائية:

- يقال إن من يرتوي منه ينال الخلود:

تدخل رامون في الحديث مُستحثًا غاليرا على التحدث أكثر فسأله بلهجة مُستشفة:

- هل تعرف أكثر عن قصة النبع هذه؟

سكت غاليرا ولم يُرد. أغمض عينه الوحيدة وأطرق برأسه وسقط في صمت مطَّبق تجاوز الدقيقة، وهو يسترجع أشياء من قلب ذاكرته السحيقة. كانت هذه عادته حين يود استرجاع معلومة ما مضى عليها سنوات. كان يُصَفِّي ذهنه تمامًا ويستجمع خيوط أفكاره ثم ينظمها وينسجها في عقله قبل أن يَبوح بما لديه. فَرَّغ من صمته فرفع رأسه ببطء وقال بصوته العميق:

- في شبابي التقيت بشيخ متصوِّف في مدينة بغداد، حدثني عن ملك يُسمى ذو القرنين، لم يَر مثله في قوته وعظمته، قهر كل ملوك الأرض ودانوا له، وطاف بجيشه مشارق الأرض ومغاربها، حتى خضعت له الدنيا بأسرها.

توقف قليلاً ملتقطاً أنفاسه ثم عاود حكيه والرجلان يُصغيان باهتمام:

- كان وزيره رجلاً صالحاً مباركاً يسمى (الخضر) حارس البحر.

- حارس البحر؟

تساءل الأستاذ بفضول وجسده لا يكاد يستقر في جلسته من فرط الإثارة فأجابه غاليراً:

- أجل، يؤمن بعض المتصوفة بذلك، يعتقدون أنه يُعين المحتاجين ويساعد من أعتيم المحن

صمت هنيهة ثم استطرد:

- أخبره الخضر ذات مرة أنه قرأ في سفر قديم عن نبع الحياة، مصدر الخلود ومادته، وأنه داخل ظلمة في قلب جبل في أرض نائية لم تطأها قدم بشر. ملك الأمر لبَّ ذي القرنين وسيطر عليه وهام به شغفاً، فطفق يحول بجيوشه في كل مكان بحثاً عن النبع. حتى وصل إلى مغرب الشمس. أرض لم يرها إنس من قبل، قاده خلالها الخضر حتى وصلوا إلى جبل عظيم مهيب، حدّس الخضر أن النبع بداخله. تركا الجنود ودخل الرجلان بمفردهما، وظلا طوال النهار يبحثان عن بُغيتهما داخل كهوف وممرات الجبل، حتى انتهى بهما المطاف إلى طريق ذي اتجاهين، سلك كل واحد منهما طريقاً غير الآخر وتعهدا أن من يعثر على النبع يعود ليُخبر صاحبه. ظلا يبحثان طوال الليل حتى انتهى طريق الخضر إلى النبع فانكبَّ عليه وارتوى منه، ثم عاد مسرعاً ليُخضر ذا القرنين، لكن العجيب أنها لم يستطيعا إيجاد النبع ثانية أبداً، كأنه اختفي للأبد. أقاما هناك شهوراً طويلاً يبحثان ويُنبّان داخل الجبل لكن لم

يُعْثُرُ له على أثر مجدداً، فمَلَّ ذو القرنين وارتحل بجيشه. وهكذا صار الخضر مُخَلِّداً، أو للدقة صار من المنظرين.

- المنظرين؟

تساءل الأستاذ مندهشاً فأجابه غاليرا:

- أجل. المنظرّون هم آخر الناس موتاً، لا يقضون نجبهم إلا يوم الوقت المعلوم، ولا نعلم منهم أحداً على وجه اليقين غير اللّعين، يقال إنه أول المنظرّين حين طلب من الرب ذلك بعد أن طرده من الجنة.

جَثَم الصمت عليهم لبعض الوقت امتلاً خلاله الجو بالأنفاس الثقيلة. تبادل الأستاذ ورامون نظرات دهشة وذهول طاغيتين قبل أن يتساءل الأستاذ بحيرة:

- غاليرا، هل تؤمن بأسطورة النبع هذه؟

سَعَلَ غاليرا بعنف ثم راح يتأوّه بصوت خفيض قبل أن يهدأ ويلتقط أنفاسه مجدداً وهو يقول:

- الحقائق دائماً تكمن خلف الأساطير، والمسافات بين الحقائق والأساطير تطول وتقصّر، لكن غالباً كل أسطورة بها بعض من الحقيقة. مادة الأسطورة تاريخ حقيقيّ حرّفه الناس على مر الزمان.

- إذن، النبع حقيقيّ؟

تساءل رامون فمطَّ غاليرا شفّيته قائلاً:

- ربما نعم، وربما لا. وأيضاً قد تكون تلك الأسطورة مُنتَحَلَة عن قصة أخرى، قصة حقيقية تختفي خلف حكاية النبع تلك.

- شيء مثل ماذا؟

تساءل الأستاذ بفضول فأجابه غاليرا بحيرة:

- لا أدري إليها الأستاذ، لكن ما يُحيرني وجود هذه الخريطة، لم أسمع من قبل عن أسطورة مُدعمة بخريطة دقيقة في رسوماتها ورائعة مثل هذه.

- ما الذي قد يعنيه هذا برأيك؟

- لا أدري على وجه الدقة، لكن أستطيع أن أجزم أن هذه الخريطة تقود إلى شيء ما، شيء عظيم للغاية، الكتيب ذكر أهوالاً وعجائب لاقاها الملك المصري في رحلته تلك، وتعليقات الكهنة على تلك الرحلة توحى بخطورتها وأهميتها.

أخذ الأستاذ ينقُر بأنامله على سطح مكتبه وهو يُحدِّق النظر في عين غاليرا ثم قال بحزم بالغ:

- إذن، يجب أن نفلَّ شفرة الخريطة، ونعرف ما الذي تُخفيه.

أوماً غاليرا برأسه مؤمناً على كلام الأستاذ الذي أردف بنفس اللهجة:

- ستكون تلك مهمتك أنت ومعاونيك، اتركوا كل ما بأيديكم واعكفوا على تلك الخريطة منذ اللحظة.

- سأفعل يا سيدي.

قالها ورَّان على المكان صمت عميق مهيب، وأَعْيُن الثلاثة ترمُق البرديات بفضول وإجلال بالغين، فما تحويه تلك البرديات قادر على تغيير مجرى التاريخ تماماً.

الفصل الثاني

القاهرة 1998م

في لحظات اندلعت معركة حامية الوطيس في سماء القاهرة. تكوّر الليل على النهار، والنهار على الليل. تداعت الغيوم إلى صفحة السماء. احتشدت وتشابكت وغطته تماماً، وأخفت ملامحه. عبثاً حاولت الشمس تبديد الغيوم أو اختراقها والنفاذ خلالها بأشعتها. لم تُفلح فولّت حسيرة خاسئة. انتشت الغيوم فزجرت صاخبة ببرقها ورعدها، أعقبته بشلال ماء منهمر. مولود جديد حديث عهد بالدنيا. راح رذاذه يتناثر هنا وهناك، وأخذت زخّاته تغسل الأشجار والطرق، وطفقت رائحته تغسل الأفئدة والأرواح. أغمض عالم الآثار المصريّ مخيون عبد القادر عينيه وأخذ نفساً عميقاً تاركاً الهواء يملأ رئتيه لينقيهما من شوائب التدخين التي أرهقت صدره على الرغم من عدم تجاوزه الخامسة والأربعين من عمره بعد.

ألقي الرجل نظرة فاحصة على الشارع من النافذة وهو يُريح ذراعيه على حاجزها ورائحة مثيرة تُنعش روحه إثر اختلاط المطرّ بأتربة الشارع وفي نفس اللحظة أخذت المصابيح الليلية في التوهج وإلقاء ضوئها على الطريق شبه الخالي من المارّة في ذلك التوقيت.

تأمّل الرجل الشارع لثوانٍ أخرى قبل أن يغلق النافذة ويستدير عائداً إلى منتصف الحجرة حيث جلس طارق منصور يتفحص مجموعة من الأوراق

بعناية وتركيز شديدين والذهول يكسو كل ذرة من ملامحه. أخذ يُقلب الأوراق في لهفة ولهاته يتزايد من فرط التأثر.

في ركن الحجرة جلست شابة في الثلاثينيات من عمرها منهمكة في حديث هاتفيّ بصوت منخفض وإن كانت ملامح وجهها تُنبئ بأهمية المحادثة. كان مخيون قد أرسل في طلب الاثنين منذ ساعتين بشكل مموّه وسرّي للغاية. الرجل كان قد اختفي عن الأنظار منذ شهرين. فقط تلقى طارق ونور رسالة منه يخبرهما فيها بمكانه الحالي طالباً منهما اللقاء للأهمية البالغة.

اقترب مخيون من طارق وزفر بحرارة وهو يفرك كفيه قائلاً:

- صدّقت كلامي لما قلت لك إن نتيجة الكشف هتغير وجه التاريخ تماماً.

رفع طارق رأسه بذهول متأملاً مخيوناً وبصوت مبحوح مفعم بالإثارة قال:

- أنا عاجز عن تصديق المعلومات دي، ده هيكون أعظم كشف أثري في تاريخ الحضارة المصرية.

صمت هُنيئَةً وكأنه لم يُوفّق في عبارته تلك التي لم تعطِ الكشف حقه، فهزّ رأسه مستدرّكاً وهو يحك جبهته:

- بل أعظم كشف في التاريخ، العالم كله هيهتز لما يظهر الكشف ده للوجود، التاريخ هيعاد كتابته بالكامل من جديد.

جلس مخيون مواصلاً فرك كفيه بعصبية والقلق يلتهم ملامحه:

- الأهم من كده تحديد مكان المقبرة، أنا بصدد معرفة مكانها بدقة.

اقتربت منهم نور واستندت يديها على الأريكة خلف مخيون وهي تُزيح خُصلة من شعرها الكستنائي من أمام عينيها متسائلة باهتمام:

- تحديد مكانها يستغرق وقت أد إيه؟

- ممكن في خلال شهر أو اثنين، الإنجاز الي وصلت له لحد دلوقتي مجهود سنة كاملة.

هتف طارق بخوف واضح وجسده النحيل يهتز من فرط الانفعال:

- دلوقتي بس عرفت سبب إصرارهم على إخفاء الكشف ده والتخلص من كل شخص يصل لمعلومات عنه. خايف يتكرر معك الي حصل مع البروفيسور.

قاطعه مخيون بسرعة وهو يُشيع بيده كأنه لا يود التطرق إلى ذلك الأمر:

- أعتقد أنهم مش هيتعرضوا ليًا قبل معرفة مكان المقبرة، يهمهم جدًا الحصول على محتوياتها خصوصًا البرديات لأنها بتوثق كل شيء بدقة بالغة، وحاليًا أنا أفضل حد ممكن يوصل للمقبرة دي بسرعة.

صمت قليلًا وهو يرقب العيون القلقة من حوله ثم استطرد قائلاً:

- التفاصيل الموجودة في الملف ده محدش يعرفها غيركم وثقتي فيكم بلا حدود.

قالها ثم راح يحدج عيني طارق ونور بنظرات خائفة وهو يُتبع بصوت مرتجف:

- الحقيقة تمنها غالي أوي، وفي حالتنا دي ممكن يكون تمنها حياتنا، عشان كذا أنا هتفهم موقف أي حد فيكم عنده رغبة في التراجع والانسحاب دلوقتي، صدقوني مش هلوم حد منكم لو أخذ القرار ده.

بدا التردد على وجه الاثنين بينما سرت رجفة عنيفة في جسد طارق وارتعشت شفته السفلى قبل أن يتلع ريقه بصعوبة وهو يقول بتأثر وصدق بالغين على الرغم من الخوف الذي اجتاحه:

- أنت صديق عمري يا مخيون، وأنا معاك لحد ما الكشف ده يخرج للنور.

هز مخيون رأسه بامتنان قائلاً:

- أنا متأكد من كدا يا طارق، ونور هتساعدنا وتوفر لنا تغطية إعلامية في الوقت المناسب.

أومأت نور برأسها وقالت بقلق وهي تجلس بجوار مخيون:

- الأهم من كده حياتك يا مخيون، الخطر بيقرّب منك كل لحظة، مجرد اللي سمعته منك أصابني بحالة هلع رهيبه.

أوماً مخيون برأسه مؤكداً كلامها، قبل أن يتناول فنجان القهوة من أمامه وهو يقول:

- أنا عامل حساب كده اطمني، بغير أماكن تواجدي باستمرار وخطواتي محسوبة، كل اللي يهمني إني أظل على قيد الحياة لحد ما يتم المؤتمر اللي هنعلن فيه الكشف.

- ربنا يعدي الأيام دي على خير.

قالها طارق بقلق واضح فيها أنهى مخيون قهوته ولملمة أوراقه ووضعها داخل حافظة جلدية وهو يقول:

- احنا هنسيب المكان دلوقتي، وهتصل بكم أعرفكم مكاني الجديد.

صمت وهو يتأملهم ملياً قبل أن يقول بحذر:

- نسخة البحث ستكون معايا وفيه نسخة تانية لازم نحتفظ بها في مكان آمن تحسباً لأي ظروف مفاجأة.

دقائق قليلة وكان الثلاثة يهمون بمغادرة البناية لولا أن توقفت نور وهي تعبث في محتويات حقيبتها بعصية شديدة:

- أنا مضطرة أرجع الشقة، نسيت مفاتيح العربية.

احتقن وجه مخيون وتوتر بينما قال طارق في عصية:

- ده وقته يا نور بسرعة لو سمحتي مفيش وقت.

غادرت سريعاً عائدة إلى الطابق الثالث بينما احتضن مخيون ملف الأوراق بقوة وهو يتلفت حوله بحذر، فيما أخذ طارق يزفر بعصية وتوتر وهو يقول:

- أول مرة في حياتي أكون متوتر وخايف كدا، المعلومات اللي قرأتها في البحث والي حصل معاك ومع البروفيسور خلوني في حالة خوف حقيقي.

صمت قليلاً ثم أردف بشرود:

- الخوف أسوأ شعور ممكن يصيب الإنسان.

لم يحبه مخيون كان يتأمل مدخل البناية برعب واضح وهو يُصغي السمع، قبل أن يُتمتم بهلع:

- لازم نخاف يا طارق، لازم نخاف.

توقفت الأمطار فجأة وانقطع صوتها، وبدت خفقات قلب مخيون كقرعات طبول حرب تنذر بمجزرة قادمة. أنفاسه بدأت تتسارع ونظراته الزائغة راحت تنصبُّ على مدخل البناية وهو يُصغي بقلب واجف وبدن راجف لصوت خطوات ثقيلة راحت تقترب منهم ببطء قاتل. احتبست

الأنفاس في الصدور وَتَحَفَّزَ الرجلان بشدة وصوت الأقدام بدا على بعد خطوة منهما. على أرضية الممر ارتسم أمامهما ظلٌ مُخِيفٌ أخذ يتعاضم وهو يقترب منهما بينما تجمدت أنفاسهما في حلقيهما قبل أن تظهر أمامهما سيدة شقراء تحمل مظلة سوداء مرت بجوارهما سريعاً من دون أن تنظر حتى نحوهما واتجهت ناحية باب المصعد، الذي ضغطت زره فانزاح الباب أمامها فدلقت بخطوات واسعة قبل أن ينغلق الباب خلفها. تنفَّس الرجلان الصعداء واستدار طارق ناحية مخيون مبتسماً وهمّ بقول شيء ما لكن بغتة اندفع رجلان مُلثَّمان نحوهما بسرعة فائقة وهما يُطلقان زخَّات من الرصاص أصابت صدر مخيون وساقه فسقط أرضاً مطلقاً صرخات ألم وفزع هائلة، بينما صرخ طارق بلوعة وذعر هائلين:

- مخيون.

لم يتم صراخه إذ اخترقت رصاصة كتفه الأيسر فألقت به أرضاً لتضطدم رأسه بالجدار ويسقط غارقاً في دمائه، فيما غادر الملثمان المكان سريعاً قبل أن يفتح باب المصعد وتظهر السيدة الشقراء على عتبته مجدداً وهي تُحجج بنظرات باردة مخيون وطارق المضرجان في دمائهما. تأملت المشهد لبرهة ثم توجهت بخطوات سريعة ناحية مخيون الذي جحظت عيناه وسكن جسده تماماً. انتزعت حافظة الأوراق من بين يديه وغادرت المكان تاركة الدماء تنساب على مدخل البناية كالشلال، فيما اختفت نور بجسدها الضئيل خلف درابزين السلم وهي ترقب المشهد بملامح جامدة من شدة الرعب واضعة يدها على فمها لتمنع صرختها من الانطلاق.

الفصل الثالث

دفع خميس باب الدار ودكف بخطوات رشيقة واسعة متفادياً بضع
دجاجات تقافرت أمامه وهو يصيح بمرح:

- بت يا هيام إنتي فين جاتك رزية؟

قالها وهو يتجه ناحية نافذة صغيرة تطل على الشارع لها إطار وضعت
عليه صينية معدنية به قُلل فخارية، تناول إحداها وتجرع منها بضع جرعات
رطبت جوفه وأنعشت روحه، قبل أن يسكب بعضها على يديه غاسلاً وجهه
ورقبته وهو يعاود هتافه حتى جاءه صوت هيام من داخل الدار:

- تعال أنا عند الفرن.

جفف وجهه بكم جلبابه وهو يتوجه ناحية الفرن حيث جلست هيام
تُلقي ببضعة أقراص من العجين بداخله.

- بتعملي إيه يا بت؟

أجابته بحدة ممزوجة بسخرية من دون أن تلتفت إليه:

- شوية قُرص نتعشى بهم بدل ما ننام من غير عشا.

تلملم في وقفته وبدا عليه الاستياء والتبرُّم ثم لوح بلفافة من صحيفة
ورقية في يده:

- أنا جيت لك سمكة مشوية أصل أنا وزغلول أخوكي.

التفتت إليه وقاطعته بحدّة وكأنها تعودت تكرار مثل هذا الموقف:

- كنت صايع أنت وزغلول زي كل يوم كالعادة، وروحوا عند الترة، اترزعتوا تحت الجميزة واصطادتوا سمك، وشويتم وكلتوا ومليتوا كروشكم. وجبت ليا سمكة، خلاص حفظت شريط كل يوم.

ظهر على وجهه الضيق وقال بانفعال:

- بس ما تقوليش صايع دي.

انتصبت واقفة واضعة يديها على خصرها وقد أثنت مرفقيها قليلاً، محدقة فيه بغضب فالتمعت عيناها السوداوان الجميلان، وانعقد حاجباها الرفيعان فبديا كهلالين متشابكين، وبدت بقامتها المديدة المتناسقة كتمثال مرمرى ينبض فتنة وجمالاً، وعلى الرغم من أن سجاياها الطيبة غشتها في تلك اللحظة سحابة غضبى طارئة إنها ظلت مفعمة بألق وجمال لا حدود لهما.

- أمال أقولك إيه؟ لو دي مش صياعة تبقى الصياعة إيه؟

جرحت الكلمات كبرياءه ومست جرحاً غائراً بداخله، فألقى اللفافة أرضاً قائلاً بغضب:

- طب قولي ليا أعمل إيه؟

أجابته بتلقائية مواصلة وقفته المتحفزة وجسدها يهتز من فرط الانفعال:

- تشوف لك شغلة ثابتة تدخل رزق يسد جوعنا ويسترنا بدل التنطيط

بتاع كل يوم.

ودَّ لو فعل ذلك وعثر على تلك الطريدة العصيّة، لكن متى يلقي المرء ما
يتمناه. هتف في حنق وهو يُشيع بوجهه:

- وشغل إيه الي هلاقيه في البلد هنا، مفيش غير الفلاحة ومليش فيها.
أجابته بتهكم واضح:

- أقولك، اشتغل دكتور، ولا أقولك امسك النقطة بدل الطابط، ولا
أحسن اترشح في الانتخابات بدل الحاج عمران.

- إنتي بتتريقي عليًا يا هيام، والله لأوريكي شغلك.
أشاحت بوجهها غاضبة:

- يا خويا اتنيل، وريني شغل يجيب فلوس، مش طولة لسان وخلاص.
انفعل قائلاً بعصبية:

- يا رزية يا أم دماغ تخينة ده حتى العيال الي عندهم أرض مش عايزين
يشتغلوا فيها، الي شغال لحام والي ميكانيكي والي سافر بلاد بره.

- وأنت ناوي تعمل إيه يا فالح، عايز تشتغل إيه؟
- يا بت أنا عندي طموح إني أبقى حاجة.

قالها بثقة عالية وجدية واضحة، فتساءلت بغیظ:

- يعني إيه يا كبد أمك؟ طموح إيه وزفت إيه.

أجابها بحدة وانفعال زائدين:

- نفسي أشتغل بالمؤهل بتاعي، زي كل الناس أنا مش أقل من حد.

ارتمت هيام أرضاً والذهول يكاد يفتك بها، وأخذت تلطم على وجهها.
 - يا لهوي يا ولاد هتشل. هتشل إيه ده أنا هموت، مؤهل إيه اللي هتشغل
 به يا خميس؟

هز رأسه بفخر واعتزاز واضحين وقال وسياء الجدّ تكسو وجهه:
 - الشهادة بتاعتي.

انهارت قائلة بمرارة وبؤس:

- يخرب بيتك يا بعيد، اتجوزتك أهبل وقلت معلش بكرأ ربنا يكرمه،
 لكن تتجنن كمان، يا مصيبتك السوداء يا هيام، شهادة إيه يا أبو شهادة.
 قالت الجملة الأخيرة بصراخ عال فارتجّ له جسده ورد منفعلًا:
 - أيوه يا رزية، هي شهادة شوية، دي شهادة نحو أمية، وطالعة كمان من
 الحكومة.

هتفت بصوت أشبه بالبكاء:

- ودي هتشغل بها إيه يا ناصح يا بن الناصحين.

هرش في رأسه بحيرة ممزوجة بسذاجة وقال:

- مش عارف بس ربنا يسهل والحالة تتعدل.

نهضت واقتربت منه وحاولت رسم ابتسامة على وجهها من أجل
 استيعابه واستدراار عطفه، ولانت لهجتها وهى تقول بنعومة مصطنعة
 لتخفف من حدة غضبه:

- طب ما تيجي نسيب البلد، لا لنا فيها أرض ولا غيره ونروح مصر
 الدنيا واسعة والشغل ياما.

تأملها بذهول بالغ قبل أن يصيح:

- ما ينفعش، العهد الي أخذه عليا الشيخ خضر ربطني بالبلد ما ينفعش
أسيبها غير على رقبتني

صاحت بحدة:

- أنت لسه عندك الهلاوس دي، يا راجل فوق واعقل.

تحسّس شيئاً ما في عنقه يختفي تحت جلبابه وقال بتردد:

- يا بت هلاوس إيه، ده حتى سبحته الخضر السه في رقبتني.

صرخت بغضب:

- يا ما نفسى أمسك في رقبتك وأخنقك يا خميس.

بدت صرختها بمنزلة صفعه قوية للغاية، بددت هذيانه، وأنهت الثثرة العابثة داخل عقله، وأعادته إلى وعيه، أعادته إلى صمته، ومن الصمت تتولد الحكمة. لكن حكمة خميس تتجلى فقط في أمر واحد هو الذي جال في خاطره في تلك اللحظة.

حاول تغيير دفة الحوار وتهذئة الأجواء المشتعلة فداعبها قائلاً:

- بقولك إيه سيبك من الكلام ده وقومي كُلي السمكة، فسفورها عالي أوي، وبعدين اعملي لنا كوبايتين شاي تُقال نحبس بهم، حاكم الفسفور بيحب الشاي.

قالها بخُبت غامزاً بعينه فأشاحت بوجهها غاضبة:

- أهو ده الي أنت فالح فيه.

- الحمد لله غيرنا ساقط في كده.

راقته دُعابته فانفجر ضاحكًا إثرها فالتفت ناحيته عابسة صارخة
بغضب وقد أغاظتها لا مبالاته:

- طب و حياة النبي يا خميس لو ما طلعت دلوقتي ورجعت معاك فلوس
لأخليك تنام فوق سطح الدار، وابقى خلي الفسفور ينفعك يا أبو مؤهل.
بدا عليه الغضب:

- إنتي بتهدديني يا هيام؟

لطالما حَزَّ في نفسها أن تراه قافلًا كل نهاية يوم وجيبه خالي الوفاض، لذا
هَزَّت رأسها بثقة وأطلت من عينيها نظرة متجهمة وهي تقول:

- أيوه بهدك، الدار مفيهاش ربع جنيه وأنت سايق الهبل ع العبط.
انفعل قائلاً بحدة:

- ماشي يا هيام أنا ما بتهددش، ما بتهددش يا هيام.

لانت لهجته بعض الشيء وأردف:

- بس هخرج دلوقتي، هخرج يا هيام.

عاد إلى لهجته الحادة مجددًا:

- بس اوعي تتخمدني تنامي إلا ما أرجع.

لم تتفوّه بكلمة، راحت ترمُق عينيهِ بتحدٍّ عاقدة ذراعيها حول خصرها
وجسدها يهتز برفق، فابتلع ريقه وهو يتأملها مشدوها كأنها المرة الأولى التي
يُبصر فيها جمالها الفتان. ودَّ لو ظفر منها بقبلة في تلك اللحظة. ابتلع ريقه
وراح يُحدِّق في عينيها. شيء ما في عينيها لا يُمْتُ إلى البشر بصلة. لمعة لها عطر
جذاب فوّاح، بريق أخاذ بالألباب، سحر يجعل أعتى القلوب صلابة تحرُّ

تحت رموشها هذا. عيانان ملائكتان، نفحة ومنحة إلهية. لمسة من يدها تُحيي رُكامه وتبعث خطامه، وبسمة من ثغرها تملأ دنياه حُبورًا وسرورًا، وكلمة رضا تُنبت في قلبه فراويس المسك والعنبر. لكن وآه من لكن، سحابة غُصبي تُطلُّ من عينيها السوداوين تُمت كل ما أحييت وتُفني كل ما بعثت.

بالكاد تحرك من أمامها وهو يمر ذيل جلبابه مغادرًا الدار متجولاً في طرقات القرية والغضب يكسو ملامحه الطيبة. في الثلاثينيات من عمره، نحيل، فارغ الطول، سهل، لين، حلو المعشر. قلبه صافٍ نقي، لم يضطغن على أحدهم أكثر من ساعة، بياض قلبه يَغشى سيرته وسريره. تملؤه طيبة جارفة تصل به أحياناً إلى درجة السذاجة، لكن خلف هذا القناع يكمن صدق بالغ وشهامة فائقة، وخلف هدوئه الطاغي وسكينة الوادعة بحر طوفاني متلاطم، وروح مفعمة بالوجد والجذب. لا يملك شيئاً في الدنيا سوى دار طينية وزوجة مخلصه محبة، وصديق وفي، شريكه في عثراته ونكباته وضحكاته وسهراته، اعتادا تقاسم كل شيء، الفرح والسرور وحتى الحزن، ما يفيض عند أحدهما يسكب على الآخر بنفس راضية مشاطراً إياه. تعود خميس أن يقضي يومه متجولاً هنا وهناك ملتقطاً رزقه راضياً بما يأتيه. لكنه عجز عن إدراك عمل ثابت يتكافأ مع قدراته كما يقول هو.

في الليل يخلو إلى التلفاز، هوايته الأثيرة بعد صيد السمك، مشاهدة الأفلام التي أدمنها منذ الصغر. حين يجد في جيبه نقوداً لا يتردد في أن يهرع إلى مقهى جمعة حيث التلفاز الضخم الملون وشرائط الفيديو التي تأتيه كل ليلة بفيلم جديد يندمج معه بعقله وخياله متقمصاً ما يحلو له من شخصيات مردداً كلامهم ومحاكياً حركاتهم.

ذات يوم منذ ثلاث سنوات قبل زواجه ذهب مغاضبًا تاركًا البلدة بمن فيها، للملم حاجاته وحملها على ظهره وأولى وجهه شطر القاهرة. على حدود البلدة وعند الجميزة الكبيرة ناداه شيخ وقور يشعُّ وجهه نورًا، ذو لحية وجلباب أبيض وعمامة خضراء وابتسامة رائعة. رده ردًا جميلًا وأعادته إلى بلدته بعد حوار لا يذكر منه خميس الكثير غير أن في نهايته طوّق بسببته الخضراء عنق خميس وهو يقول له:

- مقدورك أن تبقى هنا حارسًا أمينًا، بقلب نقّي وروح طاهرة.

- حارس على إيه يا مولانا؟

- على ما قدره الله يا خميس، لا يصلح لها غيرك.

- واشمعني أنا يا مولانا.

- القلب النقي والروح الطاهرة، لا تخون ولا تغدر.

- وأنت مين يا مولانا؟

- الشيخ خضر عبد من عباد الله.

حين عاد خميس وروى ما حدث له لم يصدقه أحد، اتخذوه سخرية بضعة أيام قبل أن ينسوا الأمر برؤمته، أما هو لم ينس. ظلت السبحة الخضراء ملتصقة بعنقه يرتديها ليل نهار وبدخله أيقن أن القدر يخبئ له أمرًا، ودّ لو كان أمرًا سعيدًا.

قادته قدماه ناحية مقهى جمعة، لمخ خليله زغلولا جالسًا يحتسي كوبًا من الشاي عرج ناحيته وصاح به:

- قوم فز عايزك.

- عايز إيه؟ تعال اقعد اشرب شاي.
- منين يا فالح، مفيش فلوس، الحالة على البلاطة.
- هز زغلول رأسه قائلاً ببساطة.
- يعنى أنا الي معايا، أهو كله شكك على النوتة.
- انفعل خميس وقال في حدة:
- قوم يا جدع فز عايزك بطل كلاحه.
- تجرّع زغلول باقي الكوب دفعة واحدة ثم هرول ناحيته. من يراهما
يظنهما شقيقتين. كل شيء فيهما متشابه، من الملامح حتى البساطة ورائحة
الفقر التي تفوح منهما بجلاء. تمشياً قليلاً وخميس يروي ما دار بينه وبين هيام
مقتطفاً ومهذباً وملطفاً الحوار بقدر الإمكان ومن دون أن يتطرق لموضوع
النوم على سطح الدار. هز زغلول رأسه ممعناً التفكير.
- خلاص تعال نطلع على عمك رسلان عنده بطاطس بيجمعها النهاردة.
- ظهر التأفف والضيق على وجه خميس.
- يا جدع دي شغلة تهد الحيل، وتوجع القلب، أنا عايز حاجة تناسب
قدراتي.
- هز زغلول رأسه متعجباً.
- قدراتك إيه؟! الحاجة الوحيدة الي بتفهم فيها تصليح ماكينات المية.
- ما هو قليل الحظ، البلد كلها ما فيهاش غير جوز ماكينات، يعنى لو
اتكلت عليهم هنتعشى مرتين في السنة.

- يا جدع ده عم مسعد كلمني يجي عشرين مرة عشان الماكينة عنده عطلانة بقالها أسبوع وعازيك تروحله.

بدا الاستياء والضيق على وجه خميس وقال:

- عمك مسعد ده تنن، ماحدث يعرف يطلع قرش منه غير الحكومة أو الحانوتي لما يجي ينفض جتته قريب إن شاء الله، ده حتى آخر مرة صلحتها له إداني شوية قرنيط.

زادت حيرة زغلول فحاول إنهاء الحوار سريعاً والعودة إلى دفء المقهى.

- خلاص يبقى تروح النهاردة، وبكرا من النجمة تخرج تدور على شغل.
صرخ خميس غاضباً:

- بكرا إيه جاتك رزية، بقولك هنام على السطوح.

تساءل زغلول مندهشاً:

- سطوح إيه؟؟!

ارتبك خميس وتلعثم مستدركاً:

- سطوح إيه، هو حد جاب سيرة السطوح.

- والنبي أنت قلت سطوح، إوعى تكون البت هيام أختي هتعملها معاك وتخليك تنام على السطوح، أمي كانت بتعمل كده مع أبويا لما تتخانق معا.
قالها زغلول وانفجر ضاحكاً فوكزه خميس في كتفه.

- ده أبوك مش أنا يا ابن بتاع السطوح.

بفراغ صبر صاح زغلول:

- يعنى أنت عايز إيه دلوقتي؟

- هروح لعم مسعد، بس ركز معايا في الكلام الى هقوله لك، وتنفذه بالحرف الواحد. فاهم، جاتك رزية.

* * *

- سلام عليكم يا عم مسعد.

التفت مسعد ناحية خميس بلهفة.

- توك ما افتكرت يا خميس أنا بعتلك ييجي عشرين مرة مع زغلول.

تأمل خميس الأرض من حوله متظاهراً بالجدية وشبك كفيه خلف ظهره.

- مشاغل والله يا عم مسعد.

- مشاغل إيه يا خميس، ما أنت قاعد عواطي لا شغلة ولا مشغلة.

أثارت الكلمات حقن خميس فرد مغتاضاً وهو يتظاهر بالانصراف.

- تصدق بقى إنك راجل جلياط ولسانك فالت، أنا أساساً مش جايك،

أنا كنت معدي بالصدفة لقيت الزرعة بتاعتك اصفرت وبتموت من العطش

صعبت علياً، قلت عشان خاطر الزرعة والبهايم يرتووا لكن عشان كلامك

الماسخ ده أنا ماشي.

أصابت كلمات خميس موضعها بدقة فألقى مسعد نظرة ناحية الأرض

المكسوة بالخضرة والنضرة فتهياً له أن الجفاف والاصفرار يكاد يتلعهما،

فوقع قلبه بين رجليه وهبّ واقفاً ناحية خميس معذراً ومتأسفاً:

- مش قصدي والله يا خميس يا ابني حقك علياً.

شمر خميس ساعديه وهو يقول مدعيًا الغضب:

- والله ما عشان خاطرك، عشان خاطر الزرعة والبهايم، فين الزفتة الماكينة.

توجه ناحية الماكينة وفحصها بدقة. كانت سليمة تمامًا غير انسداد بسيط في أنبوب الوقود يمنعه من التدفق. كان الأمر في غاية البساطة لا يستغرق إصلاحه سوى بضع دقائق معدودة، لكن عوضًا عن ذلك أخذ خميس في تفكيك الماكينة قطعة قطعة ورصّها أرضًا بجوار بعضها بعضًا، فيما أخذ قلب مسعد يرتجف وهو يشاهد ماكينته مبعثرة الأجزاء أمامه.

- ده الموضوع شكله كبير يا خميس.

تظاهر خميس بالانهماك في العمل قائلاً بجدية:

- إيوه المشكلة عويصة، ربنا يسهل ونلحق نخلصها النهاردة ما كانش يبقى بكرا.

صاح مسعد بلسان مرتجف:

- لا، في عرضك لازم النهاردة.

- ربنا يسهل يا عم مسعد سييها على الله.

فرك مسعد كفيه وتردد قليلاً قبل أن يقول:

- طب ما اتفقناش يا خميس هتاخذ كام؟

توقف عن العمل ورفع رأسه ناحية مسعد متصنّعاً الضيق:

- كلام إيه ده، وفلوس إيه، والله لولا الزرعة والبهايم ما كنت هقرب من الماكينة أساساً إحنا بنعمل لله.

انفرجت أسارير مسعد وهدأ قليلاً:

- ما هو برضه لازم تاخذ حاجة عشان عرقك.
صمت خميس قليلاً ثم هزّ رأسه بلا مبالاة:
- ماشي كلامك يا عم مسعد، هاخذ من الزرعة طبخة ولا اتنين.
تهللت أسارير مسعد وكادت ابتسامته تبتلع وجهه.
- لك عندي شوية كرنب زي العسل يستاهلوا بقك.
عكف خميس على تصليح الماكينة مجدداً متجاذباً أطراف الحديث مع مسعد.
- مش عيالك كانوا يقفوا جنبك وأنت كبير كده ويشغلوا معاك في الأرض بدل ما أنت مبهدل نفسك.
- الأرض مش جاية همها الفلاحة مش زي زمان، الزمن دلوقتي زمن الصنّاعية هما اللي بيكسبوا ويبجيبوا قرش حلو.
- ده نص البلد سابوا الفلاحة، اللي اشتغل لحام واللي كهربائي.
هزّ مسعد رأسه مؤمناً على كلام خميس:
- أهو عيالي الاتنين سافروا الأردن واحد اشتغل في مطّعم والتاني شغال ميكانيكي.
- تساءل خميس بفضول:
- والمربات هناك حلوة يا عم مسعد؟
أجابه بتحفظ واقتضاب:

- أهى ماشية، أحسن من هنا والسلام .

توقف خميس عن العمل واستدار ناحية مسعد باهتمام بالغ:

- طب كانوا يروحوا السعودية ده الواد فوزي ابن عطية الحلاق غاب هناك سنين ياما، ورجع معاه فلوس بالكوم، ودقته بقت أد كدا، ولا بس جلايية بيضا لحد الركبة، وطول النهار ماشي في البلد مكشر وشه وييفتي للناس، ويقولهم عيشتكم كلها بدع، إلا يعنى إيه بدع يا عم مسعد؟ هز مسعد كتفيه في حيرة:

- مش عارف يا خميس، ابقى اسأل فوزي.

هرش خميس في رأسه:

- الواد شكله اتعلم هناك، وبقي شيخ فاهم أوي، قعدت معاه أكثر من ساعتين، ما فهمتش كلمتين منه، فقلت يبقى الواد ده فاهم أوي.

لم يتم كلامه حتى ظهر زغلول مهرولاً ناحيته متظاهراً بالغضب:

- أنت هنا وأنا قالب البلد كلها عليك، بتعمل إيه؟

- اللي أنت شايفه.

- طب قوم معايا، أختي هيام مولعة الدار نار وعيازك حالاً.

تابع مسعد الحديث بقلق وخميس يتوقف عن العمل متظاهراً بالاندهاش والانزعاج:

- ومالها هيام، ما أنا سايبها كويسة.

واصل زغلول تصنع الضيق والغضب:

- راحت الدكان تجيب طلبات، اتخانقت مع عم عفيفي قالها مافيش شكك، الحساب تقل، بتقولك تيجي دلوقتي تشوف هتتصرف إزاي، عايزة تعمل لقمة على العشا.

هتف مسعد بلهفة

- خد كرنبة من دول ياض يا زغلول، خليها تعمل محشي، ده حلو أوي في السقعة دي

رد خميس بصوت حاول قدر الإمكان أن يبدو منفعلًا:

- هو الكرنب هينفع لوحده يا عم مسعد، ما هو عايز برضه رز وسمنة وخضرة وغيره وغيره.

قالها ونفض يديه هاتفًا في زغلول:

- إدامي يا وحل البرك، لما نشوف هنعمل إيه مع أختك.

- والماكينة يا خميس؟!

قالها مسعد في لوعة وعيناه تدوران على قطع الماكينة المبعثرة التي افترشت الحقل من حوله

فالتفت إليه خميس ببرود:

- بكرا ولا بعده يا عم مسعد، ولا أقولك جمعة كدا وهفوت عليك.

صرخ مسعد بجنون:

- يا خراب مستعجل يا ولاد، ده يكون الزرعة ماتت وبيتي اتخرب.

- أنا اللي بيتي هيتخرب دلوقتي لو ما رحتش لهيام وشوفت حل مع عفيفي التنن.

أدخل مسعد يده في جيبه وهو يعيث بمحتوياته بلهفة:

- ملكش دعوة أنا هتصرف، اشتغل أنت بس.

- هتعمل إيه بس يا عم مسعد؟!

أخرج مسعد بضع أوراق مالية من جيبه وتفحصها بسرعة ثم أشار إلى زغلول:

- خد يا ض يا زغلول تعال.

توجه زغلول ناحيته بينما خيس يرقبه بلهفة وهو يُفرز النقود، كانت كلها من فئة العشرين جنيهاً، سحب منهم ورقة وناولها لزغلول:

- خد يا وله يا زغلول، إديها لهيام تحيب طلبات البيت وابقى ارجع بالباقي.

- ما يصحش يا عم مسعد.

قالها زغلول متظاهراً بالخرج فهتف به خيس:

- يصح يا وله، خدها، عمك مسعد زي أبوك برضه، خدها وروح لهيام، وأنا هتحاسب مع عمك مسعد.

التقط زغلول الورقة بلهفة وهمّ بالمغادرة، فجذبه خيس هامساً له:

- تطير على هيام، ولا ترجع بالباقي ولا غيره، وخذ معاك كرنبتين، ساعة زمن وأكون عندكم

اختفى زغلول سريعاً كما ظهر بينما خيس يعيد تركيب الماكينة بمهارة فائقة وسط ذهول مسعد. لم يمضِ نصف ساعة إلا وكانت الماكينة تهدر

بصوت عالٍ أثار السرور والسعادة في قلب مسعد وإن كانت دهشته لم تزل من سرعة إنهاء خميس عملية الإصلاح.

- أي خدمة يا عم مسعد، الماكينة بقيت عروسة يلا مع السلامة.

تأمله الرجل باستغراب وهو ينصرف فاستوقفه قائلاً بارتباك:

- تسلم إيدك يا خميس، بقولك إيه، خلي الواد زغلول ياخذ خمسة جنيه ويرجع باقي العشرين.

التفت خميس ناحيته متصنعاً الضيق:

- خمسة إيه وعشرين إيه يا راجل أنت. أنت بتتكلم في فلوس، شغل زي ده الواحد ما يعملوش ولا بخمسين جنيه، والله لولا الزرعة والبهايم ما كنت حطيت إيدي في الماكينة، ده بدل ما تقول شكراً.

غادر خميس تاركاً الرجل يهرش في رأسه محاولاً استيعاب ما حدث وهو يتلفت حوله بحيرة بالغة.

بخطوات واسعة رشيقة قطعت تلك السيدة الأربعينية الشقراء البهو الممتد أمامها والذي تخللته إضاءة خافتة مهيبة تثير الرَّجفة في القلوب. عيناها زرقاوان واسعتان، يبدو منهما بريق يطفح بالمكر والدهاء. وقفت أمام باب حجرة في نهاية الممر، أخذت نفساً عميقاً ثم أدارت مقبض الباب ودكّفت.

كانت الحجرة واسعة بعض الشيء، وشبه مظلمة، وتكاد تتبين أاثانها الراقى بصعوبة لخفوت إضاءتها. تقدمت السيدة بخطوات ثابتة نحو مكتب ضخم استقر في أحد الأركان توقفت أمامه صامتة وهي ترمق الظلام بتركيز

شديد. انحنى جسد للأمام فظهرت يده على سطح المكتب بينما باقى الجسد غارق فى الظلام، ظلت واقفة مكانها مُحملقة فى كتلة السواد حتى خرج صوت ناعم هادئ، له رنة غريبة تُثير القشعريرة فى النفوس فانتبهت سوزان بكلِّ حواسها والرجل يقول:

- مخيون طلع مأمن نفسه بشكل جيد جدًّا، الأوراق اللى أخذناها منه ما فيهاش كل المعلومات، فيه معلومات تانية كتير أخفاها واحتفظ بها لنفسه. جلست وهى تتساءل باهتمام وأصابعها تنقر بتوتر على سطح المكتب:

- الناس بتوعنا يقدرُوا يحدِّدُوا مكان المقبرة من خلال الأوراق دي والمخطوطة القديمة؟

- يقدرُوا طبعًا لكن الموضوع هياخد وقت، ولحد ما نوصل للمقبرة محتاجين نفرض حاجز رهيب من السرية، لازم نتأكد من عدم وجود نسخ تانية من الأوراق مع أى شخص.

أومات برأسها بثقة بالغة:

- احنا شغالين على كدا، كل الشخصيات اللى ممكن يكون عندها معلومات عن الموضوع أو حتى كانت على اتصال بمخيون تحت عيوننا وراصدين كل تحركاتهم، اطمئن خالص من الناحية دي.

حلَّ الصمت على المكان لعدة ثوانٍ قبل أن يعاود الرجل حديثه:

- العملية دي غير كل عملياتنا يا سوزان فيه أطراف عالمية مهمة بالأمر بشكل رهيب، لدرجة إن أنا نفسي خايف.

توترت وتساءلت باضطراب وهى تعتدل فى جلستها:

- خايف من إيه يا دكتور؟

- الفشل. الفشل غير مسموح به المرة دي بالذات، الفشل معناه حياتنا.

جاءها صوته مرتعشاً خائفاً فبدأ عليها الاضطراب وهى تقول باستغراب:

- أنا غير مستوعبة اهتمامهم المبالغ بالمقبرة دي بالذات.

- لازم تستوعبي وتركزي، المرة دي المطلوب منّا إن المقبرة تختفي ما تخرجش للوجود بأي ثمن، بعض الأسرار من الأفضل لها تفضل مدفونة تحت التراب، ظهورها هيعمل طوفان من المشاكل هيجلي وجود ناس كثير على حافة الخطر، عشان كذا لازم المقبرة دي تختفي وللأبد.

صمت قليلاً ثم تابع بصرامة:

- خصوصاً البرديات لازم يتم التخلص منها تماماً. مفهوم يا سوزان؟

- مفهوم يا دكتور مفهوم.

قالتها وهي تشعل سيجارتها بعصبية بالغة. التقطت منها عدة أنفاس وأردفت:

- نخيون حطنا في ورطة بسبب عناده وغبائه، لو كان وافق على الصفقة اللي عرضناها عليه كان وفر علينا التعب ده وجنبنا مشاكل مش وقتها خالص.

- نخيون كان عنده مبادئ وطموح دفع تمنه بدمه، اللي زي نخيون كان طبيعي يرفض صفقتنا، المال والجاه بالنسبة له وسيلة مش هدف، عشان كذا رفض عرضنا.

- مثالية فارغة وطموح أعمى خلانا في موقف صعب.

نقر الدكتور بإصبعه على سطح مكتبه عدة نقرات وقال بصوت عميق:
 - لو راكبة عربية وماشية في طريقك بسرعتك القصوى، وفجأة ظهر
 أدامك مجموعة أفراد يبعدوا الطريق، وشخص وحيد ماشي على الرصيف،
 تتفادي مين وتدوسي مين؟

رفعت حاجبها قائلة:

- أكيد هتفادي المجموعة، أقتل فرد واحد أفضل من قتل مجموعة
 أشخاص.

- يبقى إنتي عاقبتى الشخص اللي على الرصيف لالتزامه بالقانون ومشيه
 في الطريق الصحيح، وسمحتي للمخطئين بالحياة، رغم إنهم ماشيين في
 الطريق الخطأ ومخالفين للقانون.

ضرب الذهول وجهها، فنحت السيجارة جانبًا وهي تُصغي للدكتور
 الذي أتبع:

- إنتي في اللحظة دي استخدمتي سياسة الكم، ضحيتي بالفرد من أجل
 المجموع، مع إن الفرد هو المصيب والمجموع هو الخطأ، وده طبيعة الحياة،
 اللي زي نجيون هو الشخص اللي على الرصيف، الملتزم بالقانون والمبادئ،
 واحنا المجموع اللي يهमे فقط الوصول إلى هدفه مهما كان الثمن، والعربية
 هنا هي الحياة، اللي بتدوس على الفرد من أجل صالح المجموع، اللي زي
 نجيون طبيعي جدًا وجوده، وطبيعي جدًا رحيله بالشكل ده، الحياة ميزانها
 دايمًا بيكون بالكم مش بالكيف، وده من حسن حظنا.

- طب افرض اتقلبت الآية، وبقت الأغلبية والمجموع على الرصيف،
 والفرد هو اللي بيعبر الطريق.

- قصدك تقولي الأغلبية تلتزم بالقوانين والمبادئ، والقلة هي الي تسلك الطريق الخطأ؟
- مضبوط.

أطلق ضحكة مجلجلة طالت وسط دهشة سوزان قبل أن يقول:
- كدا متبقاش حياة، الأصل في الحياة الخطأ مش الصواب، الأصل الصراع، التنافس، الحقد، الكراهية، ده الفرق بين الدنيا والجنة، المثالية مكانها مش على الأرض، الي عايز المثالية يبقى يختار أقرب طريق للموت، عشان هناك بس المعايير واحدة، أما على الأرض هنا لأ. القانون دايا عيب على الملتزم به، بيقيد حركته ويلزمه بمسار معين، ويضع له أطر وخطوط حمرا كثير بتكبله وتعرقل تقدمه داياً.

نقر بإصبعه نقرتين على سطح المكتب وقال متابعاً:

- الي بيطلق عليه بعضهم خيانة ومداينة وخسة وندالة، البعض الثاني بيطلق عليه براجماتية، بعض الناس تهمها أخلاقية أساليبها في الوصول لهدفها، والبعض الثاني يهمه بس الوصول لهدفه بأي طريقة كانت صمت قليلاً ثم قال:

- سمعتي عن الصراع بين علي ومعاوية؟

- يعني عندي معلومات بسيطة عن الموضوع.

- ينطبق عليهم كلامنا ده، علي مقيد بأخلاقه ومبادئه، ومعاوية متحرر من القيود دي، علي مستحيل يراوغ ويدهن، أو يستميل خصومه بالرشاوي والأموال، ومعاوية سلك الطريق ده، علي مستحيل يتخلص من منافسيه

بالقتل، لكن معاوية قدر يعمل كذا. الشاهد إن أخلاق علي ومبادئه كانت عبء عليه وثقل شديد تسببت في قتله في نهاية الأمر، أما معاوية المتحرر من القيود دي استطاع يصل للحكم ويورثه ابنه.

حل الصمت لبرهة حتى قطعه بقوله:

- وده اللي حصل مع مخيون، وأثبت لي صحة نظريتي.

- أي نظرية؟

- إن المبادئ والقيم في أيامنا بقت ترف لا يمكن تحمله خصوصًا في مجالنا، عشان كذا لازم تعرفي كويس إن في الحياة أدامك خيارين يا تكوني ذئب أو فريسة للذئب.

ألجمت كلماته لسانها، وراحت تُدوِّي في عقلها بشدة وضربات قلبها تتسارع، وقد أيقنت تمامًا أنه قد بدأت مرحلة من الهلع والرعب ستطول الكثير والكثير.

* * *

الفصل الرابع

القدس 1171م

انتهى ملك القدس أمارليك من ارتداء ملابسه. أشار إلى الخادم بالانصراف قبل أن يلتقط التاج ويضعه فوق رأسه متأملاً نفسه في المراة لبضع ثوانٍ حتى تناهى إلى مسامعه صوت مساعده الخاص:

- لقد وصل القشتاليون يا جلالة الملك، ينتظرونك في القبر بناء على طلبهم، وقد سبقك البطريك إلى هناك ليرحب بهم.

بدا التأفف والامتعاض على وجه الملك قبل أن يستدير مواجهاً مُساعده وهو يقول بضيق بالغ مُلقياً وابلأً من الأسئلة القليلة:

- تُرى أيُّ رياح أَلقت بهم هنا، وما غرضهم من تلك الزيارة، ولمَ كل تلك السرية والتكتم حولهم؟ من يكون هؤلاء وأيُّ جهة يتبعون؟

- لا أدري جلالتك، لكن كما تعلم معهم أوامر مباشرة من البابا تقضي بالتعاون التام معهم، وتلبية كل مطالبهم، وتذليل الصعوبات لهم.

- وهذا ما يُقلقني أكثر، الأمر وراءه سر خطير، تُرى أيُّ شيء يُدبر له هؤلاء القوم؟

مطّ المساعد شفتيه:

- حَدسي يُنبئني بأنهم تنظم سرياً على غرار الإستبارية وفرسان المعبد، غير أن محيط عملهم هو إسبانيا.

تأفَّف الملك قائلاً:

- أصبحت تلك التنظيمات تتوالد بكثرة هذه الأيام.
- لا ضير، ولا بأس من ذلك ما دام جهدهم وبأسهم ينصب على أعدائنا.
- وحين يفرغون من العدو، يميلون علينا نحن.
- وهل لنا فراغ من عدونا، هذا صراع قد يطول أمده قروناً طوال، يعوزنا خلاله من يُذكي نيرانه ويسعر حربه، وهؤلاء يحسنون القيام بذلك، فلندعهم ما دامت مصالحنا لا تتضارب.

هزَّ الملك رأسه وقد أقنعه منطق مساعده:

- حسناً، لنفعل ذلك، ولنرَ ما ستُسفر عنه قادم الأيام.
- قالها واران على المكان صمت عميق لبضع ثوانٍ قبل أن يستدير الملك مغادراً جناحه الملكيَّ متوجّهاً ناحية القبو.

تراقصت أضواء المصابيح الزيتية المعلقة على جدران القبو كاشفة عن طاولة ضخمة يجلس عليها الملك أمارليك الأول وبجانبه بطريك القدس، وفي مواجهتهم يجلس كهل خمسينيٍّ وقور هادئ الملامح، له لحية صغيرة خضَّبها بالحناء، وخلفه يقف عجوز ضخم أصلع الرأس تبدو على ملامحه أمارات الصحة والعافية، وبجواره شاب نحيل صارم القسَمات راح يتطلع إلى المشهد حوله بترقب وحذر:

- مرحباً بكم في الأرض المقدسة، كنا نرغب في استقبالكم بما يليق بكم كضيوف من قبل البابا، لكن إصراركم على إخفاء حضوركم هو ما منعنا.

قالها الملك بتكلف واضح فابتسم الكهل وراح يقول بصوت هادئ ناعم:
 - حرارة استقبالكم أغت عن أي شيء آخر يا جلالة الملك.
 مطَّ الملك شفتيه متسائلاً:

- لَكُمْ أرجو أن يكون قدومكم هذا من أجل الترتيب لحملة جديدة
 تنطلق من إسبانيا إلى هنا، ستدعم وجودنا بقوة وتسهم في توطيد راية الربِّ
 في أرضه المقدسة خاصة في ظل تلك الظروف الحرجة التي نمرُّ بها هنا وقرب
 نشوء تحالف بين مصر والشام.

شبَّك الكهل كفيه أمامه وتراجع في جلسته قائلاً بلهجة حازمة:

- كنا نود المساعدة وتقديم العون لكم، لكن كما تعلم نخوض في إسبانيا
 حروباً مقدسة ضد المسلمين هناك، حروباً لا تقلُّ ضراوة ولا أهمية عن
 حروبكم هنا، فلو لا وجودنا هناك ما كان لحملاتكم هذه أن تتم بداية.
 - ماذا؟

- أجل جلالتك، لو لا دفعنا المسلمين وشغلهم بنا لاستقر لهم الأمر
 وتوطد ملكهم في إسبانيا ولعبروا حينها جبال البرانس واجتاحوا فرنسا
 وسيطروا عليها، فلا يصير لكم ملك لا هنا ولا هناك.
 - ما الذي تقوله إيها الرجل؟ أي تُرَّهات هذه؟

جمدت ملامح الرجل ولم يبدُ عليه أي تأثر بمقولة الملك، عقد ساعديه
 على صدره وأردف:

- ليست تُرَّهات جلالتك، طموحات المسلمين وأمالهم تتجاوز دائماً
 حدودهم الجغرافية، طالما كان هناك دافع لذلك، ودخولهم إسبانيا بداية كان
 مرجعه ذلك السبب.

- أيُّ سبب تقصد؟

- وجود الأريوسيين بإسبانيا وتقاربهم مع المسلمين في فهم طبيعة المسيح جعلت بينهم وبين المسلمين علائق مشتركة جعلت المسلمين يبادرون إلى تقديم يد العون للأريوسيين لتخليصهم من اضطهاد الكنيسة والقُوط في إسبانيا، لكن لم يستطع المسلمون فعل ذلك إلا حين استتبَّ لهم الأمر في المشرق وشمال إفريقيا، وهو ما لا نرجو حدوثه الآن.

تدخل البطريرك في الحوار محاولاً تلطيفه:

- البابا نفسه يدرك حجم ما تقدمونه هناك يا سيدي، ولقد أعفاكم من المشاركة في الحملات المقدسة على الشرق إيماناً بقيمة حروبكم هناك.

- أجل إياها البطريرك، وليتكم فعلتم الصواب ووجهتم دقَّة تلك الحملات إلى إسبانيا أولاً لاستخلاصها من المسلمين وبعدها يكون الشرق.

- الدعم يأتيكم باستمرار والقوات تنحدر عليكم من كل أرجاء أوروبا.

- أجل إياها البطريرك، لكن لو كان حجم الدعم مثل الحملات على الشرق لانتهيينا من أندلسهم هذا منذ عقود.

ابتسم الملك بطرف فمه وهو يقول بلهجة لم تخلُ من سخرية:

- وهل في إسبانيا متسع للجميع؟ جيوش فرنسا وألمانيا وإنجلترا وغيرهم، أين الإقطاعات والمدن التي سيقسمها كل هؤلاء، الشرق متسع لنا ولمن يأتي بعدنا، بل أصدقك القول، إنه متسع أكثر من اللازم، مصر وحدها تحتاج عشرات من الحملات المقدسة حتى نتمكن من السيطرة عليها، نخشى كثيراً من عاقبة اجتياحها حتى لا تبتلعنا بأرضها الشاسعة ونذوب وسط سكانها، أما إسبانيا فهي مضمار خاص بكم أنتم والمسلمون هناك.

هزَّ الكهل رأسه مبتسماً وقال بلهجة غامضة:

- ليتدبر كل منا شأنه يا جلالة الملك، الآن أرغب في الإفصاح عن سبب مجيئنا.

رماهم الملك بنظرة شزرة وقال وهو يزُمُّ شفثيه بامتعاض:

- كلي أذان مُصغية.

- نرغب في اقتناء عدد ضخّم من الكتب والمصنفات العربية.

ضرب الذهول وجه الملك والبطريك فيما أخذ الأول يتساءل مندهشاً بلهجة لم تخلُ من تهكم واضح وهو يلوّح بكفه:

- ألهذا قدمتم؟ كان يمكن أن نرسلها لكم مُرفقة ببعض باقات زهور الشرق الحمراء.

تجاهل الكهل نبرة السخرية الواضحة في لهجة الملك وقال بحزم:

- نريد أعداداً ضخمة من الكتب ننتقيها بأنفسنا، سيكون عليكم توفير الكتب وإحضارها إلى هنا ونحن نتولّى عملية الانتقاء والاختيار.

- ما الذي تسعون خلفه؟

- دعنا نشغل نحن بذلك، ولتشغل جلالتك بتنفيذ أوامر البابا.

أَحْنَقَت كلمات الكهل الملك لكنه ابتلعها على مضض ولاذ بالصمت، على حين حاول البطريك تدارك الموقف فقال بلهجة ناعمة ودودة:

- أوامر البابا مُلَبَّاة، لكنَّ أيُّ نوع من الكتب تريدون؟

- جميع العلوم المتاحة، تاريخ، فلسفة، فلك، هندسة، طب، وحتى كتب الدين الإسلامي، خاصة كتب التفسير.

ضرب الذهول وجه الملك والبطيريك والأخير يهتف بذهول:

- ماذا؟ تفاسير؟!

- أجل إيها البطيريك، تلك الخاصة بتحليل كتاب المسلمين المقدس (القرآن) وشرحه.

همَّ البطيريك بالسؤال لولا أن استوقفه الكهل بإشارة حازمة:

- ولا تسألني عن السبب.

تبادل الملك والبطيريك نظرات حيرة لبعض الوقت قبل أن يهزَّ الملك كتفيه مُعربًا عن ملله وضجره من هذا اللقاء قائلاً باقتضاب:

- حسنًا، سنوفر لكم ما نقدر عليه ما دامت تلك رغبتكم.

قالها وغادر القبو بصحبة البطيريك على حين شَيَّعهم الكهل بنظرات سخرية واضحة وهو يقول بصوت خافت:

- لو شغلوا أنفسهم بالقراءة والاطلاع قليلاً بدلاً من انكبابهم على تكديس الأموال واقتناء الضياع لأدركوا المغزى من طلبنا كتب التفاسير.

ابتسم الرجل الأصلع بجذل بينما تساءل الشاب النحيل بلهفة:

- أستمئحك عذراً إيها الأستاذ المبجل، أنا نفسي أذهلني طلبك كتب التفاسير تلك، ما الداعي إليها؟

ابتسم الأستاذ بغموض وهو يقول:

- أتدري لم لم نشارك بقواتنا في تلك الحملات يا جارسيا؟ على الرغم من أن الأخوية كانت من أوائل الذين أشعلوا نار تلك الحملات ودعمناها بالمال والسلاح وأيدناها بكل قوة.

- ربما للأسباب التي ذكرتها الملك القدس.
- أجل، لكن هناك سبب آخر أوجه وأخطر من ذلك، أغفلت عنه متعمداً.

- وما عساه يكون؟

- أن تلك الحملات مآلها الفشل الذريع والسقوط المدوي، والأوجه من ذلك أني أعلم تحديداً وبدقة تاريخ دخول المسلمين بيت المقدس منتصرين ظافرين.

بدا الدهول على وجه الشاب بينما ابتسم الرجلان وجارسيا يجلس على ركبتيه بجوار كرسي الأستاذ:

- كيف تعرف ذلك يا سيدي؟

- من خلال الكتب الإسلامية، كتب التفاسير على وجه الخصوص، لذا طلبت جلب كل ما نقدر عليه منها للتدقيق فيها وتحليلها علناً نقدر على استقراء مستقبلنا ومستقبلهم واستشرافهما.

- أهو تنبؤ أو ما شابه؟

- لا، بل محض علم ومعرفة حصل عليها المسلمون من خلال كتابهم المقدس.

قالها الأستاذ وابتلع ريقه قبل أن يعاود حديثه بحرارة وكأنه يتلو سفرًا من أسفار التاريخ:

- الأمر بدأ هناك، في الأندلس، مع ذلك الشيخ المتصوف ابن برجان، فريد زمانه وقرع دهره، حيث أورد في تفسيره للقرآن وتحديداً في سورة الروم عجائب وأموراً لم يسبقه فيها أحد.

- الروم؟

- كلمة عربية نُقصد بها نحن الأوروبيون، فسر ابن برجان أول السورة التي تتحدث عن هزيمة لنا ثم نصر ثم هزيمة لنا على أيدي المسلمين، وقال إن هزيمتنا الأولى يوم أخذ خليفتهم عمر مدينة القدس منا، ثم ذكر ابن برجان أن لنا غلبة هي التي لنا الآن، ثم بعد ذلك تدال علينا بغلبة حدد تاريخها بعام ٥٨٣ بتاريخهم الهجريّ وبتاريخنا ستكون عام ١١٨٧.

- أكاد لا أصدق هذا يا سيدي، ربما كان الرجل يروّج لخدعة ما لصالح المسلمين.

- الرجل فارق الحياة عام ١١٤١م، وترك لنا حساباته التي استنبطها من كتابهم المقدس، والزمن وحده كفيل بتصديقه أو تكذيبه، بل إن معلوماتنا السرية تقول إن تفسيره هذا منتشر في أوساط الطبقة الحاكمة عند المسلمين خاصة عند السلطان نور الدين محمود الذي يؤمن تمامًا بصدق ابن برجان ولذا أعدّ منبرًا خاصًا بيوم الفتح ليضعه في المسجد الأقصى بنفسه.

- ولم لم تخبر الجميع بذلك؟ أعني البابا وملك القدس وغيرهم من ملوك أوروبا وأمرائها المشاركين في تلك الحملات.

- وهل يأخذون كلام ابن برجان على محمل الجد؟ أغلب الظن أنهم سيتجاهلونه ولن يُلقوا له بالاً، بل وربما لو صدقوا لكان هذا مثبّطاً لهم وتوقفت الحملات أو قلّت حدتها وهذا ما لا نريده.

حلّت الحيرة على ملامح جارسيا وانعقد حاحباه وهو يقول:

- لا أفهم مرادك يا سيدي؟ تدرك أن مصير الحملات هنا الفشل وعلى الرغم من ذلك لا ترغب في توقفها، كيف ذلك؟

- أجل، على الرغم من إدراكي مصيرنا المحتوم هنا فإن تلك الحملات تقدم لنا خدمات جلييلة، فغير الثروات والأموال التي تنهال على أوروبا، نجعل أيضاً المسلمين هنا تحت حالة من الضغط الشديد، تُنهك قواهم وتستنزف مواردهم، وتشغلهم بأنفسهم، حتى يعجزوا عن التقاط أنفاسهم، فيصير كل قطر منهم منطوياً على مُلمّاته وخطوبه، عاجزاً عن مد يد العون لغيره، وبذلك نقطع أيّ بوادر وَحدة بينهم.

صمت قليلاً قبل أن يستطرد ملوحاً بسبابته:

- أعظم ما فعلته حملاتنا المقدسة أنها شغلت الشرق بنفسه عن الأندلس، فتوقف المدّ البشريّ المتدفق من هنا إلى إسبانيا، فقلّ عدد المسلمين هناك، لدرجة أنهم هجروا بعض المدن وتركوها لنا لعدم وجود من يقطنها منهم، وطالما استمرت تلك الحملات كانت الفائدة أعظم، أما نبوءة ابن برجان وحساباته فلنحتفظ بها نحن لأنفسنا ولنرى كيف ستعامل معها.

- وأنت يا سيدي هل تؤمن حقاً بهذه النبوءة؟

أجابه الأستاذ بثقة طاغية:

- أنا وفيديريكو نؤمن بكل حرف نطق به ابن برجان، فقد حضرنا كثيراً من مجالسه.

ابتسم الرجل الضخم وسحب كرسيّاً وجلس بجوار الأستاذ وهو يقول للشاب:

- كان هذا منذ سنين طوال، كنت والأستاذ في ريعان شبابنا نطوف حواضر الأندلس ملتصقين العلم والمعرفة، وقد قادنا حسن طالعنا إلى لقاء

ابن برجان حيث سمعنا منه بأنفسنا حساباته تلك، لذا ومن يومها صار هدفًا لنا تتبع علوم المسلمين وجمع ما يناسبنا ويعوزنا منها، لقد اكتشفنا أننا بقدر ما نجهل هم يعلمون، وبقدر ما نحن نتردّي في سُلّم الترقّي الحضاريّ هم يسبقوننا بآلاف الدرجات، لذا قررنا ألا نبدأ من الدرجة الأولى، بل نستلهم منهم ونتعلم ونحاول محاذاهم حتى نقدر على اجتيازهم فيما بعد.

- لذا لا يكفُ فيدريكو عن اصطحاب أبنائه مارتا وباسكوال في حواضر المسلمين لينهلوا من تلك العلوم.

- وأيضًا إيها الأستاذ ليشاهدوا بأعينهم البون الشاسع بين تأخرنا الحضاريّ وسبق المسلمين لنا، هذا أخرى بأن يوطّنهم على الجِدِّ والعزم وأن يبت في عروقهم العزيمة والإصرار على أن نصير مثل هؤلاء يومًا ما.

تساءل الشاب في ذهول:

- وائى يتأتّى لنا هذا؟

هزّ فيدريكو رأسه بثقة وهو يقول:

- أمتنا الآن غالتّها أغوال القدر، ونابتّها خطوط الزمن، وتخرّمتهم بوائق الدهر، وجرى عليهم ما جرى على غيرهم من الأمم، من سقوط وتردّد، وكما دالت لنا الأيام دالت علينا، لكن للزمان تقلبات وتغيرات، وحين تبدل الأمور سيسالمنّا الدهر، ونُصافينا الأيام وتهادنا صروف الزمان

ابتلع ريقه وهو يلوح بسبابته قائلاً بحزم:

- لكن مناط ذلك بسعينا وجهدنا، وتدبير الليل والنهار، وأن نعمل بلا كلل، وأن نسعى بلا ملل، فإن الحجر الشديد الذى أعيا الزمان وأعجزه،

ليقهه الماء السائل، إذا دام انحداره على الحجر حتى يُثقبه ويؤثر فيه، لذا علينا ألا نتعجل، بل نرمي شباكنا ونبذر بذورنا ولا نتعجل صيداً ولا حصاداً، لكن حين يأتي ما نصبو إليه سيكون مذهلاً ومدهشاً إلى أقصى حد.
حكّ الشاب طرف أنفه وهو يتساءل:

- ألهذا قدمنا إلى المشرق؟

هزّ الأستاذ رأسه مجيباً:

- أجل، وأيضاً الخارطة المصرية القديمة، علّنا نجد في كتب هؤلاء ما يمكننا من فكّ شفرتها وحلّ رموزها العجيبة تلك.

حدّق الشاب في عيني الأستاذ وهو يقول بانبهار:

- أشعر بالرهبة كلما وقع بصري على تلك الخارطة، قشعريرة هائلة تجتاحني بشدة وتكاد تعصف بي.

- أثق أنه ذات يوم ستمكن من فكّ شفرتها تلك، ويومها سيكون تاريخاً جديداً تبدأ أمتنا فيه عصر قوتها وهيمنتها.

تساءل الشاب بفضول:

- استرعى انتباهي حديثك مع الملك حول الأريوسيين ومساعدة المسلمين لهم في إسبانيا، لكن حين درست تاريخ إسبانيا في الكنيسة لم يُذكر ذلك أمامي.

ابتسم الأستاذ بغموض:

- بعض المعارف والأحداث يجب أن تظل طيّ الكتمان، التاريخ أشبه بسلسلة طويلة حلقاتها متصلة ومعقدة، إذا انفصلت إحدى حلقاتها أو

اختلّت تفسد قراءة الناس له ولا يفهمونه على الوجه الحقيقي، وحده من قام بذلك الفصل والتغيير هو الوحيد القادر على القراءة الصحيحة، وحينها يصبح هو الأجدر بتحريك الأحداث واستغلالها.

- والمسلمون ألا يدركون هذا الأمر؟

- على حد علمي قلة منهم من يعرفون قطوفاً حول هذا الأمر، ولم يقوموا بتدوينه وتأريخه، أيضاً مؤرخوهم الأوائل تأخروا كثيراً في تدوين دخولهم إلى إسبانيا ما أسقط رغماً عنهم كثيراً من أحداثه.

- ونحن كيف علمنا بهذا الأمر؟

- القدر ساقه إلينا، كنيسة قديمة كانت تتبع الأريوسيين وبعد دخولهم الإسلام هجروها وتركوها، فصارت لنا، وأثناء إحدى الترميمات تهدّم جدار يحوي خزانة هائلة بها وثائق الأريوسيين، ومن ضمن ما وجدناه رسالة كانت محفوظة بعناية واهتمام أسموها في وثائقهم الرسالة المباركة.

بلغ الفضول مداه بجارسيا وهو يسأل:

- الرسالة المباركة؟ أي شيء تكون؟

التقط الأستاذ نفساً عميقاً وقال:

- رسالة أرسلها نبي الإسلام محمد إلى الأريوسيين في إسبانيا يعدّهم بالدعم والمساندة بمجرد استقرار الأمر له في جزيرة العرب، وهو ما حصل بالفعل بعد ذلك، وكانت سيطرة العرب على إيبيرية بأكملها.

قطع الرجل حديثه وهو يُنصت إلى صوت أقدام تقترب منهم داخل القبو فالتفت ثلاثتهم ناحية المدخل ليجدوا البطيريك يتقدم بهدوء وخلفه

يقف شخص ما لم يتبينوا كُنهه لوقوعه في الظلام خلف البطريك الذي اقترب منهم مبتسماً بود قائلاً:

- جلالة الملك يعتذر على توتر الأجواء، نمر بظروف عصيبة هذه الأيام. هزَّ الأستاذ رأسه بهدوء قائلاً:

- لا عليك، نتفهم ما تمرّون به هنا، نعاني هناك من مثيله.

اتسعت ابتسامة البطريك وهزَّ رأسه قائلاً:

- لقد أرسل معي خادماً، يكون طوَّع يمينكم، يناولكم الماء والشراب والمناشف.

ثارت ثائرة الأستاذ وانتفض واقفاً، ملوحاً بسبابته بعصية وهو يحاول اختراق الظلام بعينه ليتبين الشخص جامد الملامح خلف البطريك:

- نعتذر لجلالته على عدم قبول الهدية، أخبرتك بسرية وجودنا مسبقاً يا نياقة البطريك وها أنتم تحطّمون كل ما نفعل.

اتسعت ابتسامة البطريك أكثر ويدها مقبضوتان على بعضهما أسفل بطنه، بينما عيناه تحدّقان فيهم بثقة عالية.

- لا تقلق يا سيدي، الخادم لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم، فقط يقوم بخدمته على أكمل وجه

تبادل الثلاثة نظرات حيرة هائلة وفيدريكو يتساءل مندهشاً:

- وكيف يكون ذلك؟

تحرك البطريك ببطء تاركاً النور ينغمر بهدوء على الشخص خلفه ليتنفّض الثلاثة واقفين وجارسيا يرسم صليباً على صدره من شدة هلعها.

- ما هذا بحق الرب؟

كان أمامهم تمثال حديديٌّ على شكل غلام ملامحه المعدنية تكاد تنطق من فرط دقتها، ويحمل على يمينه إبريق ماء نحاسيٍّ، وعلى اليد الأخرى منشفة قطنية، وعلى رأس الغلام طائر حديديٌّ.

أخذ الثلاثة يرمقون الغلام الحديديَّ بذهول هائل وقلوبهم تكاد تقفز خارج أضلاعهم، وفجأة انتفضت أجساد الثلاثة وارتطموا ببعضهم بعنف إثر خروج صفير عالٍ من الطائر استمر لثوانٍ قبل أن يتوقف. مدَّ البطيريك يده ملامسًا الإبريق فأماله الغلام إلى أسفل لينسكب بعض الماء على يدي الرجل، قبل أن يرتفع الإبريق مجددًا، غسل البطيريك يده ولامس الذراع الأخرى فتحرّكت بخفّة مناوله إياه المنشفة. جفّف بها يده وأعادها مكانها وهو يلتفت إلى القشتاليين بشموخ متلذذًا بنظرات الدهشة والذهول التي تكاد تغرقهم. بالكاد تمالك الأستاذ رباطة جأشه وهو يتساءل مفزوعًا:

- أيُّ سحر هذا إيها البطيريك؟

التفت البطيريك ناحية التمثال الحديديّ وهو يقول:

- منذ عدة شهور اعترضت قوة لنا قافلة إسلامية تابعة لبني أرتق قادمة من ديار بكر، وكان بحوزتهم هذا التمثال.

- وأيُّ شيء يكونه؟

- أصابنا الدهول حين عثرنا عليه، فاستجبونا أفراد القافلة فأخبرنا أحدهم أن هذا التمثال هو خادم سلطان بني أرتق، فكلما حان وقت الصلاة أصدر الطائر صفيره فيعلم السلطان بحلول وقت الصلاة فيتوجه إلى

ارتسمت على وجه البطيرك ابتسامة ظفر عاتية وهو يقول:

- سنرى ما يمكننا فعله بهذا الشأن؟

قالها وغادر المكان فيما توجه الثلاثة ناحية التمثال الحديدي متأملين إياه وأيديهم تلامسه بانبهار وفيدريكو يهتف وخفقان قلبه يكاد يعلو صوته:

- يبدو أن رحلتنا إلى الشرق ستكون مختلفة هذه المرة.

- أجل، وستكون أيضاً مثمرة إلى أقصى حد.

قالها الكهل وحلَّ بعدها صمت عميق على المكان، وعيونهم تُدقق النظر في كل تفصيلة في التمثال، فيما راحت آلاف الأسئلة تندفع في عقولهم كطوفان هادر يجتاح كل ما يلقاه، طوفان لن يهدأ حتى يحقق مراده ويقضي وطره.

الفصل الخامس

ليلة كئيبة طويلة راح خلالها طارق يتلوَّى من السَّام والضجر. فيما أخذ الأرق والكرى يتصارعان إيهما يظفر به. راقبهما بكسل ولم يحسم الصراع لأيهما، وتركهما يتعاركان. استرخى في جلسته على أريكة جلدية عريضة فاردًا ذراعيه على مسندهما مباعدًا بين ساقيه، وبعينين نصف مغمضتين أخذ يتابع برنامجًا تلفزيونيًا مملاً، تاركًا وهج التلفاز ينعكس على وجهه ملقيًا بظلال متداخلة على الحائط خلفه. كان أمامه مذيعة سمجة مُتحدقة وثرثارة راحت في بث مباشر تتقاذف وتتمايل أمام تماثيل أبي الهول مُلقية بوابل من المعلومات غير الصحيحة ما أثار حفيظة طارق واستفزّه، وودَّ في تلك اللحظة لو ركَّلها أبو الهول وأبعدها من أمامه. بغتة مرَّ رجل من خلف المذيعة بخطوات واسعة وهو يُلقي بابتسامة ناحية الكاميرا ثم اختفى سريعًا فانتفض طارق كالملدوغ. كان مخيون هو الذي عبر لتوه. أخذ طارق يلهث بعنف وعينه تسمرتا على التلفاز وعقله لا يكاد يصدق ما أبصره منذ ثوان. فجأة شعر بشيء ما يزحف على الأرضية ويصطدم بقدمه مصدراً فحيحاً خفيفاً. جفل وارْتاع لكن لم يتسنَّ له القيام بشيء. ضربة عنيفة هوت على مؤخرة رأسه أفقدته الوعي. حين أفاق شعرَ بطنين حاد في رأسه الذي أحسَّ وكأنها أيضاً تتأرجح يمنة ويسرة بعنف. حلقة كان جافاً للغاية، كان أشبه بنبته صبار في صحراء قاحلة. وعيه كان غائماً وذاكرته ضبابية. بالكاد استطاع فتح عينيه ليجد الظلام الدامس يُغلف كل شيء حوله. حاول

التحرك فلم يستطع. كان مقيداً بإحكام إلى أرضية صخرية باردة ورائحة العفونة والرطوبة تُنضح ببشاعة. اجتاحه فزع هائل وتسارعت دقات قلبه حتى بات جسده ينتفض معها بقسوة. لم يدرِ كم ظلَّ على هذا الوضع لكنه بغتة لمح بصيص ضوء يتسلل إليه من أعلى لحظة انزياح لوح صخريٍّ من فوقه ببطء ليُطلَّ من خلاله وجه بلا ملامح راح يرمُق طارق بنظرات صارمة. زادت لوعته وفزعه فطفق يَشجج ويُحرك رأسه يمنة ويسرة فشقق بعنف وهو يُبصر عن يساره جثمان مخيون مُسجى بجواره ودماؤه تسيل بغزارة بينما عيناه جاحظتان مصوّبتان إلى أعلى. لم يَفُقْ من صدمته تلك إلا وطوفان رملي يندفع من أعلى الحفرة دافئاً جسده في ثوانٍ عدا وجهه، فيما راح الشخص بأعلى يُجمجم بكلمات غاضبة لم يتبينها طارق الذي وجد لفافات بردي تُلقى على وجهه وتُغطيه بالكامل وتُعجزه عن التنفس. أخذ يتلوَّى بعنف محاولاً التخلص من قيوده لكنه لم يُفلح. اجتاحه الذعر وشعر بروحه تنسحب من جسده فاستجمع كلَّ قواه وأطلق من أعماق أعماقه صرخة هادرة ليتنفّض من مكانه ليجد نفسه جالساً على سريره. أخذ يلهث بعنف وهو يتأمل حجرته. كان كابوساً ثقيلاً فظيماً. أغمض عيناه لثوانٍ وهزَّ رأسه وكأنه يطرد منها بقايا الكابوس. تفقد ساعته فوجدها الثامنة صباحاً. نهض بخطوات متثاقلة من فراشه ورأسه تكاد تنفجر من شدة الصداع. ارتطمت قدمه ببضع زجاجات خضراء فارغة ملقاة على الأرض بإهمال تفوح منها رائحة الكحول. دَلَفَ إلى المطبخ ببطء وتوجه ناحية الثلاجة والتقط من داخلها زجاجة خضراء تجرَّعها على ثلاث دفعات وهو يرتد إلى صالة المنزل ماراً بباب الشقة الذي التقط من أسفلهِ لفافة الصحف والمجلات.

استرخى على كرسيٍّ جلديٍّ وثير والتقط أنفاسه لبعض الوقت قبل أن يشرع في تصفح الجرائد بشكل روتينيٍّ ومن دون تركيز. انتهى من آخرهم وهم بإلقائه جانباً لولا أن استرعى انتباهه صورة نور فوق إحدى المقالات. انتبه مبسماً وراح يمر ببصره على عنوان المقالة (من قتل مخيوناً؟) فتبدلت ملامحه واستولى عليه الخوف وصاح بغضب:

- نور.

* * *

كان صدره ضيقاً حرجاً. شعر كما لو أن هناك شيئاً هائلاً يجثم عليه ويخنق أنفاسه. قلبه كان مثقلاً بالهموم والأوجاع. تلكاً في طريقه وهو يزفر بضيق بالغ. تلفت حوله وكأنه يبحث عن شيء ما. أخذ يتأمل ساحة القرية الواسعة التي اكتظت بالفلاحين العائدين إلى دورهم مع غروب الشمس. أحدهم يدفع بقرة أمامه، وآخر يحمل كوم برسيم فوق حماره ويؤكزه ليُسرع، وامرأة راحت تطارد إوزاتها لتدخلهم الحظيرة قبل وقوب الغسق. صبية راحوا يمرحون هنا وهناك ويتقاذفون كراتهم ويمارسون ألعابهم الطفولية وضحكاتهم تجلجل في سعادة. قلوب غضة طرية لم يطرقها الهم والحزن بعد. فرغ من تأمله ورفع رأسه إلى السماء الملبدة بالغيوم. صرخ قلبه، حتى أنت غاضبة متجهمة مثلي، يكفي أحدنا، يكفي أحدنا اليوم. لمح داخل الدور القصعات وقد توهجت قواالحها، ليلة باردة والكل يبحث عن الدفء، ملتفين حول وجبة ساخنة وجلسة عائلية هادئة. اشتعلت جمرة في صدره سرعان ما استحالت حريقاً هائلاً. عاد إلى سيره بمهل وبطء. لم يكن يودُّ العودة مبكراً إلى البيت، مزاجه غير رائق، وحالة من الكآبة راحت تتسلل

إلى أعماقه. لن يحتمل كلمات هيام القاسية وغير راغب في الصدام معها. لمح زغلولاً في آخر الشارع فتوارى عنه. لا يرغب في رؤية أحداً أياً كان. انعطف فجأة إلى شارع جانبيّ فارتطمت كرة برأسه. أمسك بها بغضب واستدار ناحية الصبية، ابتسم أصغرهم معتذراً ماداً يديه فتبسم وناوله الكرة ومضى في طريقه بعيداً. في تلك اللحظة تناهبته الهواجس واجتاحته أفكار عنيفة طفقت تتخبط بين جدران عقله بقسوة، فراح جسده يلامس جدران البيوت ويده تملّس على الحجارة الصماء كأنها تجسّ نبضها، حتى إذا انتهت الجدران وتجاوز دور القرية وجد نفسه أمام الحقول. رفع رأسه وسرح نظره في الخضرة التي كساها الشتاء. اخترقها وتوغل داخلها. كان الهواء صاخباً يعبث بالغيطان من حوله ويدغدغ محاصيلها فتنتشي مُطلقة شذى عبق الأجواء. لامست خياشيمه روائح المحاصيل، برتقال ويوسفي وليمون، وراحت نسمة شتاء باردة تداعب وجنتيه فلم يأبه لهم. كآبته فاقت كل حد. وصل إلى الجميزة العتيقة، ألقي بجسده تحتها واتكأ بظهره عليها. ضم ركبتيه إلى صدره وعقد ذراعيه عليها وراح في تفكير عميق. لطالما راقه التطلع إلى السحب في السماء محدثاً صورها الغائمة، متخيلاً إياها وحشاً أسطورياً تارة، وقلباً بشرياً يقطر منه العشق تارة، وعيناً باكية تسفح الدمع تارة. لكن في تلك اللحظة راح يرقب السماء المتجهّمة بطرف عينه، وفي رأسه جالَ خاطر أفرعه، كان أخشى ما يخشاه أن تصدأ أحلامه وآماله بطول الانتظار، فتتسع ثقب قلبه وتتشق جدرانها وتندك قلاعها أمام مناوشات الزمن. حصنه الحصين من يؤس الزمان وقسوته، أحلامه الفضفاضة الواسعة، لم يستنم إلى غيرها، لو انهار حصنه الأخير فسيخرب واهياً هاوياً أمام خيبات الأمل. اكتنفه هم لا حدود له وشعر

بُغْصَةً في حلقه. زفر بمرارة وصوت يصرخ داخل رأسه (قلت حقًا يا هيام، وجاوزت في نصحك كل حد، أكابر وأعاند لأداري فشلي وخييتي. لكن ما باليد حيلة، لا نصحك ينفعني ولا قدرتي يدفعني، ولا همتي ترفعني. مُشت أنا وضائع، لا مال يواريني ولا علم يداريني، إخفاق مُطبق لا أجد منه فكاكًا ولا من وهدهته انتشالًا. بيني وبين الحظ جفوة وفجوة. آه يا هيام، أتحسبيني صخرة لا تحركني كلماتك ودموعك. كلماتك سهام تخترق قلبي وتدميه. لكن ما عساي أصنع. أنا لا أعمل لأنني لا أستطيع، لكني لا أجد ما أريده، المصيبة يا هيام أني لا أدري ما الذي أريده. أخشى ما أخشاه أن أصير بهيمة حمولة، لا قيمة لي ولا معنى، فقط كالأومرعى. أشعر وكأنني مخلوق لشيء ما، شيء لا أدري كنهه، لكن أشعر به. نعم، أشعر به. هل تفهمين يا هيام؟ هل تدركين شعوري هذا؟ لا أعتقد ذلك، إن كنت أنا في أحياء كثيرة أعجز عن فهمه. آه يا هيام، حلوة الدنيا لولا مطالبها، وآه من مطالبها، كيف أليها؟! حتى أدناها كسوة ولقمة لا أقوى عليهما. آه من الفقر، ملعون في كل كتاب، لا لا بل ملعون ألف لعنة، ليلعنه الله، ليلعنه الله). بزغ في ذهنه فجأة ذكرى جاهد كثيرًا لينساها. ولطالما دعا الله أن يمحوها من ذاكرته للأبد. في أعماق عقله خلق بحيرة عميقة يدسُّ فيها كل ما يرغب في نسيانه. كانت بحيرة النسيان تلك ملاذَه وملجأَه من ذكرياته الأليمة. لكن في تلك اللحظة طفت تلك الذكرى على سطحها وأخذت تطارده وتلحُّ عليه بشدة، حتى طفحت داخل عقله وسمته. والده جاء هاربًا من أقاصي الصعيد، فارًّا من نيران ثأر لم يكن من جُناتها لكنه تلظى بنيرانها. استقر في القرية. تزوج وأنجب خميسًا. وحين بلغ الطفل السابعة، سقط الأب فجأة. قضى نحبه من دون سابق علة

أو شكوى، مثلما وصل إلى الدنيا دونما ضجيج غادرها كذلك. وقف اليتيم وأمه حزانى حيارى، مكلمين مرزوعين، أين يُوارون وديعة الله. لحظتها فقط أدرك الطفل أنه حتى القبور التي توارى الأجساد تُشتري بالمال. وأننى لهم بالمال؟ لا يزال يذكر نظرات الشفقة التي قطعت لحمه، ومصمصة شفاه العجائز المتحسرة «لا يدرون أين يدفونونه، فأنى لهم بتكاليف الحياة من بعده؟!». صرخت الأم وانهارت، سقطت أرضاً، لطمت، وولولت، حثت على رأسها التراب. أمّا هو فقد ظل جامداً صامتاً. أقسم بينه وبين نفسه ألا يرى أحد منهم دمعة حزن واحدة. ليقولوا عنه جامداً، قاسياً، لا بأس، المهم ألا يقولوا مسكيناً، ألا يقولوا يتيماً بائساً. يومها تطوعت إحدى عائلات القرية وواروا جثمان الأب في مقابرهم. لكن تلك الذكرى ظلت مؤرّقة ومؤلمة لا يجد منها فكاكاً أو مهرباً. في تلك اللحظة صخبَت الريح وجأرت وفي عينيه تكوّر الليل على النهار والنهار على الليل فأجْهَش في بكاء عارم وانهمرت دموعه كطوفان هادر. وفي الوقت ذاته انفتحت أبواب السماء بماء ثَجَّاج اختلط بدموعه، ليمسحوا وجهه ويبللوا جسده. رفع عينيه الباكتين إلى السماء وهزّ رأسه برجاء بالغ. همّ بقول شيء ما لكنه أحجم مواصلاً نظرات التضرُّع والتوسُّل لبعض الوقت. مسح على وجهه وأزال دموعه وطفق عائداً إلى داره.

هرول عائداً متقنّعاً ثوبه، متلمساً طريقه محاولاً العثور على موطن قدم ثابت على الأرض الوحلة متفادياً الانزلاق أكثر من مرة. لاحت له الدار من بعيد وحانت منه نظرة ناحية النافذة المنفرجة. لمح عيني هيام القلقتين الشاردين ترمُفانه من بعيد. أحسّ بهما تحترقان قلبه وعقله وتسبران غوره.

أحسَّ بها تسمع كل ما دار بينه وبين نفسه. اقترب أكثر لاحقاً شرارات نار أخذت تتقاذف خلفها من الراكية التي انكبَّ عليها زغلول ممسكاً بالماشية الحديدية مُقلِّباً الجمر الملتهب، متسائلاً: هل عاد خميس؟. هرولت هيام ناحية الباب، فتحتة بلهفة، وراحت ترمق خميساً بحنان جارف وشفقة بالغة. توقفاً لدقيقة يتبادلان نظرات صامتة. كانت عيناها تصرخان، أفهمك وأقدر معاناتك، وأشعر بحيرتك. أتكلم لأحرِّك فيك حماسك، وأشحذ همَّتك. آه يا خميس أوقن أن بعد العُصرة يُسرة، وأن بعد العبس بسمه، وأن الله سيُقبل عثرتنا ويتشلنا من وهدتنا. افترَّ ثغرها عن بسمه هادئة، فابتسم هو الآخر وراحا في عناق طويل حار. ماء عذب التقى بأرض قاحلة جذباء فرواها بعد طول ظمأ، فانتشت وانتعشت، وسرت في طيتها عصارة الحياة. انقشع الحزن عن عينيه وارتعش قلبه وررفت روحه. لم يتفوَّها بكلمة واحدة، مشاعرهما أغنت عن كل قول. كانت لحظة مُفعمّة بالحب والحنان. لم يقطعها سوى نداء زغلول السَّمج الآتي من داخل الدار:

- اطلع اظبط الإريال فوق السطح، الفيلم هيبداً.

ترك خميس هيام تغادر إلى الفرن لتحضّر العشاء بينما دَلَف هو إلى الحجرة الدافئة ملوحاً بغيط:

- هو مفيش دم. مستني لحد ما أرجع عشان أظبط الإريال، أنا لسه ظابطه آخر مرة، الدور عليك.

- يا جدع أنت كدا كدا مبلول، اطلع المرة دي وأنا أطلع المرة الجاية.

خلع خميس جلبابه وألقاه جانباً قائلاً بجدية وهو يقترب من الراكية ملتمساً الدفء.

- أنا هتعتشى وأنا، مش هتفرج على التلفزيون، لو عايز تتفرج اطلع أنت
اظبط الإريال.

تناهى إلى مسامع هيام عبثها الطفولي فضحكت وهي تسحب صينية من
داخل الفرن تفوح منها رائحة شهية نفّاذة.

رمق زغلول خميساً بمكر وقال:

- يعني مش هتتفرج معايا على فيلم سلام يا صاحبي؟

انتبه على كلام زغلول فصاح بفرحة طفولية.

- هو جاي النهاردة؟

- أيوه. قَرَّب يداً.

لم يكذُ يُنهي جملة حتى هرع خميس إلى السطح غير مبالٍ بزخّات المطر
التي راحت تضربه بقوة. بعد دقائق من يمين شمال ارجع حرّك ثبّت، ضُبط
الإرسال وعاد ليستبدل ثيابه، ويلتفّ الثلاثة حول الطبلية، ملتهمين بطة
سمينة محمّرة، وعيونهم متعلقة بالشاشة الصغيرة بشغف وانبهار، تاركين
أنفسهم يسبحون في بحر الخيال ولو لقليل من الوقت قبل أن يلفظهم إلى
شاطئ الواقع المر من جديد.

* * *

الفصل السادس

مراكش 1196م

أرض الله، المدينة الحمراء، سامقة كأشجار نخيلها، الضاربة جذوره في أعماق قلوب أهلها، وقمته تعانق صفحة السماء كقوس قزح ما زال مبلاً بقطرات الندى العابثة. المدينة تفتح ذراعيها للمُقبلين عليها، تُسرّبلهم برداء بلون الأفق الشارد، تغسل أرواحهم بالعبق النافذ من قلب شوارعها العتيقة. العيون يشعُّ منها بريق خاطف أغرته همسات المدينة فراح يمرّق بين القلوب يلامسها برفق حان ثم يحتضن الجدران الصامتة ويلتحم معها في عناق حارّ، يهتصرها هصرًا، فتبتدئ عروقها المبللة بالإثم الذي لا بد منه، إثم يتولد منه الإيمان. إيمان يبدو كغيمة تعصر نفسها فوق الشوارع فتبللها بعطور قدسية، فترتجف قدماء وترتعشان وأنت تطوها كمن يطأ قدس الأقداس وحوله أسراب ابتهالات صوفية تنساق بوداعة، يتلعون آهاتهم ويدفنونها في أعماق حناجرهم، فهنا كل شيء مقدس، النظرات والعبرات، سطور الكتب وخيوط الحرير المتدلّية من أوشحة النساء، قلوب الناس التائهة في زحمة الأحلام. الناس مُتسرّبلون بالخوف، بالأمل، بالرجاء، يسيرون، يتعثرون تارة وينهضون تارة، يؤخّرون دهرهم ويُقدّمون غيرهم فلا يبالون، طينتهم أرضية وأحلامهم مشاجبها علوية، ملامحهم تتشابه، تمامًا كأحزانهم الأرضية، يتحيّنون من الزمن كل دفقة سعادة، يرتشفون كأسها حتى آخر قطرة. قلوبهم ما زالت نقية على الرغم من الذنوب الشاردة والخطايا التائهة في

ثقوب الروح. لم تبطّرهم السراء ولم تُدهشهم الضراء، في نعمتهم شاكرون، وفي شدتهم صابرون. مراكش، مدينة لا تحذل قديسيها، ولا تنكر عاشقيها، ظل سلطانها يمتد على المغرب أقصاها وأدناها وأوسطها، ثم يتعاضم ليلتهم أرض إفريقية، حتى يستقر على شبه الجزيرة الإيبيرية، ظل لسلطان قويّ جامع، ودولة فتية عروقتها تنبض بالحماسة والفتوة.

بخطوات بطيئة مهلة ولجّت إلى متجر الأقمشة الواسع الذي غصّ بالزبائن ظهيرة هذا اليوم. اقترب منها أحد الباعة راسماً ابتسامة عريضة على وجهه سائلاً إياها باحترام بالغ:

- بما أخدمك أيتها السيدة المَبَجَّلَة؟

جمالها الطاعني وملايسها الفخمة الأنيقة التي غطت جسدها بالكامل عدا وجهها كانت تُنبئ بأنها سليلة بيت عز أو منحدره من بيت ملك. جمال أنثويّ خلّاب، لم يهتصر عودها هرم، ولا أذوى زهرتها ضنك. كانت ترتدي عباءة أندلسية زرقاء مزركشة، وعلى رأسها وشاح أبيض حريريّ. راح البائع يعرض عليها بعضاً من أثواب الحرير وهما يتحركان ببطء إلى داخل المتجر بينما عيناها الزرقاوان تتوثبان هنا وهناك كلبؤة جامحة ترقب فريستها. ثوان وتسمّر بصرها على إسحاق صاحب المتجر. كان رجلاً أربعينيّاً طويلاً جسيماً، له لحية قصيرة مشدّبة بعناية. في تلك اللحظة كان إسحاق منهمكاً في عرض بضاعته على أحد زبائنه فلم يشعر بنظرات المرأة ولا خطواتها التي راحت تقترب منه على مهل قبل أن تقول بصوت عالٍ تعمّدت رفعه وهي تخاطب البائع:

- أرغب في ثوب من الحرير البلنسيّ.

قبل أن يرد العامل الثفت إسحاق ناحيتها كالملدوغ حتى إنه خُيِّل إلى العامل أن جسد إسحاق أصابته رجفة قوية لدى رؤيته السيدة:

- لدينا منه يا سيدي، تفضلي.

قالها بارتباك بالغ وهو يقترب منها بلهفة مشيرًا إلى العامل بأن يهتم بالزبون الآخر بينما اصطحب السيدة إلى داخل المتجر مبتعدين عن الأنظار وهي تقول مبتسمة:

- أرغب في لون قرمزيّ.

- رغبتك مُلبّاة يا سيدي.

كان أمامهما سلم خشبيّ يقود إلى أسفل، هبطا بضع درجات انتهت بهما إلى ممر صغير له باب خشبيّ أدار إسحاق مقبضه وأشار إلى السيدة باحترام بالدخول فدلقت بخطوات رشيقة ومن خلفها إسحاق الذي سكّ الباب خلفه ثم استدار ناحية المرأة واندفع ناحيتها بلهفة معانقًا إياها بحرارة:

- مارتا، أفتقدك كثيرًا يا صغيرتي.

- كيف حالك باسكوال؟ لم أرك منذ عام ونيّف.

- بخير حال يا شقيقتي، أيّ رياح طيبة أَلقت بك هنا؟

قالها وهو يصطحبها ناحية طاولة صغيرة، وذراعه تحوط عنقها بحنان بالغ وهي تُحييه:

- مهمة صغيرة، أعود بعدها إلى إسبانيا.

- متى قدمت؟

- وصلت الآن، وعرجت لرؤيتك قبل أي شيء.

جلس الاثنان ومارتا تزريح غطاء رأسها ليبدو تحتها شلال من الشعر الأحمر الناري أضفى عليها هالة من الجمال والفتنة فيما راحت تسأل باسكوال باهتمام بالغ:

- كيف هي الأمور هنا؟

- ألا تصلكم كتبتي بانتظام؟!

- بلى، تصلنا، لكن أُحْبِذُ أن أسمع منك بنفسى باسكوال، أم تفضل مناداتك بإسحاق؟

قالتها مداعبة إياه فقهقه قائلاً:

- بُتُّ أخشى أن أنسى اسمى الحقيقي، وتألّف نفسى إسحاق هذا.

ابتلع ريقه وهو يستطرد بلهفة:

- لكن أخبريني أنت أولاً كيف حال الصغيرين ماثيو وباولينو؟

- بخير حال، ماثيو الآن في الثامنة من عمره، تَخَلَّى عن سيفه الخشبيّ وصار يُمْتَشِقُ سيفاً معدنيّاً حادّ النّصل، يتجهّز لاستكمال درب أبيه.

بدا في عينيها دموع تحتشد لدى تذكّر زوجها الراحل. تَحْشِرُج صوتهما قليلاً وهي تُردف:

- ماثيو يشبهه كثيراً، له العينان ولون الشعر نفسهما.

تَجَلَّى الحزن على وجه باسكوال وهو يمد يده رابّتا على كتف مارتا شادّاً من أزرها:

- خَفَضِي عليك، لقد قضى نحبّه كما يليق برجل مثله، مات وسيفه في

يده.

انهمرت دموعها كالشلال رغماً عن محاولتها المستميتة إيقافها فتصاعد
نَشيجُها وهي تقول:

- لا زلت أُعلّقُ درعه في ردهة البيت ليراها الولدان ليل نهار، وليصرا
أثار سيوف الموحدين فيها، السيوف التي حصدت رُوح والدهما في موقعة
الأرك.

كانت شفتها ترتعشان من حين لآخر، وبدا حزنها كموج هائل ضرب
قلبها واجتاح أمامه كل شيء، الذكريات، المشاعر، الحب، الأمل، وحين
انتهى ترك قلبها خاوياً أجوف، بارداً، فتنهدت بحزن عميق وهي تُكفكف
دموعها وأنشأت تقول بصوت راجف:

- موقعة عصيّة على النسيان، أشعلت ناراً في صدري، ناراً تأرّها لا ينام،
وحتى ذلك اليوم لن أكفّ عن بكاء ريكاردو والنّوح عليه، ولأُتسلبنّ عليه
ما بقيت الدهر، ولأجعلنّ من لهيب الثّار ثوب حداد، ولأملأنّ عليهم كل
وإٍ خيلاً ورجالاً، حتى أظفر بثّاري وأُشفى غليلي.

راحت تهزّ رأسها بعصبية يمنة ويسرة ودموعها تندفع كشلال هائج
وهي تُغمغم بغضب هادر:

- وحق الرب لا ترقأ عَبرتي ولا تهدأ رَنّتي حتى أنال بُغيّتي، وأطأ بقدمي
رايتهم وأرتوي من دمائهم حتى أنثشي وأُشتفي.

توقفت قليلاً مُبتلعة ريقها قبل أن تستطرد بحزن:

- أحيان كثيرة أكاد أحمّد للمسلمين صنيعهم هذا، أن جعلوني موتورة
صاحبة ثار، فالثار يُوجّج الصدر ويستنفّر الجهد، ويشحذ الهمم، ويسري في

عروق المرء إكسير ما يجعله قادرًا على تحريك الجبال الرواسي، صاحب الثأر لا تغفل عينه ولا ينام قلبه، حتى يدرك مراده أو يهلك دونه، وبعد موقعة الأرك ركعت أمام قبر سانت ياقب وأقسمت أني في هذه الدنيا إما أن يكون لي الصدر أو القبر، وأعطيت على هذا العهود والمواثيق. مواثيق لا يحلها كُرُّ الجديدين، ولا اختلاف العصرين.

تغضّنت ملامح باسكوال وتقلبت سحتته وشعر بندم بالغ أن جرّ مارتا إلى هذا الحديث وتلك الذكرى القاسية التي لم يمر عليها سوى شهور قليلة. عمد إلى تغيير دقّة الحوار فرسم على وجهه ابتسامة وهو يقول:

- أسعدني أن الأستاذ رضخ أخيرًا لرغبتك في ضم ماثيو وباولينو إلى صفوف الأخوية على الرغم من حداثة سنهما.

- ليسوا وحدهم، بل غالبية أبناء المنتمين إلى الأخوية.
مطّ شفتيه متسائلًا بحيرة:

- حتى الآن لم أنفهم الدافع من إصرارك على هذا الأمر.

اعتدلت في جلستها وقد تغير وجهها تمامًا وبدا وكأن حزنها كان مجرد نزوة عابرة وراحت تقول في حماسة:

- الأطفال في تلك المرحلة العمرية عقولهم أشبه بحديد منصهر، طيّع التشكيل، إذا أحسنّا نسج خيوط أفكارهم وتشربوا مبادئ الأخوية ومعتقداتها في تلك السنّ المبكرة، بعد أقل من عشر سنوات سيكون عندنا جيل فريد من نوعه من المخلصين والأوفياء للأخوية، جيل معتقداته ثابتة راسخة كالجبال. جيل سيصير من خواص الناس وأصحاب البأس، وأنجم

الأرض، جيل سينسى في خدمة عقيدته الشهوات، وترفّع عن الملذّات، ويخوض الغمرات ويجوب الفلوات، ويُنادم في سبيل مجد أمته الدفاتر، ويُسامر القباطر والمحابر، حتى يصير قادرًا على مناطحة الصخر ومجابهة المستحيل والظفر بما يتمناه ويتغيه.

صمتت قليلًا وهي تُمعن النظر في وجه باسكوال واستطردت:

- أيضًا هذا سيمنح الأخوية رافدًا بشريًا هائلًا، لن نضطر معه إلى خوض عمليات تجنيد لأفراد جدد قد يشوبها الفشل أو تسريب أسرارنا، فمن سينشأ داخل جدراننا في تلك السن المبكرة ستصير الأخوية نظامه وقوامه وملاك أمره، وحرزه وكهفه، ومع الزمن سيكون هو الجدار الذي يحمي أسرارنا، ويصون مجدنا.

- لكن هذا سيكلفنا الكثير من الجهد والمال، تأهيل هؤلاء بالشكل الذي تشديده سيكون مكلفًا للغاية:

- للمجد كلفته، وللقوة كلفتها، ونحن لا يعوزنا مال ولا جهد.

قلّبت أمرًا ما في رأسها لثوانٍ وعادت حديثها.

- إذا أحكمنا التدبير وأحسنّا التأهيل والإعداد ووضعناهم حيث نبتغي ونريد، سيكون تأثيرهم فعّالًا لأقصى درجة، لا زلت أشعر بالذهول كلما عُدت إلى مذكرات غاليرا مُتصفّحة إياها، كل مرة تثير دهشتي وإعجابي لما تحويه من كنوز وذخائر. ذكر غاليرا بعضًا من محاولات الإمبراطورية الرومانية البيزنطية التصديّ للمسلمين في بداية نشأة دعوتهم، منها تلك الواقعة التي سأرويها لك الآن.

اعتدل باسكوال في جلسته مُصغيًا باهتمام بينما راحت مارتا تكمل حديثها بحرارة بالغة:

- في بداية ظهور الإسلام أقلق الأمر البيزنطيين نظرًا للتقارب في المعتقدات بين المسلمين والأريوسيين، وتحوّفوا من حدوث تواصل بين الطرفين، وأيضًا تخوفوا من ظهور حضارة جديدة فتية على حدود دولتهم الشاسعة، حضارة ستكون بحاجة إلى التوسع والتمدد، لذا عمدوا سريعًا إلى زرع جاسوس داخل تلك المنطقة، جاسوس لم يكلف بأي مهمة سوى الاستعداد لدور ربما لن يأتي إلا بعد سنوات.

تسارعت ضربات قلب باسكوال من فرط الإثارة وأصغى بكل كيانه ومارتا تتبع:

- حدث ما توقعه البيزنطيون تواصل المسلمون مع الأريوسيين في إسبانيا وبلاد الشام ومصر وبدأ نوع من الدعم يوجهه إليهم نبي الإسلام بنفسه، شعرت الدولة البيزنطية بالخطر فتحرّكت سريعًا وأمرت جاسوسها الخامل بالاستيقاظ وبدء مهمته. كان الأمر صعبًا بداية، فحكومة المدينة وحدت جزيرة العرب تحت إمرتها فارضة عليها سلطة دينية وسياسية، وشعر العرب أخيرًا بقوتهم جرّاء اتحادهم، لذا كان أول ما استهدفه البيزنطيون هي تلك الوحدة، فعمدوا إلى أن يعلن ذلك الجاسوس «مسيلم» أنه أيضًا نبيّ شارك نبيّ الإسلام في الرسالة، وهنا انقسم العرب وظهرت العصبية القبلية ما بين مؤيد للنبيّ الجديد والنبيّ القديم، واشتعلت حرب ضروس كادت أن تفني دولة المدينة وتقتلع جذورها لولا أن استطاعوا بالكاد وبعد عناء وقتال مرير التخلص من مُسيلم وقتله ووأد حركته.

انحنى إلى الأمام مفتوح الفم من فرط الذهول، ثم قال بصوت أشبه إلى الغمغمة:

- يا إلهي، تدبير محكم وخطير، رجل واحد يتسبب في كل ذلك؟! - وهذا ما ننشده يا أخي، رجالنا ينتشرون في كل مكان، يتغلغلون ويضربون جذورهم في الأرض، وفي اللحظة الحاسمة يتحركون فيُحركون الجبال الرواسيَ، لا نريد أعداداً ضخمة، يكفينا ثلة من الرجال أكفاء، محنّكين، دهاة، لذا ينبغي أن ينصبَّ جهدنا في الإعداد على الكيف وليس الكم، يهمنّا المؤثرون الفعّالون، لا يهمنّا الغُثاء ولا الكثرة الخاملة، فهمت مُرادِي يا أخي؟

جرى الكلام على لسانها بحماسة وريقها يتكثّف في فمها مبدئياً لمعات بدت في طيات كلماتها، على حين تراقصت بسمّة على وجهه باسكوال وتراجع في مقعده وهو يستند بمرفقيه على الطاولة قائلاً بسعادة:

- آه يا شقيقتي العزيزة، أفسدتِ على الحكماء مقولتهم إن المرأة الجميلة بنصف عقل، الآن أراكِ أمامي أكمل النساء عقلاً وأرجهنّ رأياً.

قالها وأطلق ضحكة جذلة عالية فبادلته الضحك وهي تسأله مجدداً:

- هاه، أخبرني إذن كيف هي أحوال الموحدين؟

تنهّد بعمق بالغ وبدأ على وجهه الضيق وهو يقول:

- ما زالوا في سكرة انتصار الأرك، احتفالات صاخبة، أعلام ورايات تُرفرف في كل مكان، شعراء يمدحون وخطباء يهتفون، يُفرطون كثيراً في نشوة النصر تلك.

لَوَحَتْ بِسَبَابَتِهَا قَائِلَةً بِثِقَةٍ:

- خيرا يفعلون، نشوة النصر مُسكرة، إذا لم يَفِقْ منها المرءُ سريعاً، ويتجهزَّ للقادم، لن يَفِيقَ إلا على حُتْفِهِ.

هَزَّتْ رَأْسَهَا وَقَالَتْ بِنَبْرَةٍ غَامِضَةٍ:

- دَعَهُمْ فِي نَشْوَتِهِمْ تِلْكَ، وَدَعْنَا نَحْنُ فِي تَجْهِيزَاتِنَا.

- أَحَقًّا مَا سَمِعْتُ، الْأَخْوِيَّةُ تَرْتَبُ لِمَعْرَكَةٍ جَدِيدَةٍ هَائِلَةٍ؟

لَمَعَتْ عَيْنَاهَا كَبِرْقٍ غَاضِبٍ وَقَالَتْ:

- إِذَا تَمَّ الْأَمْرُ كَمَا نُرِيدُ، فَسَتَكُونُ مَعْرَكَةٌ فَاصِلَةٌ، لَنْ يَنْهَضَ هَؤُلَاءِ بَعْدَهَا وَلَنْ تَقُومَ لَهُمْ قَائِمَةٌ.

أَثَارَ كَلَامِهَا الْقَشْعِرِيرَةِ فِي جَسَدِهِ فَاعْتَدَلَ مَتَسَائِلًا بِتَخَوُّفٍ وَهُوَ يَقْتَرِبُ مِنْهَا بَوَجْهِهِ:

- نَمَتْ إِلَى أَخْبَارٍ عَنْ ثَمَةِ تَقَارُبٍ بَيْنَ الْمُوَحِدِينَ وَالْأَيُوبِيِّينَ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ، حَرْبًا كَهَذِهِ قَدْ تُعْجَلُ بِتَحَالُفٍ بَيْنَهُمَا، وَأَنْتَ تَدْرِكِينَ مَغْبَةَ هَذَا التَّحَالُفِ فِي حَالِ حَدُوثِهِ، سَنَصْبِحُ بَيْنَ فَكِّي أَسَدٍ جَامِحٍ وَغَاضِبٍ، سَيُزَلْزَلُ عَرُوشُنَا وَيُهْدَمُ بِنْيَانُنَا.

أَطْلَقَتْ ضَحْكَةً قَصِيرَةً سَاخِرَةً وَقَالَتْ وَهِيَ تَعُودُ بظَهْرِهَا إِلَى الْخَلْفِ:

- أَيُّ تَقَارُبٍ؟ هَؤُلَاءِ مَا بَيْنَهُمْ مِنَ التَّشَاحُنِ وَالْخِلَافَاتِ قَدْ يَفُوقُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مَا بَيْنُنَا وَبَيْنَهُمْ.

بَدَا الْاسْتِغْرَابُ عَلَى وَجْهِهِ فِي حِينَ انْدَفَعَتْ مَرْدِفَةٌ:

- ألا تذكر منذ أعوام حين أرسل صلاح الدين إلى المنصور الموحدى مستنجداً ومستصرحاً إياه أن يمدّه وينجده بالأسطول الموحدى ليعاونه في صد الحملات الصليبية على المشرق.

- بلى، وقد رفض المنصور مدّه بالأسطول.

- أتدري ما سبب رفضه؟

- أجل؛ لأن صلاح الدين لم يخاطب المنصور بلقب أمير المؤمنين، ولم يعترف بكونه خليفة، فالأيوبيّ يدين بالطاعة للخليفة العباسيّ.

أملت رأسها إلى الخلف قائلة بصوت عميق:

- عجرةٌ وحظٌّ نفس، أضاعت على المسلمين إنشاء أكبر وأعظم تحالف عسكريّ إسلاميٍّ في زماننا هذا، فلو تم لتغيرت خريطة العالم تماماً، ولا جثّت الإمارات الصليبية في المشرق من جذورها ولتوقّفت الحملات الصليبية إلى الأبد، ولصرنا حتى نحن في إسبانيا في خطر داهم

- والآن كيف ترين الوضع؟

مطّ شفتيها وقالت بثقة:

- هجمات الأيوبيين على إفريقيا وأطماعهم فيها تُثير سخط الموحدين ونقمتهم، وقد بلغ الغضب مداه بعد أن اقتطع قراقوش الأيوبيّ بعضاً من أملاك الموحدّين وضمها إلى مصر. ومن ناحية أخرى يسعى الموحدون إلى حصد مكاسب سياسية عن طريق إعلان أنفسهم خلفاء على المسلمين الأمر الذي أغضب العباسيين ومن خلفهم بنو أيوب الذين يعدون أنفسهم الآن سيف بني العباس ودرعهم، لذا ما من تحالف مأمول ولا تقارب بينهم، بل

الأيام ستزيد الهوة والوحشة بينهم وسيتعاضم الجفاء ويتمكن منهم العداء، حتى يُنْهَكُوا أنفسهم ويُفْنُوا بعضهم بعضاً وتذهب ريحهم. صممت قليلاً ملتقطة أنفاسها قبل أن تتبع بثقة:

- لا تقلق، هذه المرة أوروبا كلها ستنتفض معنا، البرتغال، وليون ونافار وبلاد الغال، البابا نفسه متحمس للغاية وقد وعدنا بدعم هائل.

حل الصمت لثوانٍ وباسكوال يسكب شراباً ما في كأس فضيٍّ قدّمه إلى مارتا التي راحت ترتشف منه ببطء وهو يسأها بفضول:

- تناهى إلى مسامعي حديث حول بلاط الموحدين.

- أيُّ حديث يكون؟

- أحقّاً لنا أحد ما يعمل لحسابنا هناك؟

جمدت ملامحها ولم تشِ بأيّ انفعال، طفقت تنقر بأصابعها على سطح الطاولة قبل أن تقول بغموض:

- لا تشغل بالك بهذه الأمور، معرفتك بحقيقة الأمر لن تقدم لك جديداً، بل قد تكون مضرة لعملك هنا.

- لكن.

قاطعته بحزم مشيرة بيدها حائلة إياه على الصبر وعدم تعجل الكلام وهي تقول:

- لكن عليك أن تعي شيئاً مهماً، ليس بالضرورة أن يعمل أحدهم لحسابنا حتى نحصل على فائدة منه، بل ربما يكون العكس هو الأفضل، نتحصل على أعظم فائدة من أشد خصومنا عداوة.

- كيف ذلك؟

- ليس بالضرورة أن يكون لنا عميل بشكل مباشر، بل الأفضل أن نبحث عن أحدهم من أصحاب النفوذ والسطوة، ثم نعرف دقائق شخصيته ومكان من نفسه، ندرس حركاته وسكناته، نطلع على طموحاته وأماله، وبعدها نخترق أسوار عقله ونتغلغل فيه، ثم نحشو رأسه بأفكار وخطط وتدابير نوهمه أنها من بنات أفكاره، ثم نُعَبِّد الطريق له ليضعها موضع التنفيذ، فيخدمنا من حيث يظن أنه يخدم أمته، ويأتيهم الضرر من حيث ظنوا المنفعة.

ضرب الذهول وجهه باسكوال للحظات قبل أن ينفجر مُقهقهقا بصوت عالٍ وعينه تدمعان من فرط ضحكته، وسط ذهول مارتا التي راحت تتساءل:

- ما الذي يضحكك؟

بالكاد تمالك نفسه وهو يقول من بين ضحكاته:

- تذكرت والدنا حين كان يبيث في عقلي أمثال كلامك هذا فأعجز عن استيعابه، كان يُمازحني قائلاً: «باسكوال، ورثت مني ضخامة جسدي، وورثت مارتا عقلي كاملاً، لم يترك أحدكما للآخر شيئاً».

تبسّمت مارتا إثر الدعابة قبل أن تقول بجدية:

- صدقني يا باسكوال قد تكون أكثر ذكاء ونباهة مني، لكن لكل منا مجاله الذي يجيده، أنت بارع في جمع المعلومات ونشر العيون، واختراق صفوف أعدائنا ومعرفة كل صغيرة وكبيرة عنهم، بينما أنا أجيد قراءة الواقع وتحليله واستشراف المستقبل وتأويله، لكل منا مضماره يا شقيقي العزيز، لكن في النهاية نلتقي عند خط الفوز والسبق.

تناول زجاجة الشراب وسَكَبَ لها كأسًا آخر فالتقطته مُرتشفة منه ثم قالت باهتمام بالغ وقد أقلقها سؤال باسكوال عن رجلهم في بلاط الموحدين:

- على إثر ذكر والدنا دُعِني أذكرك بنصيحته لنا «أمثالنا طريقهم كطبقة ثلج هشة رقيقة، تُخفي أسفلها تيار ماء بارد وعنيف، خطوة واحدة خاطئة يجد المرء فينا نفسه في غياهب الظلام والضياع، من يسقط منا لا نجاة له» لذا عليك أن تكون حذرًا يا شقيقي، اجعل الحرص رداءك والحذر منهاجك.

هزَّ رأسه مؤمنًا على كلامها وهو يسألها مجددًا:

- هل قدمت من أجل تلك المعركة المنتظرة؟

- لا، لديَّ مهمة أجلُّ وأعظم.

استرعت الكلمات انتباهه وشَحَذَتْ فضوله أكثر فراح يسألها:

- ما تريدتك هذه المرة؟

كانت تُدرك مدى فضول باسكوال فابتسمت بجذل وراحت تُحدِّثه بنظرات صامتة مستعذبة نهش الفضول في عقل شقيقها الذي طفق ينقرُّ بأصابعه على الطاولة مكرِّرًا سؤاله قبل أن تُريجه قائلة:

- جئتُ أبحث عن بعض مؤلفات ابن رشد.

فغَرَ فاه من الدهشة:

- ماذا؟

- أجل، بعضها اختفى تمامًا، والبعض الآخر نسخه لدينا غير مكتملة،

لذا جئتُ هنا للتتقيب عنها.

هزَّ كتفيه مستغربًا، ومطَّ شفتيه قائلاً:

- الموحدون لم يُيقوا منها شيئاً مذ أمر يعقوب المنصور خليفة الموحدين بحرقها وتجريرها اقتنائها
أجابته بثقة:

- سجد الكثير منها ما زال مخفياً في خزائن البعض، فقط نُحسن البحث ونُجزل العطاء.
قلّب كفيه بحيرة قائلاً:

- لكن ما الذي تبغونه من مؤلفات ابن رشد؟
تراجعت مارتا في جلستها وشبكت أصابع كفيها أمام وجهها وهي تقول
بنشوة:

- أتدري ما أفصح وأبلغ أمر؟
لم تنتظر منه إجابة. راحت تُكمل بحماسة:
- الأمور الصامتة الناطقة.
- صامتة ناطقة؟! كيف ذلك؟
تساءل في ذهول فأجابته بابتسامة عريضة:
- صامتة في أفعالها، ناطقة بدلائلها المخبرة، وعبرها الواعظة، وأثارها
الممتدة.

- مارتا، عقلي لا يستوعب أحجيتك هذه، أفصحي وأبينّي يا أختاه.
ضاقت عيناها وهي تلوح بسبابتها قائلة:
- أتدري ما الذي أسكرني، وأنشاني، وأنساني هزيمة الأرك؟!

- تَذَكُّرِينَ فاجعة ابن رشد و حرق كتبه؟

- أَتُكَنِّينَ لَهُ كُلَّ تِلْكَ الْكِرَاهِيَةِ؟

- الْأَمْرُ لَيْسَ كَمَا تَظُنُّ.

- وَمَا عِصَاهُ يَكُونُ إِذَنْ؟

اعتدلت في جلستها مُرتشفة من كأسها ببطء ثم أخذت تقول باهتمام وعيناها ترقبان وقَعَ كلامها على ملامح شقيقها:

- مَا حَدَثَ لِابْنِ رَشْدٍ هُوَ الْوَتْدُ الَّذِي تَحْرُكُ لِيَهْزَأَ أَرْجَاءُ تِلْكَ الْحَضَارَةِ الْبَدْوِيَّةِ.

بدا عليه الذهول ومارتا تستطرد:

- لَقَدْ كَانَ حَرَقَ كُتُبِ ابْنِ رَشْدٍ إِذْنًا بِمُخَاصِمَةِ الدِّينِ لِلْعَقْلِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ، وَالْأَمَّةِ الَّتِي تَخَاصِمُ الْعَقْلَ أَتَدْرِي مَا الَّذِي يَحِيقُ بِهَا؟

فَغَرَّ فَاهُ مِنَ الدَّهْشَةِ وَلَمْ يَرُدْ بَيْنَمَا اقْتَرَبَتْ هِيَ مِنْهُ وَرَاحَتْ تَهْمِسُ بِجَدَلٍ وَنَشْوَةٍ:

- الْجُمُودُ.

- مَاذَا؟

- أَجَلْ، يَصِيبُهَا الْجُمُودُ الَّذِي يُؤْدِي إِلَى التَّخَلُّفِ، وَالتَّخَلُّفِ سَرْعَانِ مَا يُؤْدِي إِلَى التَّدَهُورِ، وَحِينَهَا تَتَلَاشَى تِلْكَ الْحَضَارَةُ مِنَ الْوُجُودِ أَوْ تَنْزَوِي فِي رُكْنٍ مَظْلَمٍ مِنْ أَرْكَانِ التَّارِيخِ.

أَطَلَّتْ نَظَرَاتُ الْاسْتَهْجَانِ مِنْ عَيْنِيهِ:

- كُلُّ هَذَا بِسَبَبِ حَرَقِ بَضْعَةٍ مِنَ الْكُتُبِ؟! أَرَأَيْكَ تَبَالِغِينَ يَا مَارْتَا.

أطلَّت الثقة من عينيها وهي تقول:

- الأمر ليس كما تظن، كتب ابن رشد هي فقط البداية، وبعده سيكون هناك مئات وربما آلاف من ابن رشد، يعانون من مثل فجيعته ومحتته، سيواجهون القتل المعنوي، التهديد، الترهيب، المخاصمة والمجافاة، ومع الزمن سيختفي هؤلاء ويأفل نجمهم، حينها تفقد الأمة حيويتها ويتوقف قلبها النابض.

كادت الحيرة تبتلعه تماماً فهتف مستوضحاً:

- طالما الأمر كما تقولين فلمَ تهاجم الكنيسة أيضاً ابن رشد وتصفه بأفدع الألفاظ ما دام الضرر سيحقيق بأمتة؟

- رجال الكنيسة غاظمهم رفض ابن رشد لسلطة رجال الدين، أيّا كان هذا الدين، وتخوّفوا من تحريضه الناس على تحرير عقولهم حيال ما يقوله الوعاظ والكهّان لهم، فطعنوا فيه، وكفّروه، وسبّوه بأفدع الألفاظ. رجال الدين يُحبذون التحكم في مسلوب الفكر والإرادة، هؤلاء يسهّل التحكم فيهم والإمساك بزمامهم وتوجيههم، لذا يخشى علماء الدين في أيّ ملة أمثال ابن رشد.

توقفت قليلاً مبتلعة ريقها ومستجمعة أنفاسها اللاهثة بفعل حوارها الملتهب، وقالت في حماسة:

- ابن رشد وأمثاله ثلّة في الأمم، عقولهم تتجاوز حدود زمانهم، وهؤلاء منحة لأمتهم نفمة على أنفسهم. أجل صدق القائل ويلٌ لرجل سبق عقله زمانه.

- ماذا؟

- أجل. تلك الثُلَّة تأتي دائماً بالجدید المبدع، وعقول الناس تسعى خلف المتوارث والمألوف، لذا ينفرون من أمثال ابن رشد ويحتنبونه. ومع الزمن يخشى أصحاب العقول الصدام والمواجهة فيميلون إلى الكتمان ووأد أفكارهم خشية النهاية المأساوية أو خيفة الحكام وغضبهم والعوام ونزقهم، وعند تلك المرحلة تفقد الأمة زخماً وحيويتها ورويداً ورويداً تضعف قواها وتتكت مرائرهما وتنحل عصمها وتنفك عُرُها، وتبدأ انحدارها الرهيب، انحدار ربما لا يعيه العقل، لكنه يحدث ويمتد أثره لقرون طوال.

أطرقَ بأسكوال متفكراً البعض الوقت وهو يُملس على ذقنه قبل أن يرفع رأسه قائلاً بدهشة:

- أرى أنه من الصعب رؤية حضارتهم وهي تنزلق إلى مثل هذا المستنقع الذي ترمين إليه، ما تقولينه نسج من الخيال.

لم تدعه يكمل عبارته، اندفعت في حماسة مقاطعة إياه:

- الأمر لن يحدث في ليلة وضحاها، المسلمون ما زال لديهم مخزون هائل من العلم والحضارة، يكفل لهم الاستمرار والريادة ربما لقرون قادمة، لكنهم سيستيقظون ذات يوم ليجدوا أنفسهم أنهم طوال كل تلك القرون كانوا يعيشون على ماضي الأجداد وتراثهم، ولم يحققوا هم شيئاً، وسيكتشفون بعد فوات الأوان أن تراثهم لم يعد ملائماً لمقتضيات عصرهم، حينها نكون نحن قد اجتزنا المضمار وسبقناهم.

- عقلي عاجز عن استيعاب أطروحتك تلك.

أخذت نفسًا عميقًا وبدأ على وجهها الاهتمام وأنشأت تقول بصوت خافت حذر:

- منذ عدة سنوات رصدت الأخوية ظهور تيار دينيٍّ لدى المسلمين له نمطٌ غريب غامض، تيارٌ يُجافي الحياة ويُعاديها، تيارٌ يستحقّر الدنيا الزائلة ويُطالب الناس بالزهد فيها والترفع عنها، تيارٌ يُجافي العقل والعلم ويُعادي ما لا يفقهه، فقط يدعون الناس إلى الانشغال بتأدية شعائر الدين والالتزام بفروضه لينجوَ في الدنيا والآخرة.

- وما الذي يشغلنا نحن في ذلك؟ وأيُّ نفع نرجوه من وراء هذا؟
صاحت باستهجان بالغ:

- نفع؟ سيعود علينا بأكثر من النفع، هذه الحضارة ستقتل نفسها بنفسها. هزَّ رأسه متحيرًا وهو يقول:

- مارتا، بربك، أحاول أن أتلمّس موطئ قدم ثابت في لجة الأفكار الزلّقة التي ألقيتَ بي فيها، كيف يُعقل أن يحدث هذا؟
أجابته في ثقة:

- هذا التيار إذا تغلغل في نفوس الناس وسيطر على عقولهم، ونجح في مسعاه، سنجد أماننا أمة يستوي عندها ظلام الدنيا ونورها، يستوي عندها الظلم والعدل، يستوي عندها النصر والهزيمة، أمة تعيش في الدنيا على هامشها فلا تجزع لذلّها ولا ترنو إلى عزّها، أمة تطرح على نفسها إجابات مريحة لضمايرهم، لم الضّجر والحزن والدنيا مقبوحة مردولة؟ لم العمل والعمران والدنيا مآلها الزوال؟ لنشغل نحن بالعبادة والزهد ونكفّ عن

طلب الدنيا ونتركها لهؤلاء الكفار الملاعين فهي جنتهم، أما نحن فجنتنا في الآخرة.

أخذتها الحماسة وغلفتها تمامًا فأتبعت:

- أمة بهذا النمط لن تتقدم خطوة إلى الأمام، وستعلق نجاحها أو خيبتها فقط على مدى تمسكها بقشور الدين أو ابتعادها عنه.

همّ باسكوال بقول شيء لولا أن استوقفته قائلة:

- أتذكر في صغرنا حين كان والدنا يطوف بنا حواضر الأندلس؟

- أجل.

- ما أكثر ما أثار إعجابك واهتمامك حينها؟

- جمال المدن وأبهة البناء وعظمته، مساجدهم الضخمة التي تضوّع منها رائحة العلم، وحنائهم العامرة.

صمت قليلاً وأغمض عينيه قائلاً بنشوة:

- لا زلت أجد شذاها حتى يومنا هذا.

صمت ثانية وهو يهز رأسه بحزن ثم أردف:

- في تلك الأيام كنت أقارن جنتهم بالزابل التي نحيا فيها، كان يغضبني الأمر ويثير حنقي وأسأل نفسي لم لسنا مثلهم؟

ابتسمت مارتا وسألته:

- أتذكر حين قال لنا والدنا: «يوماً ما سنسترد أرضنا هذه من العرب»؟

- أجل.

- يومها سألته أنت، متى يا أبي؟ فأجابك: «حين تصبح دورنا أفضل من دورهم، وبنائنا أجمل وأعظم من بنائهم».

تنهّدت بحرارة قبل أن تقول والدموع تترقق في مآقيها:
- أبي كان يقصد أن نسبهم نحن في سُلّم الترقّي الحضاريّ، واليوم أُجزم لك أن هذه الدرجة هي آخر ما ستصعده هذه الأمة في سُلّم الحضارة.
هزّ كتفيه بحيرة قائلاً:

- حتى لو كان الأمر كما تقولين، ما زالوا يسبقونا بمئات الدرجات، ما زال البون شاسعاً بيننا.

- أجل، لكنّ الزمن كفيل بتغيير كل شيء، تغيير لن نشهده بالتأكيد، لكنني شممت رائحته ولمحت بصيصه وكتب ابن رشد تأكلها النيران.
حلّ الصمت لبعض الوقت فيما أخذ باسكوال يفرك لحيته بيده وعيناه تسمرتا على الجدار أمامه وغمغم بصوت خفيض كأنه يُناجي نفسه:

- هل من جديد بشأن الخريطة المصرية القديمة؟

هزّت رأسها بأسى:

- لغتها وشفرتها عصيّة على الفهم

أطلّت الحيرة من عينيه وهو يسألها:

- نفق الكثير من الجهد والمال عليها، هل الأمر يستحقّ عناء هذا؟

نصحت الثقة في صوتها وهي تقول:

- الأخوية مذ وجدت تلك الخارطة وهي تؤمن بأنها تخفي سرًا عظيمًا خطيرًا، سرًا قد يُغيّر كل شيء يا أخي، وصدّقني أنا أيضًا أشاركهم هذا الشعور.

قالتها وحلّ بعدها صمت مُطبق، بينما راحت الأحلام تتراقص في رأس مارتا، وأبواق النصر تدوي وبشدة، أغمضت عينها وسقطت في نشوتها فراحت تهزّ رأسها وهي تنقر بأصابعها على الطاولة فيما أخذ باسكوال يتأملها بذهول بالغ، وهي تترنّم.

- ويقف الأجنب وَيَزْعُونَ غَنَمَكُمْ وَيَكُونُ بَنُو الْغَرِيبِ حَرَائِكُمْ وَكَرَّامِيكُمْ. أما أنتم فتدعون كهنة الرب تُسمّون خُدّام إلهنا، تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمرون.

الفصل السابع

حَكَّ جبهته وهو يعبرُ الطريق بتكاسل غير مبالٍ بطوفان السيارات المتدفِّق كسلحفاة بطيئة، ولا أبواقها الزَّاعقة، التي بدت كنعيق غربان ضجر. خلفه موج من البشر يزحف على الرصيف ببطء ثقيل رتيب. أصوات أنفاسهم الساخنة يُلْهَب عقله، ودقات قلوبهم البائسة تطرُق مسامعه، عيناه ترَبْصان، تتواثبان هنا وهناك، وجهه يعكس جدِّية بائس يمنح للموت الإذن بحصد روحه في أسرع وقت. القلق كائن بغیض متوحِّش استوطن قلبه واستعمره، وأغمد فيه سِكينه الصدئة الجافة. دفع باب المطعم ودخل وهو يحول ببصره باحثًا عن نور. هناك في ركن بعيد هادئ لمحها جالسة تحتسي فنجان قهوة وبصرها مُعلَّق بجريدة أمامها، والبسمة تعلو وجهها. تساءل في نفسه كيف تتمكن تلك الفتاة من تذوق البسمة وجلبها إلى شفثيها في مثل تلك الظروف الحالكة، مذ بدأت تلك الحوادث وهو يتسول قليلًا من الراحة لم ينله حتى لحظته هذه. اقترب منها فاتسعت ابتسامتها بينما تجهم هو:

- أهلاً يا طارق.

جلس ولم يردِّ. حزرت ما أغضبه. تجاهلت ذلك وراحت تحكُّ مقدمة أنفها تأهُبًا للمعركة المتوثِّبة. خلع نظارته السوداء فبدت جفونه المتفتحة وعيناه المحمرَّتان كالجمر.

- رجعت للشرب تاني؟

سألته قلقة فأجابها بسُخط واحتياج:

- الشرب مش هيقتلني، لكن تهورك هيقتلنا احنا الاتنين.

- تقصد إيه؟

- مقال حضرتك في الجورنال. إيه الجنان ده، إنتي مش عارفه ممكن يحصلك إيه بعد نشر الكلام ده؟

أجابته بحدة وهي تضرب بيدها على سطح الطاولة وقد انعقد حاجباها الجميلان:

- مش أكثر من اللي حصل لمخيون وحصلك، دم مخيون مش هيروح هدر ومشواره لازم نكمله، العالم كله لازم يعرف مخيون اتقتل ليه.

صمتت قليلاً وهي تهزّ رأسها قبل أن تُتبع بحزم:

- المرة دي لمحت في المقالة عن الموضوع، المرة الجاية هذكره صراحة.

ثارت ثائرتة وانفعل بشدة وبدا صوته أكثر انزعاجاً وهو يُشيع بيده:

- تبقي مجنونة رسمي، أولاً الناس دي مش هتسكت، ثانياً هيكون كلامك مجرد ادعاء بلا دليل. بدون بحث مخيون أو المخطوطة والوصول للمقبرة، ده كله يعتبر كلام في الهوا.

أصابها الوجوم وتساءلت بخوف:

- يعنى إيه يا طارق، هنسلم خلاص، وصاحبك اللي دفع عمره تمن السر

ده.

بدا الحزن والتأثر على وجه طارق واعتدل في جلسته لحظة وصول النادل.

طلب كوباً من القهوة من دون سكر، ثم أشعل سيجارته قبل أن يقول بمرارة واضحة:

- أنا عمري ما هستسلم، لكن في نفس الوقت محتاج أتحرك على أرض ثابتة، التاريخ لا بد له من وثائق وأدلة مش مجرد ادعاءات، عشان كده لازم نعرف نسخة البحث الثانية مخيون أخفاها فين، ده هيساعدنا في مسك طرف خيط من خلاله نقدر نوصل لمعلومات أكثر.

- ولحد ما نوصل للدليل هنعمل إيه؟

تساءلت بقلق، فزفر بحرارة وتراجع في كرسيه عاقداً ساعديه أمام صدره وهو ينفث دخان سيجارته:

- لازم تهدي تمامًا يا نور، احنا بنتعامل مع وحوش، ممكن يعملوا أي حاجة في سبيل حماية مصالحهم.

حلَّ الصمت لبعض الوقت ونور تتأمل به بحنان جارف. كان القلق باديًا على ملامحه بجلاء سألته برفق محاولة تغيير دفة الحوار:

- بطلت تروح الشغل ليه؟

رفع بصره ناحيتها ثم خفضه ببطء محاولاً إخفاء دموعه التي احتشدت في عينيه وتمتم بصوت حزين.

- مش قادر أتحيل نفسي هناك من غير مخيون، كل حاجة هناك بتفكرني به، أوقات بتخيل إنه هيفتح باب المكتب ويدخل عليًا بضحكته وهو بيقلبي خبر عن كشف أو حفرة جديدة، طول عمره كان مخلص وعاشق للتاريخ. أو مات نور برأسها مُضيقة بحزن:

- ودفع حياته تمن لكدا.

- وده اللي مخوفني يا نور.

- خايف من إيه بالظبط؟

تساقطت العبرات من عينيه وهو يقول بصوت مرتعش متردد:

- خايف يا نور، خايف على نفسي وعليكي.

تأملته بقلق وهو يُتبع:

- الناس دي ما عندهاش خطوط حمرا في تعاملها، عشان كدا لازم نخاف، لحد دلوقتي مش عارفين هما مين، لكن الظاهر إن نفوذهم واسع جداً، ولهم عيون في كل مكان.

حلَّ الصمت لبعض الوقت راح خلاله ينقر بأصابعه على الطاولة أمامه، التقط نفساً عميقاً وقال بشرود غريب:

- عارفة في العصور الوسطى كانوا يروضوا الثعالب البرية إزاي؟

حملقت فيه بفضول مستغربة تطرقه لهذا الأمر ولم تُرد فأردف:

- عن طريق الخوف، كانوا يجمعوا الثعالب في أقفاص واسعة، ويقف شخص بجوار القفص ويقرب إيده من ثعلب لو الثعلب هجم على اليد يعضها الرجل يسحبها بسرعة بعدها مباشرة يتم قطع رأس الثعلب أدام القطيع، مرة واثنين وثلاثة وعشرة تتعاد التجربة لحد ما الثعالب يسكنها الخوف، وبعدها تتحول إلى كائنات مطيعة مدجنة، وده الي حصل مع مخيون ومعنا، الخوف بقى جزء من حياتي، بقى جزء من روحي.

صفعت الكلمات روحها بشدة فابتلعت ريقها ولاذت بصمتها، بينما تناول طارق فنجان القهوة ورشَفَ منه رشفتين. شعرت نور بمعاناته ومأساته وبالمخاوف التي تتصارع داخله فسأله بشفقة:

- كتفك أخباره إيه دلوقتي؟

هز رأسه بلا مبالاة:

- كويس، الرصاصة اخترقت اللحم وخرجت في نفس اللحظة، الإصابة كانت بسيطة، تقريباً مكنش قصدهم يقتلونني، الهدف كان مخيون، أنا بالنسبة لهم ولا شيء.

صمت قليلاً وأخذ نفساً عميقاً ثم أردف قائلاً:

- مخيون الله يرجمه كان عامل حساب كدا، المعلومات الي عندي وعندك تكون بسيطة، أولاً حماية للكشف الأثري، وثانياً حماية لنا، ما دمنا مش عارفين حاجة هنكون في أمان.

هتفت بذهول عارم:

- قصدك تقول إنهم سابونا نعيش عشان متأكدين إننا منعرفش كثير عن الموضوع.

أوماً برأسه بثقة وهو يعاود النقر بأصابعه على سطح الطاولة:

- بالظبط. الناس دي بتحب تنهي شغلها من غير دوشة كثيرة، ومن غير بحر دم يثير وراهم الشكوك، بيقتلوا لما يشعروا بالخطر، عشان كده لازم نخليهم يتأكدوا إن احنا مش مصدر خطر لحد ما نقدر نوصل لدليل قوي. قالها وحلّ على المكان صمت عميق مهيب، فيما أخذت الحيرة داخلهم تتزايد والهواجس تضطرب بشدة.

أسرع خميس الخطى نحو مدرسة القرية حيث تُعقد اللجان الانتخابية. قطع الطريق بخطوات واسعة تشبه الهرولة. بدت عليه العجلة الشديدة. لم يلاحظ ذلك الشخص الذي ظهر فجأة من شارع جانبيّ فارتطم به بعنف:

- ما تحاسب يا خميس.

قالها الرجل الملتحي بغلظة واضحة وهو يُعاود ضبط شال الرأس الأبيض وهندمة جلبابه.

- لا مؤاخذه يا ض يا فوزي.

تجهّم الرجل وكشّر عن أنيابه وصاح بحدة وانفعال زائدين والشرر يتطاير من عينيه:

- يا ض؟؟

ردّ خميس معتذراً بسرعة محاولاً إصلاح ما أفسده لسانه:

- لا مؤاخذه قصدي يا ض يا شيخ فوزي.

بدا الضيق والتذمر على وجه فوزي وهو يقول بفضفاضة راقماً خميس بازدراء:

- أنت لسانك منفلت كدا ليه يا خميس؟

رد خميس بتلقائية وبساطة شديدين:

- يعنى إيه منفلت وبعدين ما إحنا كنا صحاب وإحنا عيال، وأنا أكبر منك ييجى سنة ولا اتنين.

قطّب الرجل حاجبيه وزادت تكشيرته وخرج صوته جافاً خشناً:

- مش بالسّن يا خميس، لازم يكون فيه تقدير للعلم والعلماء.

تلفت خميس حوله مستغرباً:

- وهما فين دول؟

ظهر الضيق والغضب على ملامح فوزي وازدادت لهجته حدة تزامناً مع احمرار وجهه:

- أنا يا جاهل، لازم لما تخاطبني يكون فيه توقير واحترام، وتقولي يا شيخ فوزي، ده احترام للعلم قبل ما يكون احترام لشخصي المتواضع.

بدت الحيرة على وجه خميس وهو يتساءل مستغرباً:

- علم إيه، أنت معاك دبلون صنايع يا وله، ده ماله ومال المشيخة والعلم. رد فوزي بلهجة جافة:

- أنا اتعلمت في السعودية العلم الصحيح، وأخذت إجازات عديدة.

تساءل خميس ببلاهة:

- يعني أنت راجع في إجازة دلوقتي.

- أقصد إجازة علمية.

هرش خميس في رأسه قائلاً:

- إيوه يعني أنت راجع في إجازة تتعلم فيها.

بدا الاستياء على وجه فوزي من فرط غباء خميس:

- ملوش لازمة الكلام، اتوكل على الله شوف رايح فين

- لا مؤاخذه يا شيخ فوزي، أصل لازم ألحق الانتخابات، مش فاضل

غير ساعة واللجنة هتقل، والحاج عمران بيوزع على كل صوت عشرين جنيه وكرتونة رز وسكر وزيت.

انفعل فوزي وصرخ ملوِّحاً بيده:

- ده حرام يا خميس ولا يجوز.

- الكرتونة حرام؟

- لا الانتخابات هي اللي حرام، مفيش حاجة في الإسلام اسمها انتخابات.

بدت الدهشة على وجه خميس:

- يا سلام أومال فيه إيه؟

واصل فوزي بلهجته المنفعلة الحماسية وجسده يهتز:

- الانتخابات شركيات، وأعمال طواغيت، وأيضاً تحاكم لغير الله.

بدا التردد والحيرة على وجه خميس:

- يا داهية دقي، الكلام شكله كبير أوى يا شيخ فوزي.

زادت حماسة فوزي وواصل بلهجة خطابية:

- طبعاً يا خميس، الموضوع في غاية الخطورة، ولا بد أن تُعلن تبرُّأك من

الانتخابات، مجرد ذهابك للجنة يعد فسوقاً، وعقيدتك يكون فيها دخن.

وقعت الكلمات على خميس كالصاعقة على الرغم من أنه لم يع منها شيئاً

لكن أصابته بقلق عارم فتساءل متخوفاً:

- يعني إيه؟ ماروحش أنتخب؟

- إياك والذهاب ده شرك وذنوب عظيم، الانتخابات يا خميس بدعة هذا

الزمان، يجب أن تجنبها لأنها من أعظم الحرمات.

بدا التأثير على وجه خميس وهتف بانفعال حادّ:

- حد الله بيني وبين الحرام، أدام حرام خلاص، نبطلها من هنا ورايح،
أعوذ بالله.

أكمل طريقه حتى اللجنة الانتخابية. لمح هيام في طابور النساء فتقدّم
نحوها محاولاً محاكاة وتقليد تكشيرة فوزي وتجهمه وصاح بها في حدة:

- بت يا هيام، تعالي هنا.

التفتت ناحيته في غضب.

- إيه اللي أخرك، الحق خد دورك في الصف، مش فاضل غير نص ساعة
واللجنة هتقفل.

واصل تقمّصه لدور فوزي وصاح في صرامة:

- مش هنتخب يا بت.

ذهلت من كلامه فغادرت الطابور مسرعة ناحيته وصاحت بغضب:

- ليه يا روح أمك؟

- حرام يا بت. حرام.

- تحرم عليك عيشتك يا بعيد، هو إيه اللي حرام؟

- الانتخابات.

انعقد حاجباها الجميلان وصاحت بنفاد صبر وبصوت يائس:

- ما لها يا روح أمك؟

- طلعت بدعة وشركيات، وحاجات تانية كثير كدا.

خُملت فيه بغیظ:

- إلهي تتبدع عينك، مين الأهطل الي قالك كده؟

- الواد فوزي، قصدي الواد الشيخ فوزي.

وكرّته بعنف في كتفه:

- وهو ده يفهم حاجة في الدين عشان يقول حرام ولا حلال. ده حتى

الشيخ عوض شيخ الجامع كان بيتتخب من شوية، والدنيا كلها بتتتخب،

يبقى فوزي هو الي فاهم والناس دي كلها مش فاهمة.

بدا الشك والتردد على وجهه وضافت عيناه وهو يقول مرتبكا:

- يا بت ما هو فوزي اتعلم في السعودية، العلم هناك غير هنا، هناك

العلم على أبوه.

أصابها الضيق والحنق فهتفت بغیظ بالغ وهي تلوح بسبابتها:

- وله يا خميس أنا مش ناقصة غباوة، الحاج عمران عامل على كل صوت

خمسين جنيه وكرتونة سكر وزيت.

- خمسين جنيه؟

- أيوه، هتروح تنتخب ولا هتروح مع بتوع البدع يا كبد أمك؟

هتف بحرارة وحماسة:

- بدعة إيه يا بت، ده الانتخابات حلال الحلال، خدي دورك وأنا هلحق

مكان في الطابور.

قالها وهو يطير سريعا مخترقا الصفوف متقدما حتى باب اللجنة.

دارت صواني الطعام على أهالي القرية المرتصّين داخل دوّار الحاج عمران
النائب المخصوص عن الدائرة منذ عشرين عامًا. جلس خميس وزغلول على
إحدى الطبلبات وأيديهما تطيش في الصينية تتبعًا وبحثًا وتنقيًا عن قطع
اللحم المتناثرة فوق الفتّة.

أقبلت وفود المهنيين بالعضوية الجديدة في مجلس الشعب، ووقف الحاج
عمران في استقبالهم بنفسه متجولاً بين الأهالي. حانت التفاتة من خميس
فأبصر فوزي يهرول سريعاً داخل الدوار متقدماً ناحية الحاج عمران هاتفاً
بتملق وتزلف زائدين:

- مبارك يا حاج عمران، البرلمان كسب رجل ذو قيمة وقامة، تستحقها
والله، من لها غيرك يا صاحب الخبرة والنزاهة.

بادلته الحاج عمران التهاني والمجاملة فيما لم يستطع خميس كبح جماح نفسه
وهو يُصغي للكلمات فوزي فهتف بصوت عالٍ وبجدية بالغة:

- أنت بتبارك على إيه ياض يا شيخ فوزي؟ أنت مش كنت بتقول
الانتخابات حرام وبدعة.

كسا الوجوم والاستياء ملامح فوزي واحمرّ وجهه فيما اكتفى عمران
بالابتسامة تاركًا خميس ينال من فوزي الذي اكفرّ وجهه واربتك تمامًا وصاح
متلعثمًا وهو يضبط شال رأسه:

- اسكت يا خميس أنت لا تفهم شيئًا.

- طب فهمني، امبارح كنت بتقول الانتخابات حرام والنهاردة جاي
تبارك للحاج عمران على الحرام، يبقى إزاي الكلام ده.

زاد ارتباك فوزي وتلغثمه وتصبّب منه العرق وهو يقول بحدة:

- يا جاهل الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان.

وضع زغلول قطعة لحم في فمه وابتلعها وهو يقول بسداجة:

- آه والنبي يحصل الكلام ده.

ظهرت الحيرة على وجه خميس وهو يتساءل:

- يعني في ظرف يوم تبقى من حرام لحلال:

أجابه فوزي بعصبية محاولاً مداراة إحراجة:

- نعم، كنت مخطئاً ثم تبين لي اليوم الصواب.

هرش خميس في رأسه متعجباً وقال بجدية بالغة:

- طب على كدا البت هيام مراقي بتفهم أحسن منك، ساعتها قالت ليا

حرمت عليك عيشتك أنت والأهطل فوزي، الانتخابات حلال الحلال،

وأهي لا راحت السعودية ولا هوّبت ناحيتها.

ضجّ الجميع بالضحك فيما طفق زغلول يقول في ثقة وزهو:

- الله ينور عليك يا هيام يا أحتي، فرق معاها التعليم، تانية ابتدائي مش

شوية يا جدعان.

أطلق عمران ضحكة مجلجلة بينما فوزي يتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه،

أو حتى تبتلع خميساً الذي لم يترك الفرصة فتمسّك بها هاتفاً في عمران:

- عايز بقى مناب حلو لهيام.

- ولك أنت كمان يا وله.

- طلب كمان.
- تلملم الحاج عمران وهمّ بالتحرك وهو يُلملم أطراف عباءته قائلاً:
- مش وقته يا خميس، خليه بعدين، بكرا ولا بعده.
- بكرا ولا بعده إيه، هو احنا هنشوفك تاني غير كمان أربع سنين.
- ضحك الحضور وعمران يقول باستياء ملتفتاً ناحية خميس:
- عايز إيه يا أبو لسان زالف؟
- عايز وظيفة حلوة تليق بشهادتي.
- تساءل عمران متعجباً:
- شهادة إيه يا وله؟
- نحو أمية ما أنا خدتها.
- كأن شيئاً ما قفز وصفع عمران على وجهه فتراجع بجسده للخلف مذهولاً ثم قال وهو يتأمل خميساً:
- حاضر يا خميس، هشوفلك وظيفة، كُل دلوقتي وبطل غلبة.
- غادرهم مستكماً جولته بين الحضور فيما وقف فوزي يرمق خميساً بغضب عارم وهو يهتف بصوت أشبه بالفحيح:
- بتخرجني أدام الناس يا خميس.
- رد عليه خميس بغیظ:
- أنت الي كنت هتضیع علیاً كرتونة الزيت والسكر والخمسين جنيه، جاتك رزية.

ازداد حنق فوزي وغضبه واحمرَّت عيناه وهو يصرخ في خميس:

- صبرك عليا يا حليق اللحية، يا شبيه النساء يا كافر.

نطق الكلمة الأخيرة بغضب هادر فارتجف الاثنان فيما غادرهما وخميس يقول باهتمام بالغ:

- ودي كمان نسأل فيها هيام، والنبي هتلاقيها فاهمة عنك.

* * *

غاصت الحجرة في ظلام دامس عدا سطح المكتب الذي تدلَّى عليه مصباح نشر ضوءه في محيط صغير كاشفًا عن أوراق صفراء قديمة نفوح منها رائحة عَطْنَة كأنها استخرجت الآن من قلب قبو خفيٍّ في زمن سحيق. راح الدكتور يُطالِعها بشغف واهتمام بالغين. كانت آلاف الأسئلة تطرق عقله وتنهال عليه بشدة. مذ بدأ هذا الأمر وعيناه جفاهما الكَرَى، فيما فارقت الراحة وغادرته إلى غير رجعة. هزَّ رأسه وأخذ ينغمس في تفحُّص الأوراق علَّها تنجح في عزله وانتشاله من دوامة التفكير هذه ولو لدقائق. استغرق تمامًا وسقط في بحر التاريخ قبل أن يتبته إلى الواقع على صوت سوزان التي ولجت الحجرة وهي تقول:

- إيه الي واخذك كدا، بقالي ساعة بخبط على الباب.

رفع رأسه ناحيتها وراح يتطلع إليها من ظلمته قبل أن تسحب مقعدًا وتجلس مقابله فسحب الدكتور عدة أوراق من ملف أمامه تفحصها قليلًا ثم ألقي بها ناحية سوزان. التقطت الأوراق وبدأت في مطالعتها. انعقد حاجباها وتراجعت في مقعدها قائلة بقلق:

- ده مين اللي بينبش ورا الموضوع؟
- صحفي أمريكي وصلته معلومات بشكل ما ويحاول التأكد منها.
- بدا عليها الانزعاج أكثر:
- ده موجود في مصر؟
- لا، في أمريكا.
- كويس يبقى مش مشكلتنا.
- قالتها بارتياح وهي تسترخي في جلستها فأجابها:
- هو فعلا مش مشكلتنا، هناك هيتعاملوا معه، لكن المشكلة هنا إنه اتصل بطارق.
- بدا عليها الذهول واندفعت للأمام بحدة:
- إيه؟! امتى الكلام ده؟
- امبارح.
- وبعدين حصل إيه؟
- طارق أنهى المكالمة معاه من دون أي رد، لكن الخوف إنه يكون تواصل مع حد ثاني من غير ما نعرف، حد في الإعلام مثلاً.
- تبسمت بثقة:
- لو حصل هنعرف، عيوننا ورجالتنا في كل مكان.
- قاطعها بحزم:

- مش عايزين نسيب حاجة للصدفه، ومش عايزين حد ياخذ نفس من غير ما نحس به.
- فركت كفيها بعصبية وزفرت بحرارة:
- امتى العملية دي تخلص، التوتر هيقتلني.
- هانت يا سوزان، قطعنا شوط كبير في فك رموز المخطوطة، وقريب جداً هنوصل للمقبرة.

* * *

الفصل الثامن

القسطنطينية - 1453 م

القسطنطينية. بيزنطة القديمة. عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية لمدة تربو على أحد عشر قرناً. ظلَّت طوال تلك القرون عصية صامدة أمام الغزاة بأسوارها الشاهقة المنيعة، وقلاعها الهائلة الحصينة، ومناعتها الطبيعية النادرة. كم ردت من فاتحين خائبين! وكم أعيّت من محاررين بفضل موقعها الجغرافي المتميز، صاحب الدور الأكبر في صمودها كل تلك القرون!. نظرة على خارطتها ستجدها تقع على الجانب الأوروبي للممر المائي الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأسود، عند نقطة تضيق عندها القناة التي تفصل أوروبا عن آسيا، فلا يزيد وضعها عن نصف ميل، إضافة إلى خليج القرن الذهبي الذي يعد حصناً حصيناً للأسطول المدافع عن المدينة يمكنه من الكرّ والفرّ والمناورة. وحتى لو نجح أسطول ما في تجاوز الخليج سيجد نفسه داخل الممر المائي الضيق الذي يفصل بين الشاطئين الأوروبي والأسيوّي ليكون تحت قصف مدفعي من كلا الجانبين مما يستحيل معه تنفيذ عملية إنزال للجنود فضلاً عن اقتحام القلاع وأسوار المدينة. لكن مع مجيء العثمانيين تغيرت كل تلك الحسابات. ضيّقوا الخناق على المدينة وحاصروها من كل جانب لسنوات عديدة، ورويداً رويداً بدأت المدينة تفقد قوتها وتسَلَّت إليها عوامل الاضمحلال، وأخذت في الانهيار حتى كان ذلك اليوم المشهود الذي اقتحم فيه الأتراك أسوار المدينة على دويّ المدافع ورائحة البارود.

تلقت الشاب البيزنطيُّ حوله في دُعر بالغ، واحتبست الأنفاس في حلقة وهو يستند بظهره إلى أحد جدران كنيسة آيا صوفيا بينما دويُّ المدافع يكاد يُصمُّ أذنيه. الأتراك اندفعوا داخل المدينة كالسَّيل الجامح. الأسوار لم تصمد أمام ضرباتهم وحصارهم العنيف. تساقط البيزنطيون كفراش يتهاوى حول نار مُستعرة، مزَّق الأتراك صفوفهم وشتتوا جموعهم. صيحات الحرب علَّت في الجنبات. صليل السيوف امتزج بصوت الجرحى وآهاتهم وصرخات المتحاربين. رائحة الدم اختلطت برائحة النار. بدأ بعض الجنود البيزنطيين في رفع راية الاستسلام. البعض الآخر ألقى سلاحه وانسحب من أرض المعركة. تابع الشاب بمرارة وانكسار المعركة الدائرة قُرب آيا صوفيا. من بعيد ملحِ متراس ضخم من الحجارة والحديد أقامته كتيبة بيزنطية لمنع تقدم الأتراك، الذين تراجعوا بالفعل تحت أمطار من السهام وكرات نار كانت تأتيهم من خلف المتراس. أثار تراجع الأتراك حماسة البيزنطيين فبدأوا الصياح وجرت في عروقهم الشجاعة. توقف الشاب بلهفة متأملاً المشهد والقائد التركيُّ يأمر جنوده بالتراجع للخلف، وبغثة انشقت الصفوف عن جنديان يسحبان مدفعاً صغيراً خلفه ثلاثة من الجنود يدفعونه بقوة. لم يسبق للشاب أن رأى مدفعاً مثل هذا، كان يعتقد أن المدافع صُنعت لتوضع فوق الحصون والأسوار كأداة دفاعية، أو لهدم الأسوار أثناء حصار المدن، لكنَّ مدفعاً خفيفاً صغير الحجم في قلب ميدان المعركة، كان أمراً غير متوقع. راح يرقُب المشهد بحذر مخفياً خلف جدار مُتهدَّم. اقترب الأتراك بالمدفع بشكل كافٍ من المتراس الذي أخذت حاميته يشاهدون ما يدور بذهول بالغ. ضبط أحد الجنود قُوَّة المدفع ناحية المتراس وأشعل آخر الفتيل. ثوانٍ

ودَوَّى الانفجار. انفجار هائل رهيب أجبر الشاب على إغماض عينيه ووضع يديه على أذنيه اللتين كادت أن تصمًا من شدة الصوت. مادّت به الأرض وتأرجح جسده للأمام والخلف قبل أن يهوي على ركبتيه فاتحًا عينيه بصعوبة لتضرب الصدمة كل ذرة في جسده. أعماه الوهج وخنقه الرَّهَج لِثَوَانٍ قبل أن تستعيد حواسه توازنها. لم يكن للمتراس وجود، تهدّم وصار رُكامًا، على حين تبعثرت أشلاء الجنود في كل مكان، وجياد فزعة راحت تركض هنا وهناك والأتراك يكملون زحفهم مطلّقين تكبيرات وصلت عنان السماء. هزَّ الشاب رأسه بجزع بالغ واحتشدت الدموع في مآقيه ثم تساقطت كشلال هادر قبل أن يتمالك نفسه وينهض بالكاد ثم يستدير راكضًا مبتعدًا عن ساحة الحرب. واصل عدّوه لأكثر من نصف ساعة متفادياً كتل البشر الخائف التي راحت تتماوج في شوارع المدينة حتى وصل إلى شارع ضيق اندفع خلاله ووصل نهايته. وقف قليلاً ملتقطاً أنفاسه ماسحاً بيده دموعه التي لسعت عينيه ثم توجه إلى بيت مكون من طابقين ودلف داخله مسرعاً. كان يعرف طريقه جيداً، هبط إلى القبو وتوقف في منتصفه. أزاح بساطاً جليدياً من على أرضيته لتظهر تحته حلقة معدنية أمسك بها بقوة وجذبها فتحرّك لوح خشبيّ عريض كاشفاً عن فجوة بها درَج يقود إلى أسفل. ألقى بجسده داخل الفجوة وأعاد اللوح إلى مكانه وهبط بوثبات سريعة متلهّفة ليجد نفسه أمام باب معدنيّ، فأخرج من بين طيّات ثيابه مفتاحاً دسّه في فوّه الباب وأداره دورتين فانزاح الباب أمامه. دخل بأقدام وَجَلّة مُرتعشة ليجد نفسه في حجرة فسيحة الأرجاء خافتة الإضاءة، فقط بضعة مصابيح زيتية متناثرة معظمها غير مُضاء. جدران الحجرة بالكامل اكتست برُفوف خشبية حملت أعداداً

هائلة من الكتب والمجلدات الضخمة، التي تبعثت في كل مكان واختلَّ نظامها، وصارت على أرضية الحجرة أكوام من الكتب الممزقة. المكان كان يموج بالفوضى وكأن أحدهم عبث به بعنف. اشتَم الشاب رائحة دخان فالتفت إلى يساره مُلقياً ببصره عند نهاية الحجرة حيث قَبَعَ عجوز على كُرْسِيَّه أمام موقد نار وهو يمسك بمجموعة من الأوراق شرع يُمزِّقها بحسرة ثم يُلقِي بها داخل الموقد الحديديّ لتأتي عليها النيران في لحظات. كان مُولِّياً ظهره للشاب الذي اقترب منه وهو يلهث. توقف خلفه ملتقطاً أنفاسه ثم صاح بصوت بائس مُتهدِّج:

- لقد سقطت المدينة يا سيدي، الأتراك يندفعون كالموج الجامح.

صمت هُنيئَةً وأخذ يهزُّ رأسه وهو مُغمض العينين كأنه يسترجع مشهداً ما وقال بذهول:

- يستخدمون مدافع صغيرة الحجم تجرُّها الدوابُّ أو الجنود، اندفعوا بها في ساحة القتال موجهين نيرانها في كل مكان، لم أرَ في حياتي شيئاً مثل هذا، كتائب جنودنا تطايرت تحت قصفهم العنيف.

أغمض عينيه وراح يهزُّ رأسه بعنفٍ لثوانٍ قبل أن يستطرد:

- يا إلهي، مشهد عصيٍّ على النسيان، مدافع الترك تهزُّ أركان المدينة هزّاً.

- ومعها اهتزَّ عرش الإيمان في قلوب الكثيرين.

قالها العجوز بصوت حزين مختنق، وعاد ليلوذ بصمته قليلاً ثم أردف متسائلاً:

- هل من أخبار عن الإمبراطور؟

هزَّ الشاب رأسه بحيرة:

- آخر ما علمته أنه ارتدى زيَّ القتال وهبط إلى ساحة المعركة، بعدها لم يره أحد ولا نعرف مصيره.

تأوَّه العجوز بحزن بالغ ثم قال بانكسار:

- إذن، المدينة المقدسة سقطت وذهبت من بين أيدينا إلى الأبد.

ضربت الكلمات عقل الشاب وقلبه فشعر بغصة هائلة في حلقه وانهمرت دموعه بغزارة وقال ونحيبه يتحول إلى نشيج مُتهدِّج:

- أبعد كل ما فعلناه يخيب مسعانا، ويصير جهدنا بلا طائل؟ هذا من نكد الدهر وقسوته.

استدار إليه العجوز بوجه شاحب حزين، وكأن أحزان الزمان استطابت البقاء في تجاعيد وعضون وجهه فاستوطنتها منذ سنين وبصوت يفيض مرارة وبؤساً طفق يقول:

- ليت الأمر يتوقف عند ذلك، القسطنطينية هي البداية، هذا السيل الهائج لن يتوقف حتى يحتاج أوروبا بأكملها.

هَوَّت الكلمات كالصاعقة على رأس الشاب فتساءل بوجوم وهو يقترب من العجوز:

- وما العمل حيال ذلك يا سيدي؟

- حضارتنا هُرمَت وذُبلت، وهي تواجه الآن حضارة فتية في عز عنفوانها وأوج قوتها، حضارة جامحة لا تردُّها لُجُم.

أطرق برأسه قليلاً واستطرد:

- المعركة القادمة لن تكون ساحات القتال فحسب، هناك ميادين أهم يجب أن نخوضها لنبقى.

- ما الذي تقصده يا سيدي؟

تساءل الشاب بفضول وهو ينحني جالسًا على ركبتيه أمام العجوز الذي أجاب بلهجة غامضة وهو يُملس على ذقنه المدببة:

- لا تشغل بالك بهذا الآن يا أرمانوس، هناك ما هو أهم حاليًا.

أصغى أرمانوس باهتمام بينما راح العجوز يتفحص لفافات ورقية بجواره وهو يقول بصوت خفيض:

- عزاؤنا أن الأخوية في إسبانيا تحرز انتصارات عظيمة وتنتزع كل يوم أرضًا جديدة من العرب.

اكتسبت لهجته نوعًا من الغموض وأردف بحزم بالغ وهو يشير إلى اللفافات:

- هذه الأوراق يجب أن تصل إلى الأخوية في إسبانيا، ستساعدكم كثيرًا في فك شفرة الخريطة، رجالنا هنا بذلوا جهدًا مضيئًا في دراسة النسخة التي أرسلتها لنا الأخوية، واقتربنا كثيرًا من فك طلاسمها ورموزها.

- ما النفع الذي سيعود علينا من تلك الخريطة؟ وما السرُّ الذي يكمن خلفها؟

هزَّ العجوز كتفيه بحيرة:

- هذا ما نحن بصدد معرفته. الشيء الذي يكمن خلف الخريطة أيًا كان فهو شيء ذو قيمة عالية وربما يُقلب الأمور لصالحنا خلال هذا الصراع.

قطعت حديثهما جلبة هائلة وضجيج هادر يأتي من أعلى فأشار العجوز بسبابته فهرول أرمانوس إلى أعلى مستطعاً الأمر. غاب بضع دقائق قبل أن يعود بوجه شاحب مُتَمَقِع وهو يقول:

- إنه موكب السلطان التركي يتوجه إلى كنيسة آيا صوفيا.

شعر العجوز برجفة هائلة تحتاج كيانه، أحسَّ كما لو أن عُصارة الحياة قد جفَّت فجأة في جسده، فارتعش لسانه وعجز عن النطق لبعض الوقت. وضع يده على رأسه وأحناها وراح يتأوّه متمتماً بكلمات لم يتبينها أرمانوس. بعد قليل رفع العجوز رأسه وعينه محمّرتان كالجمر، ودموعه تندفع كشلال بين أخاديد وجهه المُتَغَضَّن. تأمل وجه الشاب الذاهل وقال بحسرة:

- لم يعد لوجودنا هنا فائدة، لقد ذهب كل شيء، يجب أن تغادر عند الفجر، خذ الأوراق وتوجه بها إلى إسبانيا، هذا أملنا الأخير يا فتى:

قالها العجوز وراح يقلب بضعة كتب بجواره التقط منها كتاباً ضخماً وضعه أمامه فاشترأب الفتى بعنقه مدققاً النظر في عنوان الكتاب وهو يقرأه بصوت مرتفع:

- نفائس الأصول في شرح المحصول؟ ما الذي يعنيه هذا يا سيدي؟

تنهَّد العجوز قبل أن يقول:

- إنه كتاب عربي، انتهيت منذ أيام من ترجمته إلى اللاتينية

- في أي العلوم هو؟

- الفقه الإسلامي.

جحظت عين الشاب وهو يتساءل بذهول:

- ماذا؟ ولأَيِّ سبب ترجمته يا سيدي؟

أخذ العجوز نفساً عميقاً ورَبَّتْ على كتف الشاب برفق وهو يقول:

- أصغِ إليَّ جيِّداً يا بني، وانتبه لما سألقيه عليك.

اتسعت عينا الشاب وتحفَّز عقله والعجوز يتبع:

- هذا الكتاب لفقير مصريٍّ يُدعى شهاب الدين القرافيُّ. الرجل كان واسع العلم كثير الاطلاع، تعدَّت معرفته علوم اللغة والدين إلى علوم الهندسة والحِيل، والآلات، وكان مهندساً عظيماً له في هذا الشأن باع كبير، وارتقى درجاً عظيماً، وقد أورد في كتابه هذا الأعاجيب.

قالها العجوز وراح يقلب صفحات الكتاب حتى توقف عند إحداها. أشار بسبابته وهو يقول:

- اسمع تلك الأعجوبة التي سيرتجف جسدك من شدة عظمتها، والقرافيُّ يروي عن شمعدان صُنع للملك الكامل الأيوبيُّ، كلما مضت من الليل ساعة انفتح باب منه، وخرج منه شخص يقف في خدمة السلطان، فإذا انقضت عشر ساعات صعد شخص لأعلى الشمعدان وقال: صَبَّحَ اللهُ السلطان بالسعادة، فيعلم أن الفجر قد طلع.

- تمثال يتحرك ويتحدث، محال يا سيدي!!

ابتسم العجوز بحسرة وهو يقول:

- لم تسمع الأعجب بعد، فالقرافيُّ نفسه صنع شيئاً أعجب من ذلك، فقد عمل مثل هذا الشمعدان لكنه زاد فيه أن الشمعة يتغير لونها في كل ساعة، وفيه أسد تتغير عيناه من السواد الشديد إلى البياض الشديد، ثم إلى الحمرة

الشديدة في كل ساعة لهما لون، فيعرف التنبيه في كل ساعة، وتسقط حصاتان من طائرين، ويدخل شخص، ويخرج شخص غيره، ويُغلق باب ويُفتح باب، وإذا طلع الفجر طلع شخص أعلى الشمعدان وإصبعه في أذنه يشير إلى الأذن، غير أن القرافي يقول إنه عجز في شمعدانه هذا عن صنعة الكلام التي في شمعدان السلطان الكامل.

صمت لثوانٍ مرَّ فيها ببصره على بضعة أسطر محرَّكاً سبابته عليها وقال:
- لم يكتفِ القرافيُّ بصناعة الشمعدان، بل أيضاً صنع حيوانات تمشي وتلتفت يميناً وشمالاً وتُصفر ولا تتكلم.
ارتعشت شفتا الشاب ونطق بالكاد:

- ما هذا يا سيدي؟ هذا شيء لا يُصدقه عقل، إما أنه محض خيال جامع أو محض سحر.

- بل إنه محض علم سبقنا إليه هؤلاء، علم يجب أن نفتنيه ونحوزه مهما كان الثمن، المستقبل سيكون لمن يملك تلك المعرفة.

- عقلي يعجز عن الاستيعاب، تمثال حديديُّ يتكلم ويُصدر صوتاً؟؟!
كيف؟

أجابه العجوز بحماسة:

- أجاب القرافيُّ على ذلك، انظر كيف يفسر سرَّ الكلام الخارج من التمثال.

قلَّب العجوز عدة صفحات إلى الخلف وتوقف عند إحداها وطفق يقول:

- يقول القرافيُّ عن تمثال سمعه يتكلم، وسرُّ ذلك أن الكلام أصله الريح، الذي هو النفس، فإذا ضغطه الإنسان حدث الصوت من غير حرف، فإن قطع ذلك الصوت في مقطع مخصوص حدث الحرف المناسب لذلك المقطع، فصار الصوت عارضاً للنفس، والحرف عارضاً للصوت، لكن يُشترط في المجرى ملوسة خاصة وصقال خاص، فإن تغير بطل الكلام، ألا ترى أن الإنسان إذ خشن حلقه بكثرة الصياح انقطع كلامه، أو بكثرة الرطوبة كما في النزلات الباردة انقطع كلامه أيضاً، فمن استطاع أن يصنع مجرى على هذه الصورة تأتي له أن يتحيَّل على هذا الكلام من الجهاد، فعامل هذا التمثال صنع هذا المجرى، وسلَّط عليه الريح من مكان ينزل منه، ويخرج من رأس هذا التمثال، وإذا سدَّ الثُّقب انبعث الهواء في ذلك المجرى المصنوع، فإذا فتح الثُّقب شرع الهواء يخرج من ذلك المجرى، ويتقطع في مقاطع وضعت فيه، فتحدث حروف في تلك المقاطع، فوضع في ذلك التمثال مقاطع حروف تلك الكلمات فقط.

- يا إلهي، لم أسمع من قبل عن شيء مثل هذا.

- هذه تُسمَّى علوم الحِيل والآلات، برع فيها هؤلاء بشدة، حتى جعلوا الجهاد يتكلم ويتحرك، ونحن ما زلنا نُبدي دهشتنا من مدافع الأتراك الصغيرة.

- عجيب أمر هؤلاء، لا يفتؤون يثيرون دهشتي ويجمحون بفكري بعيداً.

التقت أعينهما في صمت ثقيل قبل أن يتنهد العجوز قائلاً بمرارة:

- بمجرد أن خرج هؤلاء من صحرائهم ممتزجين بدينهم الجديد، حتى ارتقوا سلم الحضارة بأسرع ما يكون، وقفزوا درجاته بصورة مذهلة

مدهشة، أمة من لا شيء تصير في غضون عقود سيد العالم، لا بالقوة فقط، بل أيضاً بالعلم والحضارة، أمر كهذا جدير بنا أن نظل عقود ندرسه ونُمعن فيه الفكر لندرك كيف تمكن هؤلاء من هذا الارتقاء المذهل، إن كان ما قصصته عليك من لحظات فحوى كتاب واحد وصنيع رجل دين، فما بالك بغيره ممن قضى عمره في دراسة الهندسة والآلات، ماذا عساه يصنع؟!

وجم الشاب ولم يرد، على حين طفق العجوز يهز رأسه وهو يُمعن النظر في اللهب المتراقص أمامه لبعض الوقت ثم عاود حديثه:

- الأخوية منذ قرون دأبت على جمع كتب هؤلاء والتنقيب فيها، لكن هذا الكتاب لم يعثروا عليه من قبل، لذا قمت بترجمته لتحمله معك إلى إسبانيا، ليبدؤوا هناك دراسته والبحث عن أشباهه، تخيل أن كل تلك العلوم والنفائس في كتاب فقه، فما بالك بالعلوم الأخرى؟

ابتلع الشاب ريقه وتساءل متخوفاً:

- هل الطريق سيكون آمناً؟

- لا تقلق، رجالنا سيؤمنون خروجك، أيضاً الأتراك لن يُيالوا بالخارجين من المدينة.

- وأنت يا سيدي؟

تساءل الشاب بقلق بينما راح العجوز يُحملك في النيران المتأججة أمامه قبل أن يمدّها بالورق مجدداً ويقول بحزن يعتصر قلبه:

- الأوقات اليائسة تستوجب إجراءات يائسة، يجب أن أتخلص من كل تلك الوثائق والأوراق، لو سقطت في أيدي الأتراك ستكون كارثة.

أطرق قليلاً ثم أردف:

- أيضاً سأرتب هنا أمور الأخوية لتتلاءم مع الوضع الجديد، وبعد ذلك سألحق بك.

قالها العجوز وعيناه تُحدّقان في صفحة بيضاء راحت ترتسم فيها سطور من الصمت دبّجها الخوف والرغبة في القلوب فلم يجرؤ أحدهم على محوها. صمت هائل ثقیل جثم على القلوب والأرواح، صمت له رائحة غريبة، رائحة الهزيمة والانكسار.

* * *

الفصل التاسع

أخذ يلتقط أنفاسه بصعوبة شديدة وصدره يهدر كساقية مياه قديمة وهو يركض خلال درب ضيق متعرج، كلما توغل فيه ضاق أكثر، حتى قاربت جدراناه تلامس كتفيه. كانت الرؤية غائمة متعثرة. الضباب هبط بكثافة واخترق أنف خميس وفمه، تسلل إلى داخل جسده فارتجف واقشعر بدنه. لفه الضباب تمامًا وأحاط به وأخذ يعصره عصرًا. شعر بعظامه تنسحق وبأنفاسه تكاد تخمد. بالكاد حرّك قدميه واندفع للأمام فعبّر الدرب. وجد نفسه مُلقًيًا على أرض رملية باردة وهو يلهث بشدة. صمت تام بلا سكونة راح يحوطه، غشته ظلمة فلم يُبصر شيئًا. شعر ببرودة قارسة فارتعش جسده واصطكت أسنانه. وبغته وجد نفسه يندفع على الرمال بسرعة. كان معصمه الأيمن مشدودًا إلى أشطان شداد راحت تجره جُرًّا. ألمته وأدمته، وعبثًا حاول التخلص منها. مر بجواره كائن ما يزحف ويتلوّى بعنف حتى تجاوزه. حرّك يسراه بذعر محاولاً التثبيت بأي شيء، لكن يده لم تقبض سوى على الرمال. ارتطمت رأسه بصخرة فانفجرت الدماء الساخنة بغزارة. أفاق نوعًا ما وبدأت غيوم وعيه تنقش بفعل الألم الذي أجبره على الصراخ. رفع رأسه عاليًا فتجلّى الهلع في عينيه. كان على شفا جرف هائل يوشك أن يتردّى فيه، واصل الحبل جرّه بعنف، لكنه قاوم بشدة وتراجع للخلف متمسكًا بالصخرة. فجأة شقّ السكون صرخة هلع عاتية فانخلع قلبه وشهق بعنف وارتياح. ألقى بصره ناحية الجرف، كانت هيام معلقة في طرف الحبل

وهي تتدلى ببطء إلى أسفل حيث قبعَت حية رقطاع ضخمة تترقبها بلهفة وعيناها تومضان بوحشية وشراسة. ارتاع وهلع وأخذ يسحب هيام محاولاً إخراجها، لكن قواه كانت خائرة منهكة. تهالك على ركبتيه وراح ينتحب وهو يجرُّ الحبل بوهن. شعر بالحبل يزداد ثقلاً فيما أخذت هيام تقترب أكثر من الحيَّة الرابضة. تلفَّت حوله بذعر بالغ، دقق النظر فترأى له نور من بعيد، صرخ به مستنجداً، ملوَّحاً بيده، لكنه شعر بصوت يهمس بداخل رأسه (احذر. كم من شيطان بدا في مسلاخ ناسك) لم يعبأ ولم يأبه، خوفه على هيام حثَّه على مواصلة النداء وطلب النجدة. اقترب النور ودنا منه. استبشر وتعلق بصره به. لكن خاب أمله. لم يكن نوراً، كانت ظلمة تسعى، شيطان وارد، هائج وغازب. صرخ بصوت خفيف (دع القربان). احتضن خميس الحبل بقوة. نفث الشيطان ناراً من فمه لفحت يديَّ خميس. انحنى إلى الأمام محتضناً الحبل بقوة أكثر حتى لا يُفلته. دنا منه الشيطان وأخرج منجله. همَّ بضربه على رأسه، لكن بغتة ظهر نور مُبهر بجوار خميس، راح يرمق الشيطان بغضب فتراجع الأخير مذعوراً والشيخ خضر يهتف بصوت مجلجل بدا كهزيم رعد غاضب (دحوراً ولهم عذاب واصب) وألقى بحجر شجَّ رأس الشيطان. طفق خميس يسحب هيام ببطء وذراعيه يكادان ينخلعان من شدة الألم. أبرقت السماء وأرعدت والشيخ خضر يصيح (وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) وألقى بحجره الثاني فضرب صدر الشيطان فتراجع إلى الخلف وصرخ بهلع بالغ. وصلت هيام إلى حافة الجرف، جذبها خميس ناحيته وارتقى متهاكاً بجوارها. ألقى الشيخ خضر بحجره الثالث وصاح بقوة (ويُقدفون من كل جانب) فارتجَّ جسد الشيطان وأطلق صرخة هائلة، ليحترق جسده

بالكامل ويصير هباءً منثورًا. انحنى الشيخ خضر وتأمل خميسًا وهيام بوجه هادئ وادع. أشار بكفه ناحيتهم وقال: (وحفظًا من كل شيطان مارد). شفق خميس بعنف وانتفض جالسًا على سريره صارخًا بصوت عال: (وحفظًا من كل شيطان مارد) كررها مرتين أو ثلاث قبل أن تنهض هيامً مذعورة وهي تُشعل المصباح متسائلة بخوف:

- مالك يا خميس؟

أخذ يلتقط أنفاسه بصعوبة مشيرًا إلى إناء الماء، فالتقطته من جوارها وراحت تسقيه وهي تربت على ظهره برفق. استجمع أنفاسه وعاد بظهره إلى الخلف مستندًا على جدار السرير المعدني وتأمل هيام قليلًا قبل أن يقول بخوف:

- كابوس. كابوس، أعوذ بالله.

حاولت طمأنته.

- تلايك تقلت في العشابس، خير إن شاء الله متقلقش.

لم تنجح كلماتها في طمأنته. هزَّ رأسه ولم يرد. ربت على كتفها وأراح رأسها على صدره وتنهد بعمق بالغ قبل أن يطرق مسامعه أذان الفجر. توضأ وصلى وعاد إلى مهجعه. رقد وشد اللحاف على جسده وأخذ يحرك أصابع قدميه بشكل دائب حتى شعر بالدفء يسري في أوصاله. أغمض عينيه لكن جفاه النوم وظل الكابوس يُلحُّ عليه بشدة، فأخذ يسترجع أحداثه. توقف عند كلمات الشيخ خضر وحاول فهم المراد منها لكن عقله لم يُسعفه، فراح يُغمغم بقلق:

- تقصد إيه يا شيخ خضر؟ تقصد إيه؟

لم يجد إجابة. لعبت الهواجس برأسه لبعض الوقت قبل أن تُسلمه إلى النوم مجددًا وغطيته يتعالى. لم يدرِ كم ظل نائمًا لكنه سرعان ما تملل في فراشه وصوت الطرقات على الباب تتهاوى على رأسه كالطرقة. تقلب يمناً ويسرة وصاح بضيق وبصوت لم يغادره النوم بعد:

- هيام قومي افتحي الباب.

لم تجب هيام فكرر نداءه. ازدادت حدة الطرقات. فتح عينيه بصعوبة وهو يتأمل الفراش الخالي:

- راحت فين الرزية دي على الصبح؟!

قالها وهو يغادر الفراش متكاسلاً متوجهاً ناحية الباب. فتحه ببطء شديد، كان زغلول واقفاً كالمهووس.

- أنت لسه نايم يا خم النوم، اشطف وشك وتعال معايا بسرعة.

- في إيه على الصبح يا وحل البرك؟

قالها بتأفف واضح، بينما أجابه زغلول بفرحة طاغية:

- جاتلك وظيفة يا وله.

دبت الحيوية والنشاط في جسده على الفور وانتعش عقله تماماً واتسعت عيناه عن آخرهما:

- فين يا زغلول؟

- في شركة الحديد والصلب الي برا البلد، الحاج عمران كلمهم عليك، ومن شوية قاللي خلي الواد خميس يروح يستلم النهاردة.

لم تمر نصف ساعة إلا وخميس يقف أمام شركة الحديد والصلب الموجودة على أطراف القرية. تأمله أحد الموظفين بتمعن قائلاً:

- ما فيش تعيين الأيام دي، المدير وافق عليك عشان خاطر الحاج عمران، أبسط يا عم.

انفجرت أسارير خميس وتساءل بسعادة وهو يفرك كفيه:

- واتعينت إيه بالصلاة على النبي؟

- غفير.

وقعت الكلمات على خميس كالصاعقة فتراجع للخلف وتجمّدت ملامحه وضافت عيناه واحمرّ وجهه وهو يُحْمَلَق في الموظف الذي ارتبك قائلاً بإحراج:

- معلش بكراربنا يكرمك بوظيفة أحسن، مشي نفسك شوية هنا و..

قاطعته خميس بابتسامة واسعة تكاد تبتلع وجهه، بينما السعادة تتقافز على تقاطيعه غامرة الدنيا بأسرها ثم أطلق ضحكة جذلة:

- قول والنبي هتعين غفير ويبقى معايا بندقية.

اكتسى وجه الموظف بالذهول لكنه أجاب بتلقائية:

- أيوه، بندقية مترخصة.

هتف خميس بسعادة:

- وهغفّر إيه، مخازن ولا ورش، ولا ماكينات ولا..

قاطعته الموظف بسرعة:

- هتغفّر الأرض الي وراك دي.
- أشار الرجل إلى قطعة أرض بور مترامية الأطراف تبعد عن مقر الشركة
تملؤها أكوام رمال عالية وبعض الأشجار.
- نقل خميس بصره بين الأرض والموظف وتساءل مدهوشاً:
- وهغفر فيها إيه؟ إيه الي فيها يتسرق؟
- أجابه الموظف بجدية:
- الناس بتسرق الكحل من العين يا خميس.
- تأمله خميس بانزعاج:
- كحل إيه وعين إيه، دي أرض بور يا جدع أنت.
- نفد صبر الموظف فصاح بضيق بالغ وهو يلوح بيده:
- يا جدع هو أكل وبحلقة، دي الوظيفة الوحيدة الي متوفرة دلوقتي لو
مش عجبك خلاص.
- مش عجبني إيه، جاتك رزية، أنا استلمت خلاص، قال مش عجبني
قال.

* * *

- في المساء وقف خميس أمام المرأة وهو يُعاود هندمة جلبابه وضبط وضعية
الطاقية على رأسه للمرة المائة. تأملته هيام بسعادة غامرة وهي تقف خلفه
وتنفذ على أكتافه بيديها برفق قائلة بفرحة:
- ولابس كمان جلابية العيد وحاطط ريحة، ده أنت رايح القهوة.

اعتدل في وقفته ثم استدار ناحيتها قائلاً بجدية:

- لازم من النهاردة أهتم بمظهري، أومال إيه يابت، جوزك معدش شوية في البلد، ده غفير، وده منصب لو تعلمين عظيم.

راقتة الكلمات فضحك بمرح مردفاً:

- الله على كلامك يا غفير خميس، والله نحو الأمية فرق مع الواحد يا جدعان.

أطلقت هيام زغرودة عالية فانتشى خميس وشعر بالزهو، وسرى في عروقه إكسير الرجولة وهيام تهتف:

- عيني عليك باردة يا خميس، يا أجدع غفير في البلد كلها.

أخذته النشوة والزهو بعيداً فمسح بيده على صدره:

- بكرا يا بت يا هيام الناس تحكي وتتحاكي عن بطولات جوزك أبو الأخماس، ومش بعيد أتكرم الغفير المثالي على المحافظة كلها.

- والنبي لايقة عليك

فرك كفيه قائلاً:

- إيدك بقى على جنيه صحيح سلف لحد القبض لزوم مشاريب القهوة.

- جنيه بحاله، هنبزق من أولها.

- ما هي كوباية الشاي بربع جنيه، والفيلم بربع جنيه.

- يبقى كدا نص جنيه.

- ما هو هعزم أخوكي زغلول حلاوة الشغل الجديد.

- ماشي.

ابتسمت وهي تدخل يدها في خزانة السرية وأخذت تعبث قليلاً قبل أن تُخرج من صدرها كيساً قماشياً فكَّته بعناية وأخرجت منه بضعة جنيهاً، ناولت خميس واحداً وأعادت البقية مكانها وهي تقول:

- يلا، عشان الشغل الجديد، بس متخدش على كدا.

صمت لثوانٍ ثم استدركت:

- قولي الأول صحيح أنت هتغفر إيه هناك؟

ارتبك وهو يتظاهر بإعادة وضع طاقيته على رأسه:

- إيشي أراضي على مخازن، على ماكينات، على حاجات ياما، حاجات غالية أوي ومهمة أوي يا بت.

استغربت قائلة وهي تقلب كفيها:

- إهيه أومال الواد زغلول أخويا بيقول إنك بتحرس أرض بور فاضية ليه؟

كساه الغيظ والغضب واحمرَّ وجهه وألقى بالطاقيّة من فوق رأسه أرضاً:
- ابن الجزّمة، هو قالك؟ وديني لاسفحك على قفاك يا بن بتاع السطوح.

* * *

في طريقه إلى المقهى سار بخطوات واسعة واثقة، منتشياً، فارداً جسده، رافعاً رأسه بشموخ واعتزاز بالغين، حتى كأنه لا يكاد يطأ الأرض بقدميه تيهًا وزهواً. كان يعتريه شعور غريب تذوّقه للمرة الأولى في حياته، لذة عنيفة اجتاحت جسده شعر معها أنه صار رجلاً مكتمل الرجولة، وكل

ذلك بفضل (شهادة نحو الأمية). قال العبارة الأخيرة بصوت عالٍ مبتهج وراح عقله يسترجع ذكريات مضى عليها أكثر من عشرين عامًا. لطالما شعر أن مستقبله متوقف على نيل شهادة تعليمية. لم يكن شعورًا عاديًا، بل يقينًا طاغيًا وإيمانًا راسخًا مَلَكَ عليه قلبه وعقله، مذ جَرَتْ له تلك الحادثة وهو ما زال طفلًا صغيرًا. رمدت عيناه واشتد به الألم حتى عجز عن الإبصار، جَرَّب والده وصفات شعبية وأعشابًا طبيعية زادت الطين بلةً وتفاقم السقم، فنصح أحدهم بالذهاب إلى طبيب بجوار مسجد الحسين. استدان الأب أجرة السفر وأجرة الطبيب وحمل الصغير على كتفه موليًا وجهه شطر القاهرة. وهناك قلب الطبيب كفيه حائرًا ومطَّ شفتيه ثم خطَّ وصفة دوائية ناولها للأب وهو يقول بيأس:

- حالته متأخرة جدًّا، إن برأت عيناه ستكون معجزة.

كاد الرجل أن يفقد توازنه ويهوي أرضًا. بالكاد تحامل على نفسه ودلف بصغيره إلى جامع الحسين. كان وقت الظهر، أدى الفريضة بقلب منكسر وعين حزينة دامعة، وحين فرغ حمل الصغير على كتفه وتوجَّه ناحية ضريح الحسين. التصق بسور المقام وتعلَّق به. بكى حتى جفَّت عيناه ولهَج بالدعاء حتى فترَّ لسانه، هزَّ رأسه بحزن ولوعة ونادى بقلب منفطر:

- مدد يا حسين مدد.

رددها مرارًا وتكرارًا. لم يدرِ كم ظل يبكي ويناجي لكنه انتبه على نسمة عطرة باردة تضرب المكان، وبرائحة بحر مُنعشة تُعقب الجو حوله. وجد يدًا حانية ترَبَّت على كتفه برقةً، فالتفت ليجد وجهًا مضيئًا باسماً. شيخ ستيني يرتدي عمامة خضراء ولحيته بيضاء كالثلج تمامًا كجلبابه. لم يره الصغير ظلت

عيناه مغلقتين من شدة الألم لكن الحوار ظل عالقاً في ذهنه يتردد داخل رأسه والشيخ يقول بهدوء ورزانة:

- دع الحسين في رُقاده، يشغله حالٌ غير حالك.

رد الأب المكلوم بحسرة وهو يرنو بإجلال إلى وجه الشيخ:

- ولدي يا مولانا، جسد مطروح وقلب مجروح.

- لكل داء دواء.

- عجز الطبيب واستعصى عليه الداء.

- إن استعصى عليك أمر فاستعنْ عليه ربُّ الحسين. قل مدد يا رب.

نادى الأب المرزوء بحرارة ولهفة:

- مدد يا رب.

طفق يردد لها طويلاً ودموعه تنساب بغزارة ورأسه يهتز من فرط التأثر، بينما الطمأنينة تغشى قلبه بهدوء وتُحيطه بسياج من السكينة فابتسم الشيخ قائلاً:

- أبشر يأتيك المدد.

قالها ورفع يميناه ماسحاً بها على رأس الصغير.

- شفاء لا يغادر سقماً.

قالها وتحرك خطوتين مبتعداً عنهم وعين الأب تتابعه بفضول وتبجيل. توقف الشيخ مكانه واستدار ببطء وأشار إلى خميس بسبابته قائلاً بلهجة ودودة:

- علمه. ينفعه العلم.

قالها وعاد إلى سيره فوجد الأب نفسه يندفع خلفه كالمسحور. تبع خطى الشيخ حتى صاروا في منتصف المسجد. توقف الشيخ واستدار إلى يمينه فالتفت مثله الأب فأشار الشيخ إلى حلقة ذكر منعقدة في آخر الجامع وقال بصوت عميق:

- الذكر عزاء وسلوان، بعث للقلب واصطفاء للروح، بلسم للمجروحين، وراحة للمكرويين، وملجأ وحصن للحيارى والهائمين، الحزانى تغسل قلوبهم، والعثارى تفرج كروبهم، كل من ينشد هناك بغيته يجدها.

سكت هنيئة ثم قال بلهجة أمرة وادعة:

- اذهب واذكر. مجلس طيب ورب كريم.

وجد الأب نفسه يندفع نحو الحلقة اندفاعاً. ضم صغيره إلى صدره وجلس. هطلت دموعه بغزارة، همّ بتحريك لسانه فشعر برجفة باردة تلامس قلبه برداً وسلاماً، وبصوت يتردد داخل عقله صادحاً (يا ركني الشديد). وجدها على طرف لسانه فراح يرددها بخشوع بالغ، وقلبه يتذوق للمرة الأولى لذة ما ألفها ولا تذوقها قبل ذلك قط. لذة عفيفة اجتاحت جسده فشعر بوجد وجذب لا حدود لهما. أغمض عينيه فوجد جسده يسبح في فضاء واسع رُحِب لا تحدّه حدود، وبأرواح ساكنة مطمئنة تُرفرف حوله، تسبح وتُنَاجي بلا صوت ولا حرف، بل قلوب تنبض بالعشق والخشوع والخضوع. انغمس في لذته ونشوته وراح في سكرة لا قرار لها، وحين ذاب في غمرتها نسي غمرة أحزانه وآلامه وقلبه يردد:

- يا مرادي، بل وغوثي أنت لي ركن شديد.

حين عاد الأب ليلاً وقصَّ على زوجته خبر ما جرى أقسم إن برأت عين الصغير ليلُحقنَّ بالمدرسة مهما كلفه الأمر. بعد أيام برئ خميس واستعد الأب ليبرِّ بقسمه، لكن القدر لم يُمهله واسترد الله وديعته وتيمَّم الصغير وأنى له بتكاليف الحياة فضلاً عن تكاليف التعليم. فشبَّ وكبر لا يقرأ ولا يكتب، ولطالما أحنقه الأمر وأغضبه. لكن أكثر ما أثار حفيظته حين اكتشف ولعه بمشاهدة الأفلام الأجنبية، كان يُضايقه كثيراً عدم معرفته بسير الأحداث وجبكتها فيظل يسأل من بجواره في المقهى عن قصة الفيلم أو يطلب من أحدهم قراءة الترجمة. اتخذ البعض سخريةً وهمزوا ولمزوا حينها قرر أن يلتحق بصفوف محو الأمية ليتعلم القراءة والكتابة وينال الشهادة المنتظرة، وقد كان.

على المقهى لاقى خميس سيلاً من التهاني والتبريكات على الوظيفة الجديدة. كان في حالة طاغية من السعادة وتعاضم الذات، وهو يلوح بيده هنا وهناك ردًّا على المهنئين الذي لم يخلُ تعليق بعضهم من سخرية وتهكم، لكنه لم يبال بذلك، الشعور بالقيمة والزهو بداخله جعلاه يخلق في عالم وأجواء حاملة. سحب كرسيًا وجلس بجوار زغلول وهو يُوكزه في كتفه بعنف هامسًا بضيق:

- أتفك معاك بكلمتين تروح تقولهم لأختك.

بدا الحرج على زغلول:

- هي قالت لك.

انفعل خميس:

- أيوه جاتك رزية، وقلت لمن تاني يا أشلح؟
 أمسك زغلول بكوب الشاي ورفعه أمام وجهه قائلاً:
 - أطفحه لو قلت لحد غير هيام، سرك في بير يا جدع.
 ارتفع صوت من آخر المقهى مُحِيًّا خميس:
 - مبروك الوظيفة يا خميس.
 همَّ بالوقوف ورد التحية لولا أن صاح صوت غاضب:
 - ما تفضوها سيرة بقى يا جدعان، ما كنتش حته أرض بور الي بيحرسها.
 احمرَّت أذناه خجلاً وهمَّ بصفع زغلول على قفاه لولا أن تمالك نفسه وهو
 يقول بحق:
- وقولت لمن تاني يا أشلح، تلاقي نص البلد عرفت يا أبو لسان زالف.
 ارتبك زغلول وتلعثم محاولاً إلهاء خميس وتغيير دفة الحوار:
 - شغل بقى الفيديو يا ض يا جمعة عايزين نشوف فيلم.
 همَّ جمعة بتشغيل الفيلم لولا أن صاح أحد الزبائن:
 - اصبر لما نشوف الحكاية دي، بيقولك واحد بتاع آثار اتقتل من عصابة.
 التفت إليه خميس بضيق وقال:
- ما هو الخبر ده بقاله يبجي شهرين ولا أكثر لما حفظناه، وبعدين إحنا
 مالنا ومال الحكاية دي، شغل الفيديو يا ض يا جمعة جاتك رزية.
 أخذ جمعة في إعداد الفيديو بينما مال خميس على زغلول هامساً بغيط:
 - المشاريب الليلة عليك يا سي زفت، عشان تلم لسانك بعد كده.

بدأ الفيلم ومعه راح المقهى في صمت عميق تحلَّه مزيج من الضحك والانبهار وهم منغمسون حتى النخاع في مشاهدة فيلم (شمس الزناتي) للمرة الأولى. الكل كان منبهراً بشخصية الزناتي بصولاته وجولاته، وصفعاته وركلاته وقبالاته. وحده خميس شعر بانجذاب وإعجاب بشخصية المارشال برعي منافس الزناتي. أصابته حالة من الانبهار، ومع كل حركة كان يتخيل نفسه مكان المارشال برعي يتحرك هنا وهناك، يصول ويجول بمهارة فائقة.

بعد انتهاء الفيلم لم يستطع منع إعجابه من الظهور صرَّح به بصوت جهوريّ:

- زناتي إيه، مفيش زي المارشال برعي، طب والنعمة الشريفة فيه كمان شبه مني

ضج المقهى بالضحك وأحدهم يمازحه قائلاً:

- يبقى أنت المارشال خميس.

ارتسمت علامات السرور والخبور على وجه خميس مرحباً باللقب الجديد ومبدئياً سعادته به طالباً من الجميع مناداته (المارشال).

قطع أحدهم حالة المرح وهو يصيح مغتاضاً بصوت حاد:

- ما خلاص بقى ياخ يا خميس أنت هتصدق نفسك غفير بحق وحقيق.

استفزت الكلمات خميساً فاندفع بعصية:

- جرى إيه يا زكريا يا فرارجي أنا غفير غصب عن عين التخين.

أشاح زكريا بوجهه:

- يا خويا اتلهي، ده أنا امبارح مأجر جوز غفر زي فلق النخل يجرسوا
مزرعة الفراخ عندي، الصبح لقيتهم مربوطين بالحبال ومسروق خمسين
قفص فراخ.

تهكّم خميس قائلاً:

- ده عشان أنت راجل قفص وجايب غفر أقفاص زيك.

راحت المقهى في نوبة ضحك عاتية إثر كلمات خميس مما استفز زكريا
فهب واقفاً بعصبية ملوحاً بيده:

- لم نفسك يا خميس وحاسب على كلامك، ولا أقولك ما تيجي توريني
شطارتك وتغفر المزرعة بالليل.

قالها الرجل بسخرية واضحة فأخذت خميس الحمية واندفع قائلاً:

- موافق، هتدفع كام؟

- عشرة جنيه ف الليلة.

- وجوز فراخ.

- وجوز فراخ يا خميس بس خلي بالك لو جيت الصبح لقيتك مربوط
زي اللي قابلك مش هفكك، هسيبك كده وأخلي عيال البلد كلها يزفوك على
حمار وأنت مربوط.

انتفض خميس واقفاً:

- اتفقنا يا زكريا يا فرارجي.

التفت ناحية زغلول بحزم:

- قوم بينا يلا يا أشلح.

امتُّقع وجه زغلول:

- اعقل يا خميس، بلاش.

- قوم فز بقولك، كبرت في دماغي.

في الطريق إلى المزرعة أخذ زغلول يتلفت حوله في هلع والظلام الكثيف
يبتلعهم رويداً رويداً وصوت حشرات الليل اختلط مع عواء الذئاب ونباح
الكلاب وصار في الخلفية سيمفونية رعب تُعزف باقتدار. ارتجف زغلول
وارتعش لسانه وهو يُهرول خلف خميس:

- المزرعة في حطة مقطوعة في آخر البلد، لو حصل لنا هناك حاجة محدش
هيسمع بنا، الله يخرب بيت دماغك أنا عارف إن آخرتي على إيدك.

عدل خميس البندقية على كتفه محاولاً طمأنة زغلول:

- اجهد يا أهطل أنت معاك المارشال خميس.

توقف زغلول متأملاً خميساً بغیظ ثم صاح بكمد:

- طب عليا الطلاق أنا ما خايف إلا عشان أنت معايا يا خميس.

* * *

مرت عليهما ساعتان منذ أن وصلا إلى المزرعة، جلسا أمامها وزغلول
يعاود وضع براد الشاي على الحطب المشتعل بينما خميس يقول في ثقة:

- أهو بقالنا ساعتين ولا فيه حد قرب منا.

- ربنا يسترها، لسه الليل طويل.

شعر بالجوع فأردف قائلاً:

- مش كنا جينا معانا حاجة نتعشى بها.

- دي حاجة سهلة أوي قوم خد خمس بيضات واطلع بهم على هيام
أختك تعمل قرص عجة وهات معاك رغيفين وحته جبنة مش.

- وأنت هتقعد لو حدك؟

تساءل زغلول مندهشاً.

- يعنى هخاف من إيه؟

راقت الفكرة لزغلول وعدّها فرصة سانحة للابتعاد عن الخطر ولو لبعض الوقت. بمجرد ذهابه وخلوّ المكان انتصب خميس واقفاً محدّقاً في الظلام بشرود. منذ صغره اعتاد الخروج ليلاً لقضاء حاجيات البيت أو للتسكع، ومع مرور الزمن نشأت ألفة بينه وبين الليل فلم تعد الدُّجّة تحمل له أي خوف، بل على العكس صار يكتنفه شعور بالراحة والطمأنينة كلما خلا إلى نفسه ليلاً متأملاً صفحة السماء بنجومها الزاهرة. لا شيء يستدعي الخيال ويشحذه مثل الليل، حين يهبط بظلمته على الأرض لينشر سلطانه ويُعلن مملكته. مملكة من السحر والغموض خيال مستفز لأقصاه، مشاعر وأفكار تهدر كألف شلال هائج يثير العقل ويجفزه، وبينما تظلم الأرض تضيء عقول البعض وتتوهج قلوبهم سابحين في جو من الوحدة والتأمل. في تلك اللحظة اجتاحتها موجة من النشوة العاتية سرت في دمائه وغلّفت كيانه بالكامل. حدّث نفسه قائلاً:

- يا سلام يا ولاد، حلّو أوي اسم المارشال خميس ده، حاجة آخر هيبه
وقيامة.

أخذَه الحماس فراح يتحرك مقلداً حركات المارشال برعي مطلقاً صيحات قتالية وهو يتجول وسط الأشجار التي تحيط بالمزرعة. تخيل أمامه أعداء وهميين التحم معهم في معركة حامية الوطيس، أخذ يتقافز بين الأشجار، تارة يختبئ خلف واحدة وتارة يُلقى بنفسه أرضاً متدحرجاً ثم يهبّ واقفاً متظاهراً بإطلاق النار، انهمك في أدائه التمثيلي ولم يلمح السيارة نصف النقل التي أطفأت أنوارها بالقرب من المزرعة وترجّل منها ثلاثة رجال توجّهوا في خِفةٍ ناحيتها. تناهت إلى مسامعهم صيحات خميس فاخترّبوا خلف إحدى الأشجار مدققين النظر في الظلام فأشار أحدهم ناحية خميس الذي تبينوا ملاحه بالكاد على ضوء النار المشتعلة.

- ده شكله الغفير الجديد.

- شكله هزء خالص، جوز أقلام ويرقد على البيض مع الفراخ جوا، بينا يا رجالة.

هموا بالتحرك مجدداً لولا أن واصل خميس تقمص دور المارشال برعي موجهاً بندقيته في اتجاهات مختلفة كأنه يبحث عن عدو ما حتى استقرت فوهة البندقية صوب الجهة التي يختبئ فيها الرجال وخميس يصيح بحدّة:

- شايفك منك له، جاين مستخبيين في الضلّة مفكرين المارشال خميس مش شايفكم، حركة واحدة منكم وهفرتك راسكم بالرصاص.

تسمّر الثلاثة في مكانهم متبادلين نظرات قلق وأحدهم يمس في ارتياب:

- ضلّة إيه اللى بيشف فيها دي؟ هو فعلا شايفنا؟

رد عليه آخر:

- ده شكله مجنون بيكلم نفسه.
- هُمُّوا بالمضيِّ قُدماً لولا أن تقدم خميس باتجاههم بخطوات ثابتة واثقة مواصلاً تصويب البندقية وصاح بصوت عالٍ حاسم:
- ده آخر إنذار يا زناقي، سلِّمْ نفسك وإلا هفرتك دماغك.
- التفت الثلاثة إلى بعضهم بعضاً في ذهول وأحدهم يهمس برعب:
- عرف اسمي مين؟
- توقف خميس فجأة وراح في نوبة ضحك محدثاً نفسه بصوت خفيض:
- أما حته مشهد، لو كان في الفيلم كان كسر الدنيا.
- استدار عائداً إلى موضعه قرب كومة الحطب المشتعلة بينما التقط الثلاثة أنفاسهم بصعوبة وأحدهم يقول وهو يُجفِّف عرقه:
- مش بقولكم مجنون.
- لم يُتَمَّ الرجل كلمته إذ تعثرت قدم خميس إثر ارتطامها بحجر ففقد توازنه وخرَّ على وجهه بينما انطلقت رصاصة من البندقية عن طريق الخطأ لتمرق فوق رؤوس الرجال مباشرة لينظر حوا أرضاً مطلقين صرخات رعب عالية:
- الأمان يا مارشال خميس.



في اليوم التالي لم يعد للقرية من حديث غير الثلاثة المسجلين خطر الذين استطاع المارشال خميس إلقاء القبض عليهم، عبارات المدح والثناء كانت تلاحقه أينما حلَّ ونزل. حين يمر في مكان ما تنهال عليه دعوات لشرب الشاي والجلوس ورواية ما حدث ولم يكن المارشال يرفض أي دعوة ظل

يتنقل من مكان لآخر راوياً ما حدث مضيفاً بهاراته وقفشاته الخاصة التي أثارت إعجاب البعض وسخط الآخرين.

كان أكثر الساخطين والناقمين الشيخ فوزي الذي لم ينسَ ما فعله معه خميس بعد الانتخابات فطفق يردد:

- ولد أفاق وضلالي، ضربة حظ وجات معاه، بطولة إيه وكلام فاضي إيه، فيه عاقل يصدق الكلام ده.

صار بينه وبين خميس ثأر شخصيٍّ لدرجة أنه خصص إحدى خطب الجمعة للنيل من خميس والتشنيع عليه واتهامه بادعاء البطولة. لكن الغريب أن خميساً لم يشغل نفسه حتى بالرد ففي قرارة نفسه صار بطلاً، ولا يهمه ما يردده الآخرون.

بعد عدة أيام كان في انتظار المارشال مفاجأة لم تكن أبداً في الحسبان ولم تخطر له حتى على بال.

جلس خميس عاري البدن داخل الطشت الصغير في صحن الدار عاقداً ساعديه على صدره وهو يرتعش:

- يابت هنشف من السقعة بسرعة.

ضحكت هيام بدلال وهي تجلس بالقرب منه أمام وابور الجاز الذي تعالى هديره وهي ترمق إناء الماء الذي راح يغلي، أمسكت بخرقه وحملت الإناء وهرولت ناحيته قائلة له:

- جاية أهوه اجمد شوية.

سكبت الماء الساخن داخل إناء معدنيٍّ أكثر سعة ثم راحت تضيف إليه الماء البارد مستخدمة الكوز الحديديّ. جسّت الماء بيدها وقالت:

- كدا الميه بقيت دافية.
- رفعت كوز الماء وسكبته على رأس خميس فراح يصيح:
- سخنة أوي زوديهاميه ساقعة.
- ضحكت وصارت تضيف الماء البارد على الإناء ثم أمسكت بليفة
وصابونة وراحت تغسل ظهره بخنكة ومهارة. تساقط الصابون على عينه
فصاح محتدًا كالأطفال ضاربًا الطشت بيديه:
- عيني بتحرقني من الصابون يا بت.
- وكزته في كتفه برفق ودلال:
- لسه برضه عامل زي العيال الصغيرة.
- ضحك قائلاً:
- الصابون مش عارف إني كبرت.
- احتضنته من الخلف بهيام وقالت بميوعة:
- أول قبض لك هجيبلك منه إزازه شامبو، أحميك بيها بدل الصابون.
- نهرها بحدة:
- اتخبلي يا بت، شامبو إيه، ده بتاع النسوان.
- ضحكت بمرح وقبلته من وجنته وهي تقول:
- وفيه منه برضه للرجالة.
- قال باستغراب وهو يهرش في رأسه:
- شامبو للرجالة؟؟!!

عادت إلى سكب الماء وهي تقول بثقة:

- أيوه. شفت إعلانه في التلفزيون من كام يوم.

ضحك بسذاجة وقال:

- وماله، نجريه، الأشياء بقيت معدن وعال العال، وفيه ماهية ٣٠٠ جنيه

كل شهر يعني فيه كل أسبوع زفر.

تضحكا وهي تكمل غسل بدنه ثم سحبت فوطة كبيرة وراحت تنشف الماء عنه. قبلته من عنقه قبلة طويلة فسرت في جسمه الحرارة قبل أن تقول:

- كمّل لبس أنت بقى على ما أشوف حلة المحشي على الكانون زمانه داب.

داعبها قائلاً:

- أنا اللي دبت يا هيام قلبي.

ضحكت وغادرته سريعاً إلى الكانون الذي أوشكت ناره على الانطفاء فيما صار لون الحلة أسود قائماً من كثرة الدخان. كشفت الغطاء فخرج بخار المحشي برائحته الفوّاحة الزكية فلعب بعقلها، تناولت إصبغاً وقضمت منه قضمه فوجدته ناضجاً. أمسكت بخرقه بالية رفعت بها الحلة عن الكانون ثم حملت من جوارها فرخة محمرة وضعتها فوق المحشي الساخن وحملت الحلة إلى سطح الدار.

أنهيا عشاءهما فلملمت هيام بقايا الطعام وغادرت لبضع دقائق قبل أن تعود حاملة صينية الشاي. وضعتها جانباً وجلست بجوار خميس فأراح رأسه على صدرها وتنهّد بعمق بالغ. انساب ضوء القمر على وجنتيها فلمعا

ببريق فتان أجرى الشبق في عروقه. أخذت تداعب شعره بأناملها، كان يروقه الأمر كثيراً، استسلم لها وأغمض عينيه وتركها تُهدده كطفل صغير، تغني وتحكي، تأخذه إلى روضتها الخاصة لينهل من رحيقها ويثيره نشوانها. فتح عينيه ببطء فالتقت بعينيها؛ فابتسما. لطالما حدث نفسه حين يبصر عينها؛ سبحان من وهبك تلك العيون تُسكر بلا خمر وتَسحر بلا نفث، تُذيه في نشوة حب لا يملك منها فكاكاً. افترَّ ثغرها عن لؤلؤ منضود مكتمل متسق، وابتسامة ساحرة خلافة؛ هزَّت أركانها وزلزلت كيانه؛ فشعر بالأرض تميد من تحته، ووجد نفسه يلهث وعيناه معلقتان بشفتيها المكتنزتان. لعينها سلطة ولشفتيها سطوة. هتفت كل ذرة في جسده؛ ظمآن يا هيام، ظمآن ولا يرويني سوى كأسك؛ حين تدعوه لا يسعه سوى أن يُلبي، فليس للرفض إمكان، من يرفض سروراً ليس معه عثار، وسكراً ليس معه خمار؟. لبي النداء تلو النداء وحين فرغ انثيا يتجاذبان أطراف الحديث.

اقتربت هيام والتصقت به وتساءلت بانبهار بالغ:

- يعني أنت بتعرف تضرب نار بالبندقية يا خميس؟

اختلس قبلة سريعة وراح يقول بحرارة:

- أومال إيه يا بت جوزك نشنجي درجة أولى.

قالها بكذب واضح، لكن هيام صدقته تماماً وانسأقت وراءه وهو يمسك البندقية محاولاً شرح طريقة استخدامها:

- إيدك تبقى هنا، تشدي بتاعت الأمان كده، مش فاكرا اسمها دلوقتي، وتضربي من هنا من عند الزناد.

أنهى كلامه بقبلة أخرى فسرت الحرارة في جسد هيام والتقطت البندقية ملوَّحة بها بسعادة ويدها تُلامس الزناد. ارتعب خميس فصاح بتوجُّس:

- حاسبي يا بت يا هيام، حاسبي.

أطلقت ضحكة عالية مواصلة التلويح بالبندقية التي مالت إلى أسفل بحدَّة:

- ما تخافش، ده أنا مرات المارشال.

لم تتم كلمتها حتى انطلقت رصاصة من البندقية مُحدثة دويًا هائلًا بينما علت صرخة أحدهم بالخارج لتشقَّ سكون الليل.

جحظت عينا خميس وصاح بفزع وهو يضرب على رأسه:

- يخرب بيتك يا هيام، قتلتي الراجل، روحنا في داهية يا رزية.

لم تحتمل هيام الصدمة دارت عيناها في محجريا وأطلقت صرخة هائلة:

- يالهووي.

سقطت مغشيًا عليها بينما انقلب الليل نهارًا وفتحت البيوت أبوابها وهبَّ الجميع لاستطلاع ما حدث. دقائق قليلة وتجمع العشرات أمام باب دار خميس الذى خرج ملوَّحًا بالبندقية هاتفًا بانهباء تام وجسده يرتعش:

- أنا هعترف، أنا اللي قتلته، هيام بريئة.

ما إن شاهده الأهالي حتى اندفعوا ناحيته وأحاطوا به هاتفين بفرح:

- تسلم إيدك يا مارشال خميس.

- تسلم إيدك يا أجدع غفير في مصر كلها.

بدا الذهول وعدم الفهم على وجهه وهو يتفحص الوجوه حوله.

بينما صاح أحد الأهالي والذي وصل لتوه:

- هو جرى إليه يا جدعان؟

اندفع أحدهم بحماس عالٍ وهو يروي ما حدث:

- دول حرامية المواشي، كانوا ساحبين بهائم الحاج درويش، قام المارشال خميس ضارب عليهم نار، الطلقة جت في رجل واحد منهم والباقي مسكناهم.

وجه حديثه إلى خميس بانبهار:

- أنت شوفتهم إزاي يا مارشال؟

لم يستوعب خميس الموقف بداية، صمت وهو ينقل بصره في الحشد المبتهج محاولاً ربط الخيوط ببعضها وتجميع الأفكار، فسأله أحدهم بفضول:

- أنت عملت إليه يا مارشال؟

أخيراً نطق مرتبكاً:

- إيوه أنا كنت فوق سطح الدار وو ولمحت ولاد الهرمة دول روحت

على طول متعامل معاهم

انطلقت الزغاريد وتعالَت الهُتافات بحياة المارشال الذي أخذ يتلفت حوله غير مصدق ما يجري. فيما أخذت أسطورة المارشال تُولد وتتنشر وتتوغل في القلوب والعقول.

الفصل العاشر

نيويورك

فتح الصحفي الأمريكي مايكل إدموند عينيه بصعوبة بالغة. كان يشعر بالإرهاك والإعياء، وكل ذرة من جسده تصرخ ألماً وفزعاً. أخذ يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة بينما الدماء تنزف من كل شبر من جسده. كان يجلس على مقعد خشبي بينما قعد مقابله ذلك الشخص حادّ القسمات الذي انهمك في تصفح بضع أوراق خاصة بإدموند.

تأوّه بتأمّل فسأله الرجل من دون أن يرفع رأسه ناحيته:

- هل عدت إلى الوعي مجدداً إدموند؟

لم يقوَ على الرد فشعر بيد غليظة من خلفه تدفعه بقوة فانتبهت حواسه كلها دفعة واحدة وراح يُحملك في الشخص أمامه برعب هائل. لوح بالأوراق في وجه إدموند قائلاً بشراسة:

- هذه المقالات التي جهزتها للنشر، أليس كذلك؟

أوماً برأسه إيجاباً:

- نعم، هي.

- كيف حصلت على هذه المعلومات؟

قبل ساعة أنكر كل شيء وحاول مراوغتهم، لكن الآن مع شدة التعذيب وروح هלוعة خائفة لم يكن ليُخفي عنهم شيئاً.

- بضع أوراق وصلّني عبر البريد من خلال صديقي البروفيسور جورج كامبل.

سأله الرجل باهتمام بالغ وهو يئني جذعه إلى الأمام:

- متى وصلك؟

استجمع أنفاسه بصعوبة وقال باضطراب:

- الطرد أرسل من قرابة ثمانية أشهر، لكن لم أتسلمه إلا منذ أسبوعين. حدث خطأ وأرسل إلى عنواني القديم، وبالصدفة كنت أتفقد المنزل فوجدته.

- أين تلك الأوراق؟

سأله الرجل بقسوة فرد باستسلام بالغ.

- في درج مكتبي العلويّ، تجدها داخل ملف أزرق.

حكَّ الرجل مقدمة أنفه وراح يتأمل إدموند لعدة ثوانٍ قبل أن يسأله بصوت جاف عميق.

- من اطلع على تلك المعلومات غيرك؟

امتلاً فم إدموند بالدماء فبصقتها ثم قال بتوجع:

- لا أحد غيري.

- وعالم الآثار المصري طارق بأي شيء أخبرك؟

- لم يخبرني بشيء، أغلق الهاتف في وجهي، حاولت التواصل معه لكنه لم يُجب على مكالماتي ثانية.

زفر الرجل بغضب:

- هل تواصلت مع آخرين في مصر؟

ردَّ بجزع بالغ:

- لا، فقط مع طارق.

اقرب الرجل أكثر وهمس بجوار أذنه:

- وماذا عن صديقتك في نيو جيرسي؟

قالها الرجل بخبث واضح فأصابته القشعريرة جسد إدموند ورفع رأسه متوسلاً:

- لورا، لا شأن لها بالأمر، أرجوك دعها وشأنها.

أكمل الرجل حديثه بنفس اللهجة:

- لكنك أخبرتها في اتصال هاتفي أنك بصدد نشر مقالة ستغير خارطة العالم، ألم تقل ذلك؟

انتحب إدموند بشدة وبدا صوته أكثر ضراعة وجزعاً:

- أقسم لك لم أخبرها بأكثر من ذلك، لورا لا تعلم شيئاً.

رَمَقَه الرجل بنظرة متفرسة قائلاً:

- تأكدنا من ذلك بأنفسنا.

صعقت الكلمات إدموند فصرخ بغضب محاولاً التحرك من مكانه، لكن جسده المحطم أعاقه، إضافة إلى الشخص خلفه الذي أمسك به بقوة ثم لوى عنقه بعنف فصدرت منها قرقرة عالية وندت منه حشرة عنيفة تلتها جحوظ عينيه وسكون جسده إلى الأبد.

حَدَّجَه الرجل بنظرة باردة.

- ستجد لورا هناك بانتظارك.

الفَصْلُ الحَادِي عَشَرَ

القاهرة - 1481م

وَهَجَّ وأَلَقَ، صَخَبٌ وعَفْوَان. القاهرة مدينة الكلمات والحكايات، أرض الأولياء والعارفين، السالكين والمريدين، حيث للقلب سطوة وللروح سلطة. مدينة لا تَهْرَم ولا تَشِيخ. موطن الأحلام وأرض الآمال وخبيثة الأسرار. منبع الصمت والهمس، الجموح والجنوح. خليط عجيب ومزيج مدهش من كل شيء. عود ومسك وزعفران، قَرْفُلٌ وَرِيحَان. قِبط وعرب وبربر، فرس ويونان، وآخرون أتوا من كل فج عميق، صبغتهم القاهرة وطلّتهم، وصهرتهم في أتون الماء والطين، فصار كل نسب قديم أبتَر، وصاروا قلبًا وعقلًا موصولين بأرض النيل. في القاهرة لا عجب أن يتلو الناس نشيدهم، بل عجب أن يختلط النشيد بالنشيج. المآقي تحتشد فيها دموع الفرح والترح، تتعاركان أيهما تسبق الأخرى. القلوب مليء بالضحكات والهمسات، بالحنين والأنين والوجع. بالفرح والسرور والحزن والكمد، بالخوف المباح والخوف حدّ الملع. في الجنبات تتردد صيحات الفرح وصرخات الفزع. في العقول يصدق الكروان ويصرخ السجّان. مدينة؛ الصياد فيها نهارًا، طريدة بالليل.

سيل من البشر راح يهدر في الطرقات مشارب متعددة ومقاصد متباينة، داعبت أولى نسيمات الصباح الباردة أرواحهم فبدا البشر في وجوههم وكنتموا الحزن في قلوبهم. كانوا كمن فرغوا من الحساب وانفضوا من أرض المحشر فراخوا يعمرّون الأرض بأجسادهم بعد أن عمروا القبور بأرواحهم. بسطاء

ومساكين خرجوا يكِدُّون يطلبون رزقهم، وقوت يومهم. رضوا بالموجود وصبروا على المفقود. إذا شبعوا كان في نظرهم عبء وإذا جاعوا قطرت من أفواههم الحكمة.

المدينة تلفظ آخر موجات النعاس وتطرد الخمول. الأيدي تتوضأ فترتعش القلوب وترفرف الأرواح. مشريات البيوت بدأت تنفتح بهدوء بعد أن أغلقت طوال الليل حافظة الأسرار والأستار. بعض النسوة أطلن منها على استحياء لاستقبال أنفاس الصباح ببيكارتها وطزاجتها التي لم تلوثها أحقاد البشر بعد. رُحْن يتأملن الطرقات التي اكتظت بالعمال الذين تدفقوا على جنبات القاهرة بأعداد غفيرة.

القاهرة في أزهى عصور العمارة والتشييد. مساجد، ومدارس، وكالات، وخانات، أسواق، وقصور، وأواوين وخوانيق. قايتباي المملوكي يُنفق ببذخ وسخاء بيد من لا يخشى الفقر. الخزائن ملاءى والأموال تنهال من كل صوب وحذب بغض النظر عن كيفية جبايتها وتحصيلها المهم أنها متوافرة. أيضاً القوة العسكرية تعاظمت حتى صارت السلطنة في عهده مصونة الحدود مرهوبة الجانب يخطب الكل ودّها ويطمع في صداقتها صارت محطّ أنظار الحالمين ومقصد الطامحين وملاذ الخائفين.

تلَفَّت خيسوس القشتاليُّ حوله بإعجاب وانبهار بالغيْن متأملاً أفواج العمال الرائحة والغادية، بدت كأسراب من النحل الدؤوب لا تكلُّ ولا تمَل. المشهد حوله كان مبهجاً رائعاً، مبانٍ وصروح ونقوش وزخارف براقة جماها أخذ ساحر مثير للألباب لا تملك إزاءه سوى أن تقف مشدوهاً مدهوشاً مقرّاً بعظمته وتفردّه.

بدأت القاهرة أمامه كعروس فتية بهيئة عظيمة جليلة ترتقب وصول فارسها من قلب ملاحم التاريخ متوجاً بأكاليل النصر. لكنه ترتقب مشوبٌ بحذر، تخشى أن يكون وهماً، حلماً يضيع ويندثر، وعوضاً عن موكب النصر يكون نحيب الجنازة.

لم تثبت عينيّ خيسوس على شيء طافت هنا وهناك رغمًا عنه متتبعاً المشهد حوله بفضول عارم. لمح السقائين يتوافدون على طرقات المدينة ساحبين خلفهم جمالاً ضخمة تحمل قرب ماء النيل. باعة الخضراوات والجبن والألبان القادمون من الأرياف بدأوا في افتراش جنبات الطرق. رجال يهرولون هنا وهناك حاملين فوق هاماتهم أقفاص الخبز الساخن. العسس والبصاصون أخلدوا إلى النوم بعد كدحهم طوال الليل في التتبع والترقب والتنصت والتلصص. أنهوا تقاريرهم وانتهى ستار عملهم ليبدأ آخرون يومهم. يد السلطان لا ترفع عن القاهرة ليل نهار، وعينه لا تغفل عن رعاياه. أخذ رجال الحسبة يظهر على حين غرة وكأن الأرض انشقت عنهم. طفقوا يتفقدون البضائع ويراجعون الأسعار. يزجرون ويأمرون وينهون. كلمتهم لا ترد ولا تُناقش. شعارهم: ما دمت دخلت أبواب القاهرة فعليك أن تؤدي الضريبة صلاة الطاعة ونافلتها الخضوع. استقر بصره على مملوك في كامل زيّه متمنطقاً سيفه، يسير بخيلاء وزهو فاجرين، وخشداشيته حفّت به من كل جانب يدفعون عن طريقه الناس بغلظة وصرامة. تأمله خيسوس لبعض الوقت قبل أن يعرج يميناً سالكاً ممراً ضيقاً تفوح منه رائحة الورق.

دَلَفَ الرجل بصحبة مساعده خوان ناحية سوق الكتبيين وتوغلا داخله وهما يُمعنان النظر في الحوانيت من حولهما. قارب خيسوس أن يتجاوز

الخمسين من عمره بشخصيته المتدثرة بالغموض وجسده الضخم مفتول العضلات وهامته التي يكسوها شعر أشقر أخفاه تحت عمامة عربية زرقاء تماماً كعباءته الفضفاضة التي راح يرُفَل فيها بخيلاء. لم يكن فقط زِيَّه عربياً، بل لسانه أيضاً، فقد قضى في غرناطة عدة سنوات تعلم فيها العربية كأهلها وانتحل صفة تاجر أندلسيٍّ تخفَّى خلفها أثناء تجواله في الحواضر العربية بحثاً عن طريدته. حتى ملاحمه القشتالية الجلية للعيان اختلق لها قصة عن زواج أبيه العربيِّ بحسناء بشكنسية خلبت قلبه ولُبَّه فجاء الابن حاملاً الدم العربيَّ والوجه العجميَّ. قصة قديمة متكررة لاكتها الأفواه ولفظتها لكنها تنطلي على الجميع بفضل لسان فصيح تقطر منه العربية بعلومها قطراً. وقف الرجلان أمام مدخل أحد الحوانيت وأخذ خيسوس نفساً عميقاً وهو يحكُّ أنفه المعقوف فيها انعقد حاجباه الكثيفان وهو يرمق الحانوت بنظرة شاردة. التفت إلى مساعده قائلاً بلهجة أمرة:

- هذا هو المتجر الذي نقصده، ابقَ هنا ريثما أعود.

أوماً الشاب النحيل برأسه باحترام وانتحى جانباً منتظراً عودة سيده الذي تقدم ناحية الحانوت بخطوات واسعة وثابتة وآماله تُسابقه فالرجل لم يعد يُطبق صبراً أصابه القنوط والإحباط سبع سنوات مضت منذ غادر إسبانيا خلف تلك المهمة التي أوكلتها له الأخوية كتاب عربيٍّ هو المفتاح لفك رموز الخريطة ويجب الحصول عليه بأي ثمن. نَقَّبَ وبحث في كل مكان مكتبات غرناطة ومراكش وصولاً إلى بغداد ودمشق والقدس حتى القسطنطينية طرق أبوابها ولم يجد ضالَّته. الكتاب كأنه تبخر تماماً، تلاشى وذاب في الهواء، ولولا ذكر وإشارات عنه في العديد من الكتب لظن أنه

محض خيال ولا وجود له. عثر على كل مصنفات المؤلف إلا هذا الكتاب لم تلقه أيدي الناس بال العناية والاهتمام ووصموا صاحبه بالسحر والشعوذة وأهملوا الكتاب فاندثر مثل الكثير من المؤلفات التي لم تجد داعماً ومروجاً لها. لكن رحلة خيسوس الأخيرة إلى دمشق كانت موفقة بشكل كبير. تاجر كتب شاميّ دلّه على صديق له في القاهرة شاهد الكتاب عنده منذ سنوات فيمّم خيسوس وجهه شطر القاهرة مؤملاً أن يخرج منها مظفراً غانماً حائزاً على طريدته التي طال عنادها. أفاق من ذكرياته وعامل المتجر يسأله باحترام:

- مرحباً كيف أخدمك أيها السيد؟

استدار خيسوس ناحيته وسأله باهتمام:

- أرغب في رؤية السيد نعمان الطاهر.

قبل أن يجيبه العامل ارتفع صوت هادئ من داخل المتجر:

- تفضّل.

جاءه الصوت من آخر المتجر حيث المكان شبه مظلم ألقى بصره فلم يتبين شيئاً تقدّم عدة خطوات حتى اعتادت عيناه الإضاءة الخافتة فأبصر رجلاً بشوشاً في الخمسينيات من عمره يرتدي عباءة مزركشة وعمامة سوداء ملفوفة بشاش أبيض يجلس خلف مكتب خشبيّ عتيق الطراز مليء بنقوش وزخارف ابتسم الرجل وهو يشير إلى خيسوس بالجلوس مقابله وهو يقول برفق:

- تفضّل أنا نعمان الطاهر.

ابتسم خيسوس ومد يده مصافحاً قائلاً بلغة عربية راقية وهو يجلس:

- عامر الغسانيُّ من أهل غرناطة وتاجر كتب.
هشَّ نعمان في وجهه وبشَّ وزاد من ترحابه بينما طفق خيسوس يقول
بتؤدة:

- جئتُك بتوصية من تقي الدين الدمشقيِّ كنت عنده من حوالي شهر.
- كريم جاء من عند كريم أخبرني كيف هو؟
- بخير حال يقرئك السلام ويُذكرك بالأيام الخوالي.
ابتسم نعمان وأوماً برأسه فيما استطرد خيسوس في حماسة وأصابعه
تتحرك بشكل دائم كما اعتاد أثناء حديثه:
- أرغب في مجموعة من الكتب أخبرني الدمشقيُّ أني سأجدها عندك.
- أبشر تجد مرادك إن شاء الله.

قالها نعمان وهو يلتقط ورقة من يد خيسوس تحوي قائمة الكتب
تفحصها بدقة وعين القشتاليِّ تتابعه بترقب وتوتر هائلين ودقات قلبه تكاد
تطرق مسامع نعمان كانت القائمة تضم عددًا من الكتب النادرة لكن لا قيمة
لها عند خيسوس فقط وضعها ليخفي خلفها سعيه الحثيث خلف طريدته.
انتهى نعمان من تفحص القائمة فهزَّ رأسه وابتسم قائلاً:
- نعم، لدي كل تلك المصنفات.

لم يصدق خيسوس مقالة الرجل لأول وهلة وظن أن سمعه خانه فكرر
نعمان مقالته مؤكداً وجود القائمة كاملة.

تهللت أسارير خيسوس وضربت السعادة كل ذرة في جسده فشعر وكأن
مياه النيل صارت تجري في عروقه وترويها بعد جفاف طويل فلم يشعر بنفسه
إلا وهو يهتف بغبطة عاتية:

- أحمقًا يا سيدي كلها متوفرة؟

قالها محاولاً السيطرة على نفسه بينما جسده يتنفّض بعنف وأنفاسه تتلاحق فيها كست الدهشة وجه نعمان وهو يقول:

- أجل.

قالها مستغرباً حالة السعادة الطاغية التي ضربت وجه خيسوس، لكنه لم يحفل كثيراً فقد اعتاد في مهنته هذه الالتقاء بغريبي الأَطوار. أشار إلى عامل المتجر فتقدم نحوه فناوله نعمان الورقة.

- جهزّ هذه في الحال معظمها تجده في المخزن بالخلف.

مضى العامل إلى شأنه بينما أخذ الرجلان يمدان أطراف الحديث. لاح البشر في وجه خيسوس فاعتدل في جلسته قائلاً:

- أبهرتني المحروسة كثيراً، صروحها وعمارتها تفوق الخيال.

قالها بإعجاب واضح فابتسم نعمان بزهو وتراجع في مقعده بينما اقترب أحد العمال حاملاً مشروباً تفوح منه رائحة ماء الورد وضعه أمام خيسوس فيها أخذ نعمان يقول في حرارة:

- هكذا أنتم أهل الأندلس مهما بلغت من رُقِيٍّ وحضارة فلا زلتم تقفون منبهرين أمام جمال القاهرة وعظمتها أيضاً حين جاء ابن خلدون إلى هنا وقف مشدوهاً مدهوشاً قائلاً: «من لم يرَ القاهرة لم يرَ عز الإسلام».

ابتسم خيسوس قائلاً وهو يهيمُ بارتشاف القدح:

- فكيف لو رآها الآن السلطان قايتباي يصنع فيها العجائب مبانٍ ونقوش وزخارف لم أرَ لها مثيلاً أصدقك القول جمال منقطع النظير.

تنهّد نعمان وهزّ رأسه بحزن قائلاً:

- لكن وا أسفاه الناس تعاني لتغطية تكاليف هذا الجمال الضرائب الباهظة تطاردنا ليل نهار أثقلت كاهلنا واشتدت علينا.

- الجمال يكلف يا سيدي وكل رقيٍّ له ضريبة وكلفة.

رد نعمان بلهجة مريّة:

- تراه جميلاً لأن ظهره لم يُضرب لتدفع ثمنه هل تتوقع أن من يقتطع من قوته وقوت عياله ليسدد ضرائبه سيشاهد تلك الصروح بعين راضية تبرز جمالها أم بعين سخط تُبدي المساوئ والعيوب.

ابتسم خيسوس ولم يرغب في الذهاب بعيداً في تلك المناقشة فغير دفة الحوار قائلاً:

- على كل، الحال هنا أفضل كثيراً من حال غرناطة، نذير الحرب يدهمنا هناك كل لحظة ويُقَضُّ مضجعنا ليل نهار.

- ومن قال إن حالنا هنا أفضل، على الأقل غرناطة تخوض حروبها مع القشتاليين الملاعين.

أخفى خيسوس بداخله ابتسامة ساخرة، فيبدو أن نعمان لم تصله بعد أخبار الحرب الأهلية التي تضرب غرناطة وتمزّقها إلى مملكتين متناحرتين. المملكة المهيضة الجناح والمنهكة من الأساس سقطت في حرب طاحنة من أجل السيطرة على عرشها المهتز، العرش المشيد على شفا جرف هار يقاتل من أجله الأخ أخاه، والابن أباه، وبينما على بعد البصر منهم يرقبهم القشتاليون بسخرية واستهزاءً مطلين عليهم من مدينة سانتافي التي شيدها قرب أسوار

غرناطة لتكون مركز الهجمات على المملكة الأخيرة للمسلمين من دون أن يجرؤ بنو الأحمر على فعل شيء حيال ذلك بعد أن أبصروا بأمر أعينهم من داخل قصر الحمراء جدران سانتافي بُنى حجرًا حجر من دون أن يُشهر عليها سيف واحد. فالسيوف العربية لم تُعد تخيفهم، السيوف العربية لم تُعد تعرف غير الدماء العربية.

طرح خيسوس كل هذا جانبًا وعاد إلى إصغائه باهتمام ونعمان يُتبع:
 - الأجواء هذه الأيام تحمل نذير حرب بيننا وبين العثمانيين، أبناء الدين الواحد يتقاتلون ويسفكون دماء بعضهم بعضًا، أمتنا تتباعد أطيافها وتتناحر، وكل يوم تتسع هُوتنا ويقام بيننا جدار بينما أعداؤنا يتلاحمون ويتحدون وقيمون فيما بينهم جسورًا وأواصر، فوا أسفاه على حالنا
 قالها الرجل بأسى بالغ فتساءل خيسوس:

- وما الداعي لتلك الحرب؟

زفر نعمان بضيق وهو يجيب:

- منذ أيام وصل القاهرة الأمير جم ابن السلطان العثمانيّ الراحل محمد الفاتح طالبًا من قايتباي مؤازرته ومعاونته في المطالبة بعرش العثمانيين والتخلص من شقيقه السلطان الحاليّ بايزيد الثاني.

صمت نعمان برهة ثم أكمل بأسى:

- سرت أقاويل مؤدّاهَا أن قايتباي يدبّر لإشعال ثورة تُطيح بحكم بايزيد وتنصيب جم مكانه.

- ولم يُقدم السلطان قايتباي على أمر خطير كهذا؟

- يردُّ الصاع للعثمانيين الذين تدخلوا كثيرًا من قبل في شؤون السلطنة المصرية وأغروا بها الخارجين والناقمين الآن انقلبت الآية.

لا يفتأ نعمان بين الفينة والأخرى أن يلتفت بلا إرادة إلى يساره أو يمينه كأنه يُطالع وجهًا غير موجود. أرجع خيسوس هذا إلى هلع الناس من عيون العسس وآذانهم.

ابتلع نعمان ريقه ثم أتبع:

- أيضًا لو تولى جم العرش العثمانيَّ سيدين بالجميل والفضل لقايتباي وهذا سيمنح المملوكيَّ سطوة ونفوذًا لا حدود لهما وحتى إذا فشل مراده في تنصيب جم لن يعدم حيلة في الاستفادة منه، فيجعله مُخْلَبٍ قَطٍ يُخيف به بازيد ويُقلقه، وأيضًا يبتزُّه به. الأيام القادمة حُبلى بالكثير لنتظر ونشاهد أيها الغرناطيُّ لكن يحدونا أمل ألا تنجلي لياليها عن مصائبِ جسام.

- وأين أنتم من كل ذلك؟

بَدَتْ في عينيَّ نعمان نظرة دهشة واستهجان واسعتين كادتَا تبتلع خيسوس.

- من تقصد؟ نحن؟ الناس؟

لم ينتظر رد من خيسوس استطرد قائلاً بصوت منكسر:

- الناس في القاهرة لا تخشى فقرًا ولا عيلة بل تخاف ارتجاف الزمان وغضبة السلطان واضطراب النفوس وتغير الأحوال الناس لا تخشى ضياع الأرزاق بقدر ما تخشى فناء الأجساد وهلاك الأرواح أتدري يا صاحبي في ليالي القاهرة الساكنة يحلُّ صمت مطبق؛ صمت يائس عقيم له رائحة دموية؛

الخوف يُوغِلُ ويستوطن أعماق القلوب؛ والهلع يُعمّق جذوره ويُرسّخها في جوف الزمان؛ حينها يُحكم الناس إغلاق أبوابهم ونوافذهم وآذانهم حتى لا تتسرّب إلى مسامعهم أنات المعذّبين وصرخات المغيّبين في أقبية سجون قلعة الجبل كلمة في غير موضعها تنفلت من لسان أحدهم كفيلة بإلقاء صاحبها في قعر زنزانة مظلمة تنته لا يقوى فيها على قيام أو قعود أو فرد جسده فقط يتكوّر كجنين في بطن أمه راجياً الله أن يُعجّل بهلاك نفسه قبل أن يسحبوه إلى جُبّ الاستجواب لاستنطاقه.

على الرغم من إمام خيسوس بكل تلك الأمور فإنه فَعَرَ فاه من الدهشة وتساءل:

- ما الذي جرى في القاهرة؟

هزّ نعمان كتفيه وقال بمرارة فائقة:

- القاهرة هذا ديدنها أبنائها صاروا فيها غرباء لا يستطيعون دفع ما يكرهون ولا يملكون نفع ما يرجون، وصار أمرهم بيد غيرهم وباتوا مُرتَهَين بهوى حكامهم، ومن نكد الزمان أن صار العبد حاكماً والحرُّ محكوماً مقهوراً.

صمت قليلاً وتجلّت في عينيه نظرة حزن عاتية ثم استطرد بحسرة:

- في صغرنا علّمنا آباؤنا القراءة والكتابة ليسهل كسب عيشنا وعلمونا الخضوع لتأمين حياتنا أَرْضَعُونَا ذلك مع حليب أمهاتنا علمونا معايشة الخوف وتقبل القهر وتحمل الإهانة وزرعوا بداخلنا أسمى معاني الانقياد والخضوع وعلمونا أن الطاعة واجبة مصونة والتمرد شريعة مردولة الطاعة

واجبة للسلطان والكهان فالطاعة جالبة للنعم، والعصيان جالب للنقم قلنا سمعنا وأطعنا استكنّا وخضعنا فهل تُرانا حصدنا غير النُّقم؟

لوهّلة شعر نعمان أن من الحماقة الاستفاضة في حديثه هذا مع شخص غريب، فما أدراه أن حديثه مصون مكتوم، لكنه سرعان ما نفّض هذا الهاجس عن رأسه ولم يُعره اهتمامًا، غضبه المكتوم المتأجج كان بحاجة إلى التنفيس ولو بمجرد البوح، فراح يُخرج جمرات الحرد المشتعلة على هيئة كلمات.

- أسوأ ما في الأمر أنهم لا يسلبوننا أموالنا فقط، بل كرامتنا وإنسانيتنا أيضًا. المرء قد يغفل ويغض الطرف عن ماله المنهوب، لكن خبرني بربك كيف يتغاضى عن كرامته المهذرة وأدميته المتهككة، إن حصل ذلك فالمرء يتحول إلى خُواء فارغ فاقد الهوية والانتماء.

هزَّ رأسه بحزن واستطرد:

- حياة بلا كرامة تُصير أصحابها أشباحًا بلا أرواح.

حلَّ صمت مَهيب لبعض الوقت راح الرجلان يتبادلان خلاله نظرات حائرة قبل أن يرتشف خيسوس من قدحه بضع رشقات وهو يسأل بفضول حذر ويُعطى في إخراج الكلمات:

- قلت لي إن القائمة كلها متوافرة لديك.

- أجل، العامل يجهزها لك لا تقلق.

زاد شغفه وفضوله فأجبراه على التخلي عن حذره وحيطته فقال بصوت لاهث وعينه تشعان بلهفة عاتية:

- كتاب شوق المُستهام يهمني أمره كثيرًا.

سأله نعمان بفضول وهو يعتدل في جلسته:

- كدت أسألك عن سبب طلبك إياه أعمل في تلك المهنة منذ ثلاثين عاماً لم يطلبه أحد مني.

ابتلع خيسوس ريقه بصعوبة وتحرك في جلسته إلى الأمام قائلاً:

- يهمني أمره كثيراً يا سيد نعمان لكن أخبرني ما سبب اختفائه بحث عنه كثيراً ولم أجده.

هز نعمان رأسه وشبك أصابع كفيه وتراجع في مقعده قائلاً بصوت عميق:

- مؤلفه أحمد بن وحشية له الكثير من المؤلفات القيمة عاش في القرن الثالث الهجري وترك خلفه إرثاً ضخماً من الأعمال العظيمة في الفلك والزراعة وغيرها لكن كتابه شوق المستهام قُوبل برفض واستهجان وأيضاً لا مبالاة الكتاب كان يتحدث عن رموز لغات قديمة منها المصرية وقد وضع ابن وحشية قواعد لفهم طلاس تلك اللغات وفكّها لكنّ أحداً لم يهتم البعض اهتمه بأنه كتاب سحر أخفى علومها ابن وحشية بين طيات تلك الرموز والجداول التي يحفل بها كتابه.

توقّف الرجل عن الكلام والنقط نفساً عميقاً ثم عاد لمتابعة حديثه بينما خيسوس يُصغي بكل حواسه.

- على كلّ، لم يلقَ الكتاب اهتماماً ولا صدّي فاندثرت نسخه واختفت حتى تلك التي عندي وجدها مصادفة عند أحد طلبة العلم، باعها لي بسبب ضائقة مالية ولولا ذلك ما أخذتها منه فلم أعتقد أن أحداً سيطلبها مني حتى وجدها اليوم في قائمتك.

لم يُتِمَّ نعمان عبارته حتى وَلَجَ الحانوت ثلاثة من العمال يحملون أكداًساً من الكتب وضعوها أرضاً بالقرب من خيسوس فطرب قلبه وابتهج ولم يستطع كَبَحَ جَماح ابتسامة سعادة من الارتسام على مُحَيَّاه فيما تقدم أحد العمال من نعمان وناولهُ القائمة قائلاً:

- أحضرنا الكتب عدا واحداً لم نجده.

وَجَلَ خيسوس وشعر بانقباض حادٍّ في قلبه ونعمان يتساءل بضيق:

- أيُّ كتاب؟

- شوق المُستَهام في معرفة رموز الأقلام لأحمد بن وحشية.

اربدَّ وجهه وانقبضت أساريره وكما فاض النيل في عروقه منذ قليل غاض ثانية وجفَّت عروقه فأطلق خيسوس آهة حسرة عالية جذبت الأنظار المندهشة إليه متأملة وجهه الذي شَحب وامْتُقع لونه وصار يُحاكي وجوه الموتى بؤساً وكآبة فيما أخذ نعمان يقول للعامل بثقة:

- كان لدينا نسخة وضعتها هناك بنفسي منذ شهرين أو أكثر.

لم يجر أحدهم جواباً. لكن بغتة نكس العامل على رأسه وقد تذكر أمراً ما.

- تذكرت يا سيدي لقد ابتاعها منا ذلك الفتى الأزهرِّي الذي يتردد

علينا دوماً.

كادت أعصاب خيسوس أن تنهار واكْفَهَرَ وجهه بشدة وهو يُنصت

للحوار الدائر.

- أيُّ أزهرِّي تقصد؟

- زاهر زاهر الصعيديُّ لقد ابتاعه منا منذ حوالي شهر.

التفت نعمان إلى خيسوس قائلاً بتأسف:

- معذرة أيها الغرناطيّ خذلناك نحن أيضاً لكن سنحاول الوصول إلى زاهر وابتياح الكتاب منه لأجلك.

هَبَّ خيسوس من مقعده والكأبة والحزن يقطران من ملامحه وقال بصوت متوتر مضطرب:

- دلّوني على الفتى وأنا سأتكفل بالأمر:

- لا نعرف محل إقامته لكنه يدرس في الأزهر ويقيم مع المجاورين.

- إذن، أعطوني أوصافه وأنا سأندبر الأمر.

وصف له العامل هيئة زاهر بدقة فتلقّفها وانصرف بعد أن نقد نعمان ثمن الكتب على أن يعود لأخذها في الغد فيما انطلق بصحبة خوان إلى الجامع الأزهر تفقدوا رواق الصعايدة وتحسسوا خبر الفتى لم يكن الأمر عسيراً فبعد سؤال وبحث وجدوا من يعرف زاهر.

- لكنه لن يأتي هذه الأيام شيخه عليل ودروسه متوقفة.

- أين يقيم إذن؟

- لقد غير سكنه منذ فترة لا أدري أين يقيم الآن.

كثر سؤالهم وبحثهم حتى أضناهم الأمر وأتعبهم ولم يتوصلوا إلى شيء نال منهم الإرهاق والجهد فمئذ وطئت أقدامهم القاهرة لم يتوقفوا لالتقاط أنفاسهم أو لنيل قسط من راحة فانطلقا إلى خان قريب واستأجرا به غرفة صعد إليها خيسوس فيما توجه خوان إلى السوق لجلب الغداء لسيدة الذي استلقى على فراشه واسترخى تماماً وعيناه معلقتان بسقف الغرفة. أطلق

آهة عالية وكل ذرة في جسده تشكو العناء والألم. في عينيه تموجت الأشياء وتداخلت الصور، بدا وكأنه في كابوس ثقيل يعجز عن الإفافة منه، في عقله تصاعد طنين خافت بدأ يعلو شيئاً فشيئاً، صرخات مُلتاعة، موج بحر غاضب، أجراس كنيسة، ترانيم غامضة يتلوها صوت أجش، جياذ تصهل بفزع، روحه تُسبِّح في بركة ضحلة زَلِقة، أنفاسه تهرب من صدره، زَفَرٌ بضيق بالغ فتلاشى كل شيء. أغمض عينيه بضع ثوانٍ قبل أن يُعاود فتحهما ببطء مواصلاً تحديقته وتأمله وهو يُتمتم بصوت خفيض:

- أيُّ حظ تعس وأيُّ طالع نكد يطاردك يا خيسوس، كلما أوشكت على الوصول واقتربت الحلول تعددت الأزمات وكثرت المنحنيات فأضل الطريق ولا أهُتدي، وكلما ظننت أني سأعانق طريدي وأنال منها وطري تتركني وتولي الأدبار ملعونة أيتها الطريدة ملعونة في كل كتاب ترواديني وتغريني وكلما اقتربت ابتعدت وكلما يأسْتُ وهممت بالكف عنك وجدتِكْ تهمسين في وجداني بغنج هيت لك فأولي شطرك وأنصاع لك فتقدين قميصي من قبل وتذوبين من بين يدي حتى متى تمارسين ألا عيبك معي أما لهذا النزال من آخر.

كثيراً ما حدث نفسه بالكف عن البحث والملمة جسده وروحه المُشَتَّة والعودة إلى إسبانيا، لكن طموحه وآماله ومجد أمته صار منعقداً على ذلك الكتاب في كل مرة كان يرواده هاجس العودة كانت كلمات أستاذه ترنُّ في أذنيه حين كان لا يزال في مقتبل عمره فتُلْهب حماسه وتزيده إصراراً وعزيمة.

- نحن أعرق أمم الأرض وأعظمها جذورنا راسخة متوغلة حتى أعماق أعماق الأرض أولئك العرب الهمج ظنوا أنه قد نال أمتنا الذبول والجفاف

لكنهم مخطئون واهمون كل الجروح التي أحدثوها في أمتنا طوال قرون جعلت أجسادنا متيقظة وعقولنا متوهجة متأهب ولا تزال الشرارة الإلهية لقوة الإبداع متقدة فينا، لكنها تحتاج منا سعيًا دؤوبًا وجهدًا مضيئًا، لتستعير نار مُحَرَّقة مُتأجَّجة، حينها لن تقوى جيوش الأرض مجتمعة على منعنا من الوصول إلى هدفنا نحن فقط ننتظر اللحظة المناسبة لننقضَّ ونعود لنسود الدنيا نحن يا فتى الجنس الموعود بأن يملك الأرض شرقها وغربها نحن الأعظم والأرقى نحن الأجدد باعتلاء التراتبية والإمساك بزمام العالم وتوجيه قياده العالم كله سيدار من هنا من أوروبا ملكة القارات ومهد الحضارة الغربية.

التحق خيسوس بالأخوية منذ نعومة أظفاره والده كان عضوًا بارزًا بها فنشأ الصغير بين جذرائها وتربَّى على أيدي أساتذتها وهَل من علومهم وتشرب أفكارهم وآمن بمبادئهم الساعية إلى سيادة العرق الأبيض وفرض هيمنته على العالم فنشأ متعصبًا للأخوية بشكل خاص ولجنسه وعرقه بشكل عام. شبَّ مخلصًا للأخوية منقادًا لها يسمع ويُطيع كان عقله كتلة بيضاء صافية شكلته الأخوية بأفكارها وأهوائها كان عجيبة لينة فتحول إلى أداة طيِّعة في أيدي الأخوية فصيروه أداة قتل وحشية مدمرة لا تُبقي ولا تذر. وكلما مضى في طريقه اكتشف كم أن الأمر يروقه وبشدة ويستحوذ عليه ومع مرور السنوات وانغماسه في أعمال الأخوية وجد نفسه نزاعًا إلى السطوة والسيادة تَوَاقًا إلى القوة والنفوذ نهَمًا للقتل متعطشًا لسفك الدماء لم يلقَ خطيئة إلا واستهواه ارتكابها تعاطى الفُحش سرًّا وعلانية اقترف آثامًا حتى الشيطان يرتجف من مجرد ذكرها كانت روحه دائمة هائجة مائجة متسقة مع ما يعهد

إليه من مهام تردى في بئر الخطايا وتجرع منها حتى الثمالة لكن أكثر ما أربكه وأحاره ذلك الجانب من قلبه الذي يحمل وجهًا آخر تمامًا وجهًا يناقض كل ذلك فكان مُحبًّا للجمال عاشقًا للفن والموسيقى مغرمًا بالشعر يطرب قلبه لكل ما هو جميل لم يدر تفسيرًا لتلك الأضداد المعتملة داخل صدره ولم يدر كنهها. لا يزال يتذكر ذلك الرجل الذي قتله منذ سنوات بقلب جاف بارد وحين التفّت وجد صبيًا صغيرًا في مهده فراح يُداعبه برفق وحنان ولم تحفّ بعد من يديه دماء الأب كان يستغرب جذوة النور تلك وكيف انبثقت داخل قلبه كان يعدّها من صنيع الشيطان ليُلْهِيه عن مهمته المقدسة قاوم ذلك النور كثيرًا وحاول إطفاءه ومع مرور الزمن أخذت الجذوة تحبّو وتحفّت فيها تعاطمت في قلبه الوحشة والقسوة فقط تبقى بصيص من نور لم يذهب بعد لكنه لم يلتفت إليه راح ينغمس مع الأخوية ويذوب داخلها فعهدوا إليه بأصعب المهام وأدقها وأخطرها فكان على قدر الاختيار براعة لا تضاهيها براعة، ونجاح تلو الآخر. كان مقاتلاً صنيديًا محاربًا فاتكًا لكن ميدانه ليس أرض المعارك أو ساحات الوغى، بل خلف الأبواب المغلقة وفي دهاليز الحكم والسياسة مستترًا ومتدرعًا بظلام الليل. مهنته كانت الاغتيالات ولم يفشل في مهمة قط. لقبوه بالحَيَّة فلم ينجُ أحد من لدغته.

أفاق من ذكرياته على دخول خوان حاملًا صفيحة الطعام التي وضعها أمام سيده باحترام بالغ ثم تراجع خطوتين للخلف وانتصب واقفًا باعتداد فيها اعتدل خيسوس وشرع في تناول طعامه. فيما قال خوان في تعجب:

- لا يستخدمون هنا أيضًا سفايفد الشواء التقليدية، يستخدمون مثل تلك الآلة في غرناطة التي تدور وحدها، لا أدري كيف تفتّت أذهان هؤلاء عن مثل هذه الأداة.

لم يأبهُ خيسوس بما يُقال أكمل طعامه وهو يشير بيده دلالة على عدم اكتراثه. كان أمامه لحم مشويّ وعنب وتين. تناول الرجل بضع لُقيمات ثم نَحَّى الطعام جانباً واستند بظهره على الجدار والهَم والغَم يُلوحان على ملامحه بجلاء. نقل خوان بصره بإشفاق بين سيده وصفحة الطعام ثم قال:

- لم تنلْ من الطعام ما يشد صلبك ويُقيم أوْذك يا سيدي.

زَفَر خيسوس بحرارة وقال بلهجة مريرة:

- فقدتُ شهيتي للطعام، بل فقدت شهيتي لكل شيء. هذا الكتاب اللعين نغص عليّ حياتي، إما أن أجده أو أهلك دون ذلك.

- ستجده يا سيدي وترتاح قريباً.

أغمض خيسوس عينيه وهزَّ رأسه يمنة ويسرة وقال بصوت يملؤه اليأس:

- الراحة كم أتوق إليها. لكن يبدو أن بيني وبينها خراط القتاد.

حلَّ الصمت بينهما وخوان يرمُق سيده بنظرات صامتة مُشفقة قبل أن يقول:

- أهل القاهرة في قلق وخوف شديدين من الحرب المرتقبة بين المماليك والعثمانيين الناس في الأسواق تتهامس فرحاً وهلعاً.

التفت خيسوس ناحيته وقال بعد تفكير:

- حديثي اليوم مع نعمان الطاهر أشعل في رأسي فكرة مجنونة، حين ذكر أن قايتباي يستخدم الأمير جم كمخلبٍ قِط ضد السلطان العثمانيّ، ماذا لو فعلنا نحن ذلك؟ نستخدم جم ونجعله شوكة في ظهر بايزيد نبتزه ونُنهكه من خلاله.

- أننى لنا ذلك؟ أيضاً جهود الأخوية تنصبُّ هذه الأيام على انتزاع غرناطة من أيدي العرب، لا طاقة لنا بفتح جبهة جديدة.

- لسنا نحن من سيفتحها، سنجعل أحدهم يفعلها بالوكالة عنّا، الكثيرون في أوروبا يحظون بدعمنا ورعايتنا وعلى أتم استعداد لتقديم أيِّ خدمة لنا.

- من تعني يا سيدي؟

- فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودوس، لو أمكنهم استقدام جم إلى هناك واستخدامه كما نرجو سيكون الأمر خطيراً.

سكت قليلاً وهو يُقلِّب الأمر في رأسه قبل أن يقول:

- على كلٍّ هي مجرد نزوة طرأت لي أطرحها على الأستاذ فور عودتنا إلى إسبانيا وهناك يرون رأيهم.

عاد خوان مجدداً يقص عليه أخبار القاهرة الفِزعة من نشوب الحرب فابتسم خيسوس وأغمض عينيه ببطء وقال:

- حمقى، دعهم يدمرون بنيان بعضهم بعضاً ويحرقون أخضرهم ويابسهم، ومن يتبقى منهم سيكون لنا لقمة سائغة وفريسة سهلة المنال، هذه الحضارة العفنة قاربت شمسها على الأفول وشمس أمتنا ستسطع قوية مهيبة.

سقط في بحر من الحماسة فطفق يستفيض متسائلاً وهو يحدق في خوان:

- أتدري إلى أي شيء أتوق أكثر يا خوان؟

لم ينتظر جواباً راح يقول بنشوة وعيناه تشعان ببريق وحشي:

- أتوق إلى ذلك اليوم الذي ندخل فيه غرناطة فاتحين منتصرين ونردد في مسجدها الكبير تراويل النصر، ثم نقتلع دولة العثمانيين من جذورها ونعود لننشد في كنيسة القديسة صوفيا لنسبحك يا الله، ثم نمحو دولة المماليك من التاريخ ونقتحم أزهرها بخيلنا ورجلنا، وبعدها أقف في القدس في مسجد عمر منتشياً مترنماً: «الآن أيها السيد تطلق سبيل عبدك فيذهب بسلام».

أخذ يهز رأسه بسعادة بالغة وهو يردد:

- تلك هي الراحة المنشودة تلك هي جائزتي الكبرى.

ابتسم خوان واقشعر بدنه جرأاً النشوة التي غلفتته مع كلمات سيده فهتف بجذَل:

- قريباً يا سيدي قريباً جداً.

عادت الحيوية لتدب في جسد خيسوس من جديد فزفر بحرارة قائلاً:

- في الصباح سنعود إلى الأزهر ونبحث عن ذلك الفتى حتى نجده، سنبحث بلا كلل ولا ملل، وسنعرّي القاهرة ثوباً بعد ثوب، وحجراً بعد حجر حتى نجد الفتى.

قالها وأغمض عينيه واران على المكان صمت عميق مهيب، صمت له رائحة وحشية، رائحة الدم.

الأزهر؛ قبلة العارفين، وكعبة المريدين، وحصن الإسلام الحصين. إليه انتهى علم المشرق والمغرب، علم يباري الشمس ظهوراً ويباري القطر وفوراً، في جنباته تتردد آيات الفصاحة والبلاغة، تُتلى أسفار الثناء والبهاء،

كلام بين المنهج، سهل المخرج، مُتفق القرائن، به تُستمال القلوب النافرة، وتُردُّ الأهواء الشاردة، على لسان فتية إن أسهبوا أتعبوا، وأن أوجزوا أعجزوا، وإن أفصحوا أوضحوا. وشيوخ كالجبال، لا يستنكر مقامهم ولا يستكثر مقامهم، إن أجذبت الحياة وأقحلت وادبها، وأظلمت الدنيا وقل هاديبها، أزهروا هم وأينعوا، وكانوا شهاب أمتهم الساطع، ونجمها الثاقب، وبدرها الطالع، لينير مشعلهم الخافقين، ويُظِلَّ علمهم الأرضين، علم تنكشف أمامهم حُجُبُهُ، وتُزال أستاره، حتى حووا من العلم نفيسه، وحازوا رficiه، ورووا جليله، وخبروا دقيقه، وعقلوا شارد، واقتنوا نادره، وفهموا غامضه، فُبَيَّتْ في الدنيا محاسنهم، ونُشِرت في الأفاق مناقبهم، وذاع فضلهم في كل مشهد ومحفل، حتى قال القائل إن العلم ليأرز إلى الأزهر كما تآرز الحية إلى جحرها.

في الصباح عاود الرجلان الكرّة، ويمّا شطر الجامع الأزهر. ترك خيسوس خوان خارجاً ودلف هو إلى الجامع ماراً بحلقاته ملقياً بأسئلته على كل من يقابله فلم يجد جواباً. شعر بالحنق البالغ وأوشكت أعصابه على الانفلات فكور قبضته ضاغطاً عليها بعنف وهو يكرّ على أسنانه. طفق يدور حول نفسه في دوائر ضيقة كضَبْع هائج، وهو يُشَبِّك أصابعه ويفكّها بغلّ وغيظ هائلين. عيناه الزرقاوان كانتا تلمعان بوحشية مقيتة، ودماؤه تتدفق في عروقه كحِمَم بركانية خبيثة تتوق إلى إخماد الحياة على سطح البسيطة دفعة واحدة. لكن بغتة هدأ ولان حين تداعت إلى مسامعه كلمات جعلته يُرهف سمعه جيداً حتى عرف مصدرها. كان شيخ أزهرِيّ مُعَمَّم يرتكن إلى عمود عتيق وأمامه حلقة طلاب راح يُحدثهم عن تاريخ مصر القديم. الأهرامات،

المعابد، المسلات. جذب الأمر خيسوس خاصة مع لُكنة الشيخ الصعيديّ المميّزة وصوته الوقور الهادئ، فدنا من الحلقة وجلس خلف الطلبة يُصغي باهتمام والشيخ يقول:

- أوّمن أنه سيأتي يوم تنجلي فيه أسرار المصريين القدماء، وحينها سيصاب الناس كافة بالذهول جرّاء ما سيرونه ويسمعونه، لقد بلغت تلك الحضارة شأواً عظيماً وارتقت درجاً لم يسبقها أو يدانيها فيه أحد.

تساءل أحد الطلبة مستنكراً:

- المعذرة يا سيدي، لكنني أراك منبهراً هؤلاء ومُعجّباً بهم؟

ابتسم الشيخ الصعيديّ وقد فهم مُراد الفتى:

- هؤلاء أجدادي بهم أعتز وأفخر.

زاد استهجان الطالب واستنكاره:

- سبحان الله. تقول هذا يا سيدي وكان من بينهم من قال أنا ربكم الأعلى، وكانوا عبدة أوثان.

صمت الشيخ وأطرق برأسه قليلاً قبل أن يرفعها مبتسماً متسائلاً:

- أيّ درس يعطيك إياه الشيخ عبد الكريم؟

- دروس اللغة العربية.

- وماذا درّسك بالأمس؟

- معلقات الجاهلية. يشرحها لنا ويعلقّ عليها.

اتسعت ابتسامة الشيخ وقال:

- ويحدثكم عن مفاخر العرب قبل الإسلام ومكارمهم، أليس كذلك؟
- بلى.

- أو لم يكن هؤلاء وثنيين؟ فلم تدرس تراث من عبد غير الله؟
صدمت الإجابة الفتى فجحظت عيناه وتدلَّى فكُّه فيما أردف الشيخ:
- أحق من يبتر جزءاً من تاريخه بحجة الدين أو غيره، ماضينا شئنا أم
أبينا جزء من تكويننا الفكريّ والمعرفي. والعلم لا دين له، نحن مطالبون
بأخذ العلم من أيّ كان وإن لم تفعل تأثم. هذا جانب أما الجانب الآخر فمن
قال إن المصريين كانوا وثنيين على الدوام؟
سكت هُنيئَةً وهو يرى أثر كلامه في عيون طلبته ثم استطرد ببطء وهو
يلقي مفاجأته:

- المصريون كان منهم رسل وأنبياء، ولديهم كتب أنزلها الله.
تعالّت الهمهمات والطالب يقول بذهول:
- ما سمعت بأحد يقول مثل هذا من قبل.
أجابه الشيخ بصوت وقور عميق:

- سبحان الله، فأين أنت من قول الله: (وإن من قرية إلا خلا فيها
نذير) وقوله تعالى عن الرسل: (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم
نقصص عليك) إذن، هناك رسل لا نعرفهم ولا نعرف أخبارهم منهم
رسل المصريين. فمن غير المعقول أن أمة عظيمة عاشت سنين تجاوزت عدة
آلاف لا يكون لديها نبيٌّ ولا رسول يوجهها ويرشدها لكي يقيم الله عليها
الحجة والبرهان. فلم يخلق الله الإنسان وتركه يهيم على وجهه كالسائمة،

بل أرسل له الرسل والأنبياء تسوسهم وتضبط أمور حياتهم. وحتى فرعون هذا قال أكثر المؤرخين الأوائل من المسلمين أنه لم يكن مصرياً، بعضهم قال إنه كان من العماليق، أو البدو الذين غزوا مصر، وحتى لو كان مصرياً ما الذي يُصيرنا أن أحد حكامنا كان على غير ملة التوحيد، فالثلاث غيره كانوا موحدين، فهل نأخذهم بجريرة بعضهم.

هتف أحد الطلبة بانبهار:

- هذا يعني أن المصريين كان لديهم دين سِماويٌّ؟

أجاب الشيخ بثقة:

- بكل تأكيد، هذا أمر لا يقبل الشك. المصريون كانوا أهل توحيد وإيمان، لكنهم جرى عليهم ما جرى على غيرهم من الأمم من تحريف وتبديل ونسيان فوصل إلينا دينهم محرّف مشوّه.

صمت قليلاً وهو يلتقط أنفاسه ثم عاد يتابع:

- من حوالي عام وقع في يدي كتاب قديم يذكر بعضاً من عقيدة المصريين، فهالني ما وجدت، إيمان بالله وبالقبر نعيمه وعذابه، والبعث والحساب، والميزان، والجنة والنار. كلمات قرأتها أثارت في جسدي القشعريرة، ومثلها لا تخرج إلا من مشكاة نبوة، على الرغم من اختلاطها بعد ذلك بخرافات وثنية، تأملوا معي تلك الكلمات: (أنت الأول وليس قبلك شيء، وأنت الآخر وليس بعدك شيء. خلقت كل شيء وحدي ولم يكن بجواري أحد) هل بوسع أحد أن ينكر التوحيد الذي يقطر من بين تلك الكلمات.

- لكن يا شيخنا ما نعرفه أنهم عبدوا مئات الآلهة، فكيف يتفق ذلك مع قولك؟

- انظر يا بنيّ إلى أسماء الآلهة ووظائفها التي منحها لهم هؤلاء البشر، إذا أمعنت النظر قليلاً فستجد أن هناك إلهاً للنور وآخر للظلام وإلهاً للجنة وإلهاً للجحيم وإلهاً للرحمة وإلهاً للرزق وإلهاً للنماء إلى ما غير ذلك، وأنا أوقن أن كل تلك الأسماء والآلهة كانت بداية صفات للواحد الأحد، إلهنا وربنا المنتزّه عن كل ما لا يليق، لكن الطّامة جاءت من التحريف والتبديل الذي كان سمة تلك العصور، فقوم نوح عبدوا صالحهم، وكذا فعل جيل من المصريين القدماء ابتعد بهم الزمن عن صحيح الدين فغيروا وبدلوا، وصارت صفات الإله الواحد آلهة متعددة، لكل منها معابدها وكهنتها.

تساءل أحد الطلاب بذهول بالغ وهو يتمايل في جلسته بفعل الفضول:

- هل نعلم أحداً من أنبياء المصريين؟

- أجل. ولو أحسنتم البحث قليلاً وعُدتم إلى ما كتبه مؤرخو الإسلام الأوائل لوجدتم أنهم قالوا عن إدريس -عليه السلام- أنه أحد أنبياء المصريين، وأسموه أخنوخ وهُرمس الهرامسة، وهو أعظم معلّم في تاريخ مصر، بل وربما في تاريخ العالم أجمع، فهو أول من تكلم في علم الفلك والطب، وأول من خطط المدن ووضع قواعد للزراعة كتبها للناس وعلمهم إياها، كما علمهم حياكة الثياب وغيرها.

تبادل الطلاب نظرة ذهول صامته وفَعَرُوا أفواههم وعيونهم تستحثُّ الشيخ أن يُكمل فلم يُجيب رجاءهم وراح يُلقي عليهم مفاجأته المدوية.

- حدثني أحد عجائز القبط في مصر عن كتاب الجبتانا الذي كتبه كاهن مصري اسمه مانيتون السمنودي وأورد فيه بعضاً من تاريخ مصر القديم، والذي تضمّن قصة أوزوريس الإله المصري القديم، وما إن انتهى من حكايته حتى وجدت نفسي أقفز كالملدوغ هاتفاً: إنه نبي الله إدريس، صُعق الرجل وسألني عن سبب قولي فرُحت أشرح له التشابه الواضح بين القصتين، ففي أسطورة أوزوريس نجد أنه أول من علم المصريين فنون البناء بالحجر والخط بالقلم والزراعة وتخطيط المدن، وتشيد البيوت بدلاً من سكن الكهوف، كما بنى المعابد الضخمة، واهتم بتعليم الطب، وابتكر أدوات الزراعة والرّي، ثم بعد أن قتله عدوه ست عاد إلى الحياة ثم رفعته الآلهة إلى السماء، وهنا نجد تشابهاً واضحاً بين إدريس -عليه السلام- وأوزوريس، بل حتى السجع المُتقارب في الاسم، ألا يقودنا كل هذا إلى أن أسطورة أوزوريس هي قصة النبي إدريس لكن بعد أن جرى تحريفها وتبديلها.

سَرَتْ همهمات إعجاب ودهشة بين الطلاب، بينما طفق الشيخ يتأمل الرؤوس المترابطة أمامه وهو يتسم برفق ووداعة.

صاح الطالب صاحب السؤال بداية:

- ما سمعت بهذا من قبل يا شيخخي الجليل.

- وأنا أقدر ذلك، وكما قلت بداية لن نعي ونعرف حقيقة أجدادنا هؤلاء على الصورة الحقيقة إلا من خلال كشف أسرارهم ومعرفة خباياهم.

تساءل أحد الطلبة:

- وما السبيل إلى كشف تلك الأسرار؟

هزَّ الشيخ رأسه بثقة وقال ملوحًا بسبابته:

- اللغة. فهم لغتهم وفك رموزها هي المفتاح إلى ذلك.

- ألم تندثر تلك اللغة وتنته؟

وجد خيسوس نفسه يهتف بالسؤال بشكل لا إراديٍّ، فالتفت إليه الشيخ وتأمله لثوانٍ محدثاً نفسه عن هذا الغريب الذي اقتحم درسه بلا إذن لكنه على الرغم من ذلك راح يجيب:

- لم تندثر، لكنها تطورت، اللغة القبطية هي ابنة المصرية القديمة

- إذن، لم لا نفقه المصرية القديمة؟

- لم تجد من يهتم بها فنسي الناس رموزها وأصواتها.

أجاب الشيخ عن سؤال خيسوس الذي زاد فضوله وشغفه فراح يقول:

- هل كان هناك من يعلم رموزها؟

- أجل. حتى أيام الطولونيين بمصر كان الصعيد يزخر بالكثير ممن

يعرفون المصرية القديمة، حتى كبار العلماء منهم من اهتم بها وقطع شوطاً كبيراً في فك رموزها.

لهث خيسوس وهو يقول:

- كابن وحشية وكتابه شوق المستهام؟

أوماً الشيخ برأسه إيجاباً وطفق يضيف إلى كلام خيسوس:

- أجل. لكن كان هناك ما هو أهم وأدق من شوق المستهام.

سرت رعشة في جسد خيسوس وهو يُصغي والشيخ يقول:

- كتاب (حلُّ الرموز وبرء الأرقام في كشف أصول اللغات والأقلام) للمتصوّف الكبير وإمام العارفين ذي النون المصريّ الذي ولد في أخميم في صعيد مصر وعاش ما بين القرنين الثاني والثالث الهجريين، والذي استفاض فيه في شرح المصرية القديمة وأيضاً أكثر من مئتي لغة قديمة غيرها. كان ذو النون صاحب باع وسبّاقاً في هذا المضمار.

- وهل من أثرٍ لذلك الكتاب؟

هزَّ الشيخ رأسه بأسى:

- وأأسفاه. اندثر واختفى. فقد تماماً ولم يُعثر له على أثر، فقط تناقل ذكره وذكر بعض ما فيه بعض من تلاميذ ذي النون.

اشتعلت نار متأججة داخل عقل خيسوس. جاء يبحث عن كتاب ليجد آخر. يبدو أنه هو أو بعض رجال الأخوية سيبدأ مجدداً رحلة بحث وتنقيب لا يعلم أحد كم ستطول هي الأخرى سعيّاً خلف الطريدة الجديدة. فرغ الشيخ من درسه فانصرف خيسوس مواصلاً بحثه عن زاهر وعقله يكاد يُجُنُّ من أثر ما سمعه. عاد إلى خوان مجدداً واليأس يقطر من وجهه. لكن سرعان ما انفرجت أساريره وأحدهم يُجيب بمعرفته بزاهر:

- يقيم في حيِّ الحسين عند عطفة المغاربة.

تلقفا العنوان بحُبور وانطلقا لفورهما إلى هناك. لم يكن الوقت قد بلغ الظهيرة بعد. وصلا إلى البيت الذي يقطن فيه الفتى. كان يقيم في حجرة صغيرة أعلى البيت يقود إليها سلّم ضيق ينتهي بممرٍ طويل يقود إلى الحجرة. تقدم الرجلان نحوها وهما يتلمَّسان خطاهما فوق الممر المُعتم الضيق الذي

لا يصله شعاع الشمس. لأرضية لزجة مُبلّلة عَفْنَة ورائحة الفقر تفوح منها بجلاء. صعدا إلى الحجرة وتلصّصا عليها، كان زاهر بداخلها بصحبة رفيقة. تفحص خيسوس المكان بدقة. كان بيتاً قديماً يضم عدداً من الحجرات يستأجرها المجاورون من طلبة الأزهر. في ذلك التوقيت كانت باقي الغرف شبه خالية من الطلبة الذين هرعوا إلى دروسهم مع أولى بشائر الصباح فصار البيت خواء خالياً عدا زاهر ورفقته.

غادر الرجالان البيت وكمنا غير بعيد منتظرين خلوّ الحجرة التي جلس بداخلها زاهر يتناول إفطاره بصحبة ثلاثة من أقرانه. كان أمامهم غسل وجبن وخبز ساخن. التقط زاهر لقمة وضعها في فمه وراح يلوّكها ببطء وعيناه تائهتان حزيتان.

كان في حوالي السابعة عشرة من عمره، رقيق الوجه حلو الملامح، لم تفارقه براءة الطفولة بعد، ما زالت تطل من قسماته وعينيهِ الصافيتين، لكن في تلك اللحظة غَشَتْهُ سحابة كآبة فَشَرَدَ وزاغت عيناه. تناول من الطعام لقمة أو اثنتين ثم كفت عنه يدها وتراجع بجسده إلى الخلف. انخرطت رفقته في حديث لم يشاركهم إياه، كان عنهم في شغل شاغل. قال أحدهم بلهجة حذرة وعيناه يشعّ منها الخوف:

- هل أتاكم نبأ ما جرى لخليل القماش؟

توقف ثلاثتهم عن تناول الطعام وارتسمت على مُحيّاهم علامات دُعر، فمئذ ثلاثة أيام اختفى زميلهم خليل وتواترت الأنباء أنه في سجن القلعة الجُرم ما اقترفه. توترت أعصابهم فيما أتبع المتحدث بهمس خائف وكأنه يخشى أن تلتقط الجدران كلماته:

- العسس سمعوه يتفوّه بكلام ما لم يرقّ لهم، فأرصدوا على مدرجته من يحسّ خبره ويفتش متاعه، فوجدوا بضع وريقات خطّ فيها بقلمه محاورة مع شخص ما، طلبوا منه اسم الرجل الوارد في الأوراق. قال لهم إنها حكاية خيالية كآلف ليلة وليلة وسيرة الظاهر بيبرس، لم يصدقوه وسحبوه إلى جُبّ الاستجواب وهناك.

بتر كلامه وارتعش فؤاده ولم يستطع أن يُكمل فسكت قليلاً متفحصاً وجوه رفاقه الهلعة قبل أن يتبع بهمسه الخائف:

- يقال إنهم وجدوا كلمات أثارت غضبهم ونقمتهم، كلمات تحمل بين طياتها دعوة إلى إبطال الطاعة والجرأة على ولادة الأمر.

- أيّ كلمات هذه؟

قال الجالس بجواره بجزع:

- لطالما كان في حديثه جسارة خشيت أن تُقحمه المتألف.

- بعض الطلبة اليوم في الرواق تداولوا نسخاً منها.

قالها الأول وهو يمد يده المرتعشة نحو طيّات ثيابه ليُخرج منها ورقتين كبيرتين ملفوفتين بإحكام. بدا الذعر على وجه رفيقيه وهتف أحدهم بهلع:

- هل جُننت؟ أحضرت معك نسخاً منها، لو أمسكوا بك.

قاطعهم بصوت راجف:

- سنقرأها سوياً ثم نحرقها قبل أن نغادر.

بدا التردد على وجوههم لكن فضولهم غلبهم فلاذوا بالصمت وصاحبهم يفرد الورقة أمامه وهو يُلقي الكلمات على مسامعهم بصوت خائف مضطرب:

- القاهرة بجنوحها وشطوحها، مدينة لها من اسمها نصيب، حيث حرية في حق السماء مكفولة، وفي حق الأرض مَعيبة مردولة، في القاهرة رَكْز الخوف راياته ووطد سلطانه، ونصب عرشه، واستطال بنيانه. يقال إن أول ما بُني فيها كان سجنًا صغيرًا، تكاثرت حوله الدور وامتد العمران، ومعهم اتسع السجن واستطال، حتى ابتلع المدينة بأكملها، وضمَّها إلى جدرانها وحديدته. آفة القاهرة أمران، السوط والصمت. فالسوط والصمت داءان مُهلكان، وصاحب السوط وآثر الصمت سقيان مريضان، وهما عند الله ممقوتان بغيطان. في القاهرة حين يُصبح الناس يناجون ربهم بقلب هالِع: «اللهم إنا نعوذ بك من السجن والقيد والسوط، ونعوذ بك من السلاسل والأغلال». دعاء انفردت به القاهرة من دون أمصار الدنيا قاطبة. آه من الخوف والقهر، فديدن حكامنا أن في سيفهم رهقًا. قلت كلماتي تلك وأنا التفت إلى معلمي متسائلًا بجزع بالغ: ما الذي جرى لنا ومن أين أتى الخلل؟. شرد المعلم قليلًا قبل أن يجيبني بلهجة مريرة: أتى الخلل حين سلَّ الطلقاء سيوفهم على رقاب الرعية، أتى الخلل حين امتلكننا الزَّيف وحكمنا السيف، حين صلب كتاب الله فوق رماح قبلية، حين صار الحكم سلْبًا وغصْبًا، جبرًا وقهْرًا، وصار ميراثًا للغلمان من أجل نزوات عصبية، ضربنا الخلل حين صارت فينا كسروية وقيصرية، حين بغَوْا علينا وطغَوْا، وعلَوْا على الرعية، وأساءوا السيرة وعظمت منهم البلية. قلت: ألم يفتحوا البلاد ويوسعوا رقعة الإسلام، حتى أشرقت شمسُه على الأندلس وبلاد السند والهند وغيرهم؟! أجابني بمرارة طفحت على صوته: بلى، اتسعت رقعة الأرض واستطالت، لكن خبت جذوة الإسلام وانطفأت روحه، نشروا

المعنى ووأدوا الجوهر، فصار لدينا إسلام شائه وهمي، واضمحلت روح الإسلام الحقيقية وانزوت. صمت قليلاً وقد سقط في حالة من الشroud وهو مُطرق الرأس قبل أن يرفعها محدّقاً فيّ متسائلاً: «قل لي يا خليل، أيها أرجى للأمة وأنفع، قانون عادل أم حاكم صالح؟. قلت لفوري: حاكم صالح، به تنصلح البلاد والعباد، خير من قانون لا يجد من يُنفّذه ويفرضه. ملّس المعلم على ذقته متفكراً ثم قال: جانبك الصواب، وأخطأت رميتك، فالحاكم الصالح بشر فان، له أجل سرعان ما ينقضي، فينطمس أثره وينمحي فعله، أما القانون فهو باق ما بقيت السماوات والأرض. والحاكم الصالح فرد ترتن الأمة بحياته فإذا انقضى أجله لا ندري لمن تصير الأمور من بعده، أما القانون فهو نظام يتبعه الصالح والطالح. قلت متسائلاً: الصالح يتبعه رغبة، فكيف يتبعه الطالح؟. قال: رهبة وخيفة، رهبة من القانون، وخيفة من الأمة القيّمة على القانون والنظام فلا يخالفه أحد. طرأ في ذهني أمر فطرحت أمامه متسائلاً: ألم تكن أعظم لحظات أمتنا حين قادنا حكام صالحون، نشروا العدل وأرسوا قواعد الأمن والرخاء. ابتسم قائلاً: قلتها بنفسك، لحظات عظيمة سرعان ما انجلت وحلّ بعدها الظلام، وتغيّر الحال بعدهم، وسأضرب لك مثلاً، لا بل عدة أمثلة توضح المراد والمغزى من كلامي: ألم يأت عمر بن عبد العزيز وقد ملأ بنو أمية الأرض ظلماً وجوراً، فخالف سيرتهم، وأحلّ العدل ونشر الأمان. قلت بلى. قال: فكيف صار الأمر من بعده؟ عاد الظلم ونشر آثامه ونسج شباكه، وعندك عبد الرحمن الناصر، ألم تزدهر الأندلس ويعلو نجمها في عهده حتى صارت قبلة العالمين. قلت بلى. قال فكيف صار من بعده، اضمحلّ ملك بني أمية وانتهت دولتهم فكانت دويلات الطوائف

وما جرّته على الأمة من وبال. وحتى صلاح الدين ألم يوحد الأمة ويجرّر مقدساتها ويكسر شوكة الصليبيين، ثم جاء من بعده خلف أضاعوا الملك حتى سلم أحدهم (الكامل) بيت المقدس إلى الصليبيين من دون ضربة سيف أو طعنة رمح، بل قدمه لهم طواعية. تداعت الأفكار واحتشدت في رأسي فهتفت: ما الذي ترمي إليه يا سيدي؟ قال: لو أن هؤلاء الحكام صرفوا بعضاً من جهدهم هذا في تأسيس حزمة من القوانين تستجمع الكليّ والجزئيّ من واجبات الحاكم وحقوق المحكوم وترتب أصول الحكم وأسس العدل وحفظ الأمن، ثم جعلوا الأمة قيّمة وحامية لتلك القوانين لاختلف الحال وتغير المآل، ولصار من بعد عمر بن عبد العزيز ألف عمر، حتى ولو كان بعضهم على غير سريته فالقانون سيلزمه باتباع سيرته. وأيضاً القانون ضمان أن من سيأتي خلفاً للحاكم، حتى لو لم يكن على قدر نباهة سلفه وكفاءته فالقانون يجعل الحاكم فرداً في منظومة تدير الدولة وتضبط شؤونها، فلا تكن أمور الدولة مرهونة بهوى الحاكم ومزاجه، فيلقي بها هنا وهناك بغير علم ولا دراية فهذا ما أوردنا التهلكة، فالحاكم بشر يجري عليه ما يجري على غيره من نقص وميل في الضمير، فإذا ضعفت نفسه من يحميه من التردّي والسقوط، من يمنعه من مُسايرة الهوى ومُنَادمة الطمع، لا شيء غير قانون عادل مستحكم. تساءلت مذهولاً: وكيف يتأتّى ذلك يا معلمي؟ أجبني قائلاً: الأمر مُرتَبَن باستفاقة الأمة من غفوتها، وإدراكها حجم قوتها وسلطتها، حين تعي أن الحكم ليس استلاباً من تراث الآباء والأجداد ولا هبة استوهبها أحدهم، حين تدرك أن لها حق الإمرة في الأمير، وتدرك أن الحاكم ما هو إلا مجرد منفذ لرغبتها وإرادتها، لا كما نرى حكماً جائراً يحكم فيه

الأندال رقاب الرجال، فيُنكِّسون رؤوسهم ويُذَلُّون نفوسهم، حكماً تميل به هوى الحاكم حيث أرادت، فيُحلُّ في الغد ما حرَّمه بالأمس، يبطش ويقتل، ينهب ويسرق، حكماً يكون فيه الحاكم صاحب المشيئة والأمر والنهي، لا يحجزه ثقي، ولا يردعه نهي، ولا يكفُّه تحرج، ولا يدفعه تورع، فيقود الأمة إلى عمياء مبهمه وسوداء مُدْهِمَّة.

فرغ الفتى الأزهرى من قراءة محاوره خليل وقد كسا ملامح رفيقيه الفزع فطفقا يتبادلان نظرات حذر قلقة لبعض الوقت قبل أن يلتفتا إلى زاهر الذي لم يسمع كلمة مما دار، فتأملله أحدهما وسأله بقلق:

- ما خطبك؟ تبدو وكأن هموم الدنيا تلاحقك.

ترقرقت الدموع في عيني الفتى وقال بعد صمت طويل وبصوت مضطرب:

- قلقٌ على أُمِّي قلبي يحدثني أنها ليست على ما يرام.

حاول زميله طمأنته وتهدئته:

- هوّن عليك، شهر أو أقل وتنتهي الدراسة وتعود إليها في عطلة طويلة وتنعم بصحتها.

- لا أُطيع صبراً أود لو أراها الآن.

شعر الرفاق بموجة حزن عاتية تندفع في نبرة زاهر فتدخل آخر في الحوار قائلاً بشفقة:

- خيراً إن شاء الله، لكن ما الذي أقلقك فجأة هكذا؟

راح الفتى يتأملهم لبعض الوقت قبل أن يقول ببطء وبصوت عميق:

- رؤيا رأيها اليوم أقلقتني وأقضت مضجعي.

بدت الدهشة على وجوه زملائه وتبادلوا نظرات استغراب فيما اندفع زاهر يقصُّ الرؤيا من دون أن يطلب أحدهم فقال وهو يرمق الجدار أمامه بشرود بالغ:

- رأيتني وكأن حية لدغني ثم رأيتني جالسًا على صخرة خضراء عظيمة وبالقرب مني كانت أمي جالسة تسفح الدمع سفحًا وهي تروي نبذة صبار، ناديتها فلم ترد عليَّ أو تلتفت حتى نحوي رُحت أصرخ كالمجنون وأنادي لكن بلا جدوى بكيت وهتفت «أمياه» لم لا تردين؟ هل أنت غضبي مني؟ لم أجد إجابة لكن تناهت إلي كلمات كانت تتمم بهنَّ، كلمات عجيبة ما سمعت مثلهنَّ قط، كانت تقول: «إلهي إن أبطأت غارة الأرحام وابتعدت فأقرب الشيء منا غارة الله يا غارة الله جدِّي السير مسرعة يا غارة الله عدت العادون وجاروا ورجونا الله مجيرًا وكفي بالله وليًا وكفي بالله نصيرًا». ثم هوت نار من السماء قرب جامع الحسين وسمعت قائلاً يقول: هلكت الحية ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

انتهى من رؤياه فغشتهم جميعًا الكأبة وحلَّ عليهم الوجوم فأخذوا يتبادلون نظرات حائرة ولم يقدر أحدهم على أن ينبس ببنت شفة فراحوا يكملون إفطارهم في صمت عميق بينما قلوبهم تحفق بفزع وخوف مجهولون سببه.

طال انتظار الرجلين ولم يغادر زاهر ورفقته فالتفت خيسوس إلى خوان قائلاً:

- ابقَ هنا وراقب البيت حتى يغادروا جميعًا أو تغادر رفقته سآذهب لشأن ما وسأعود بعد قليل.

أوماً خوان برأسه وظل رابضاً مكانه فيما انطلق خيسوس في سعيه. كانت ترواده فكرة ما لطالما شغلته واستحوذت عليه منذ حدّثه بها أستاذه عن ولع المتصوفة بالخضر ومعرفتهم للكثير من أسرارهِ وخباياه لم يترك خيسوس بلدة أو مدينة نزل بها إلا وهرع إلى من علمهم من أهل التصوف ملقيًا على أسماعهم سؤالًا واحدًا تكرر طوال سنوات عديدة:

- الخضر وذو القرنين، هل أجد لهما عندكم ذكرًا؟

وطوال تلك السنوات تلقى إجابة واحدة قصة الخضر المعتادة وحكاية ذي القرنين المشهورة لم يربط أحدهم أبدًا بين الرجلين ولم يدروا شيئًا عن قصة النبع. في تلك اللحظة كان قد فرغ من الطواف على ثلاثة من المتصوفة أعطوه أيضًا الإجابة نفسها لم يشف أحدهم غليله أو يرو ظمًا فضوله، بل إن جهلهم بالقصة التي يريدونها ألهمت شغفه وزادت من مهمته.

- الأمر - إذن - خلفه سر خطير، سر لا تعرفه إلا قلة نادرة.

أخذ يحدث نفسه وهو يرتد عائدًا إلى خوان خائبًا خالي الوفاض لكن الأخير ما إن لمح سيده يُقبل ناحيته حتى أشار إليه إشارة ذات مغزى فحثَّ خيسوس الخطى حتى دنا فطفق خوان يقول بحماسة:

- لقد غادروا جميعًا منذ دقائق.

لم ينتظر خيسوس، انطلق لفوره تاركًا خوان يؤمن مدخل البيت بينما أخذ هو طريقه إلى أعلى. تأكد من خلوّ المكان فاندفع ناحية الباب وعالج رتاجه

بمهارة فانزاح أمامه بسهولة. كان باباً خشبياً بسيطاً فليس لدى قاطن الحجرة ما يخشى عليه من الضياع سوى حياته. دفع الباب ودخل بحذر متأملاً الحجرة الصغيرة التي فاحت بداخلها رائحة خبز جاف مختلط برائحة حصيرة عتيقة تفتش الأرض. لم تكن الغرفة تحوي سوى فراش متواضع وطبيلة صغيرة وخزانة خشبية هرول ناحيتها ورفع غطاءها ليجد بداخلها بعض الملابس، جذبها خارجاً ليجد أسفلها عشرات الكتب تترأص بانتظام. أخذ يلتقطها بلهفة واحداً تلو الآخر متفحصاً عناوينها وكلما فرغ من أحدها ألغاه أرضاً. استمر في بحثه لبضع دقائق قبل أن يشهق بعنف ويتراجع بجسده إلى الخلف وقد تسمّرت عيناه على كتاب جلديّ بنيّ اللون استقر في قاع الخزانة نُقش على غلافه بخط كوفيٍّ منمّق (شوق المُستهام في معرفة رموز الأقلام لأحمد بن وحشية). أخذ جسده يرتجف وارْتُخَت ذراعه بجواره عاجزاً من هول المفاجأة عن تحريكهما والتقاط الكتاب فأخذ يحدّق فيه بذهول طاع وعرقه ينساب بغزارة ودقات قلبه تتسارع ومعها أنفاسه. راح يلهث بشدّة وهو يجاهد محرّكاً ذراعيه حتى استطاع التقاط الكتاب بعد عناء. أخرجه من الخزانة فزاد ارتجاف بدنه حتى إنه عجز عن الوقوف فتهالك جسده أرضاً بجوار الخزانة. احتضن الكتاب بشدّة وأخذته نوبة بكاء هستيريٍّ عنيف لم يكن يصدق أنه عثر على طريدته بعد كل تلك السنوات، ظل يبكي حتى قضى وطره من البكاء وهدأت نفسه قليلاً فوضع الكتاب على حجره وراح يتصفحه برهبة وإجلال شديدين وعيناه تمرّان على الجداول التي تحوي رموز اللغات القديمة وأبجدياتها. كادت أنفاسه تتحدّ من فرط الإثارة فأحلامه أوشتكت على التحقّق وجهاده وكفاحه منذ أن التحق بالأخوية لم يذهب

سُدِّي، الآن اكتملت الحلقة الأخيرة في رحلة البحث الطويلة، ترددت تلك الهواجس في عقله وطاقفت به الأحلام هنا وهناك، لكن بغتة عاد إلى أرض الواقع إثر صرخة غاضبة أطلقها الفتى الأزهرِيُّ الذي دَلَفَ إلى حجرتَه لتَوَّه مشاهدًا ذلك الغريب يعبث بمحتوياتها. لم يدرِ خيسوس لما وجل وهزَّته المفاجأة فاحتضن الكتاب بخوفٍ ضرب قلبه للمرة الأولى في حياته، لكن فجأة اندفع الفتى إلى الأمام بعنفٍ جراء ضربة شديدة تلقاها على مؤخرة رأسه من خوان الذي ظهر خلفه على حين غِرَّة فتعثر الفتى في جلبابه وسقط أرضًا بجوار خيسوس الذي استعاد رَباطة جأشه فلم يُضِعْ الفرصة واستلَّ خنجره من غمده بحركة خاطفة وأغمده في قلب الفتى الذي جحظت عيناه بذهول وارتسمت على مُحِيَّاه البريئة أمارات خوف وألم هائلين. لم يصرخ أو يرفع صوته فقط تَمَّتْ بصوت خفيض:

- لم؟

شيء ما ضرب فؤاد خيسوس في تلك اللحظة، شوكة انغrust في قلبه فأدمته، البقية الباقية من جذوة النور خمدت تمامًا وانطفأت إلى الأبد فصار قلبه سوادًا حالكًا. تأوَّه زاهر بصوت خفيض وانطرح على شِقِّه الأيمن صوب الجدار ونادى بحزن:

- أمي.

قالها ثم فاضت الروح إلى بارئها. وجد خيسوس نفسه يلهث بشدة وهو يتأمل صنيع يده طوال حياته أزهى أرواح المئات من دون أن يطرف له جفن أو يُثِير أحدهم في قلبه أدنى شفقة. لكن في تلك اللحظة شعر بانقباضٍ حادٍّ

في قلبه فراح يُحدِّج جسد الفتى بنظرات مضطربة تائهة فاقدًا القدرة على الحركة قبل أن يندفع خوان ناحيته ويجذبه من يده ليغادرًا سريعًا.

في الصباح كان الجو صحوًّا به لمسة باردة منعشة لكن بغتة مرت سحابة داكنة غطت وجه السماء فيما انقلب الجو حارًّا خانقًا، وريح ساخنة هبت من ناحية الجنوب؛ غاضبة عنيفة مثيرة للأعصاب تحمل رائحة غريبة لم تألفها خياشيم أهل القاهرة رائحة تولد كآبة ثقيلة بينما الريح تصفّر في الجنبات وتكنس الطرقات وهي تمر سريعة مُزججة ضاربة الجدران لافحة الوجوه. الناس تبادلوا نظرات ذاهلة مندهشة لم يعتادوا هذا الطقس من قبل، تأملوا السماء بخوف ورهبة، البعض تتم في خشوع أنها لفحة من لفحات جهنم. من بعيد انشقت الأرض عن مجذوب راح يُهرول في الطرقات موجهًا بصره إلى السماء ملوحًا بسبابته رافعًا عقيرته:

- قد جاءت غارة الله، قد جاءت غارة الله.

أخذ يرددّها بخوف ذاهل وهو يعدو مخترقًا صفوف المارة الذين لم يأبهوا كثيرًا لما يقوله وإن كان في أعماقهم تولد شعور أن ثمة أمرًا خفيًا يدور وأن الأرض تنتظر حدثًا جللًا.

أسرع خيسوس وخوان خطاهما حتى ابتعدا عن موضع الدم الحرام المسفوح، وصلا حتى مسجد الحسين ووقفًا يلتقطان أنفاسهما وقد أذهلهما التغير المفاجئ في حالة الجو. دار خوان برأسه باحثًا عن عربة تقلّهم حتى بولاق حيث تنتظرهم السفينة لتنطلق بهم إلى دمياط ومن هناك إلى إسبانيا.

لمح عربية بضائع فارغة يجرُّها بغل قويٌّ فأشار إلى البائع فأقبل نحوه. نقده خوان بضعة دنانير أطارت صواب الرجل فقبل بالصفقة قبل أن تُعرض عليه. التفت خوان ناحية خيسوس هاتفاً فيه ليصعد إلى العربية، لكنَّ القشتاليَّ لم ينتبه أو يلتفت إلى نداءات مساعده. احتضن الكتاب برهبة شديدة وعقله صار يغلي كالمرجل بفعل الأفكار المتأججة. لقد صار على بعد خطوة من فكِّ شفرة الخريطة واقترب المجد والسطوة والنفوذ. بدت على شفثيه ابتسامة ظُفر عاتية وهو يجول برأسه حوله متفقداً المكان حتى وقعت عيناه على جامع الحسين. تسمَّرت نظراته واقشعرَّ بدنه شيء ما لا يدري كُنهه أثار بداخله عاصفة من الفضول طرقت أبواب عقله بشدة. طال تحديقه وتأمله للجامع، ثمّة شيء جذبه إلى هناك فوجد نفسه يُناول خوان الكتاب قائلاً بلهجة حازمة:

- ابق هنا ريثما أعود.

صُقع خوان وتدلَّى فكُّه من شدة الدهشة لكن خيسوس لم يترك له الفرصة لمجرد النقاش تركه والذهول يجثم عليه واتجه صوب الجامع. دنا حتى صار أمام المدخل وألقى نظرة لأعلى متأملاً المئذنة حدّق فيها كثيراً ولوهلة ظن أنها قد استحالت رمحاً نصله حادّ لامع. هزَّ رأسه وزفر بضيق بالغ بسبب الحر الخانق الذي شعر به يتسلل إلى قلبه ويغلف روحه تماماً. ترك هواجسه خلفه وتحرك متجاوزاً المدخل ودلف إلى صحن الجامع ووقف متلفتاً حوله ملتقطاً أنفاسه ببطء محاولاً تخمين السبب خلف ذلك الهاجس الذي دفعه إلى ولوج المكان. لم يكن وقت صلاة والجامع شبه خالٍ فأخذ يتمشّى بهدوء متأملاً النقوش والزخارف التي كست سقف الجامع وجدرانه. رمقها بإعجاب

بالغ وهو يتذكر مثيلاتها في جوامع غرناطة وما تبقى من جامع قرطبة، فوجد نفسه يُتمتم بانبهار:

- يروقني كثيرًا هذا الفن الراقي من لم يقف أمامه مندهشًا فهو بلا شك عليل الذائقة.

شرد وراح في حالة عميقة من التأمل لم يدرِ كم استغرقت لكن بغتة راوده شعور غريب وأحس وكأن أحدهم يُحدِّق فيه بشدة حتى تكاد نظراته تحترق جسده وتنفذ من خلاله. تلفَّت حوله فلم يجد أحدًا، دار بجسده دورة كاملة متفحصًا المكان فلم يبصر شيئًا، نضحت رائحة بحر في الهواء ملأت خياشيمه وعيناه تقعان على ركن هادئ في آخر الجامع كان قد تفقده ببصره منذ ثوان فلم يجد فيه أحدًا، لكن الآن يبدو وكأن الأرض انشقت عن رجل راح يرمُق خيسوس بنظرات صارمة جامدة أثارت القشعريرة في قلب جبل الجليد القشتالي. كان شيخًا وقورًا هادئ الملامح يعتمر عمامة خضراء وجلبابًا أبيض نقيًا كالثلج، تمامًا كحقيقته. أخذ يُحدِّج خيسوس بنظرات غامضة أثارت قلق القشتالي فراح يبادل الشيخ نظرات حائرة مُستشفة. رفع الشيخ مسبحته لأعلى ببطء ودحرج إحدى حبَّاتها، فبدا لحركتها صوت كزثير رعد غاضب ضرب أعمدة المسجد وجدرانه فانخلع له قلب خيسوس وشهق بعنف، وألم رهيب يحتاج جسده ألم رهيب لا يطاق وكان ألف خنجر اخترقوا قلبه دفعة واحدة، أطلق آهة ألم لم يستطع كبْحها ووضع يده على قلبه متحسِّسًا إياه، فيها ترنَّح جسده وكاد أن يسقط أرضًا لولا أن استند على عمود مجاور وهو يلهث بشدة وعينا الشيخ قد تسمَّرتا عليه. لم يدر بنفسه إلا وهو يندفع ناحية الشيخ وكأن أحدهم يسوقه سوقًا. دنا بأقدام مرتعشة مضطربة حتى صار

أمام الشيخ. لم يستطع الوقوف فخرَّ جاثيًا على ركبتيه وبصوت واهن مرتجف قال:

- السلام عليكم.

لم يرد الشيخ وواصل تحديقه في عيني خيسوس الذي شعر وكأن الشيخ يجول بداخله ويسبر أغواره فتزايدت آلامه وأحسَّ كما لو أن قلبه صار ينزف بشدة. أمسك الشيخ حبة في مسبحته وراح يضغط عليها برفق فجحظت عينا خيسوس من الألم شعر كما لو أن الشيخ يعتصر قلبه عصرًا عجز حتى عن الصراخ حتى ترك الشيخ الحبة ودحرجها، فانفلتت رغمًا عن إرادته صرخة وجع عاتية فيما أخذ الشيخ يقول بصوت مهيب عميق:

- السلام ما لم يكن في قلبك فلا حاجة أن تلوك به لسانك.

بدأ العرق يتصبَّب منه بغزارة رهيبة وشعر بدرجة حرارته تتزايد، بات أشبه بمِرْجل يغلي على نار جهنم فيما استطرد الشيخ بنفس لهجته:

- مبير فاجر؛ تلج بيت الله والدم الحرام يقطر من يديك، لقد جئت شيئًا نُكِّرًا وركبت داهية إدًّا.

لم يدرك لما راح يتأمل يديه فوجد الدماء تقطر منهما وتغطي البقعة التي يجلس فيها. رفع يديه أمام وجهه متأملًا إياهما بذعر هائل ثم عاد لمتابعة وجه الشيخ الذي كسته سحابة غضبي وهو يقول:

- ألا تبَّت يداك.

كاد جسد خيسوس أن ينهار، فخرَّ على وجهه مستندًا على كفيه اللذين اختفت منهما الدماء؛ وبالكاد استجمع أنفاسه وانتزع صوته من قبضة خانقة تعتصر حلقة عصرًا وقال بوهن وعينان زائغتان:

- ما الذي ألمَّ بي؟

هزَّ الشيخ رأسه بأسى وحرك مسبحة مجدداً فتفاقت آلامه والشيخ يقول:

- ويلٌ لعبد تجاوز حدَّه وتعدَّى قدره؛ فيخرجه الله عن دائرة الحلم ويسلبه مدد الإمهال ويغلَّ يديه ورجليه ويشدُّ على قلبه؛ ولا يُبلِّغه الآمال.
- من أنت؟

تساءل خيسوس بذهول وبصوت مُتَحَشِّرٍ فأجابه الشيخ بحزم:

- عن هذا جئتُ تسأل؟ أم عن الخضر وذِي القرنين؟
ضربته المفاجأة بقوة وعلى الرغم من آلامه هتف بلهفة:

- كيف عرفت؟

كأنَّ الشيخ لم يسمعه، راح يقول:

- ليس عن السفينة تسأل ولا الغلام ولا الجدار.

صمت هُنيئَةً تاركاً الفضول ينهش خيسوس نهشاً ثم قال ببطء وبصوت عميق:

- أنت تريد النَّبع.

تزايد لهائته وتزايدت ضربات قلبه وأوماً برأسه وقال بصوت مرتجف وقد بلغ به الفضول مداه:

- ما الذي تعرفه عنه؟

لم يُجِبْهُ الشيخ. زاد تحديقه في عينيه ف شعر برجفة باردة تضرب جسده فيما اتسعت عينا الشيخ حتى كادت تبتلع خيسوس الذي راح يُدَقِّق النظر فلمح

في عينيَّ الشيخ نبع ماء صافٍ رَقراق حوله خضرة منبسطة. شهق من هول المفاجأة وأطلق آهة عالية فعادت عينا الشيخ كما كانت وخيسوس يسأل بلهفة طاغية:

- كيف أجده؟

هزَّ الشيخ رأسه وقال:

- يجده القلب النقيُّ الطاهر؛ لا الباحث عن المجد والسطوة والنفوذ.

ارتجَّ جسد خيسوس لدى سماعه تلك الكلمات وشعر وكأن أطرافه تبيَّست؛ حاول النطق فلم يقدر؛ فطفق يُحدِّق في عينيَّ الشيخ بخوف هائل فيما أخذ الشيخ يقول بحزم:

- أمهلك الله ووضِع في قلبك نورًا فأعرضت عنه؛ وأخذت جذوته؛ وسلكت غير السبيل القويم؛ حتى تهافتت في ضلالتك وعمهت في سكرتك، وجهمت في غَوَايتك، ولطالما حدثتكَ نفسك عن سر هذا النور وكنهه؛ ولم تدري أنه من أثر النفخة الإلهية وبقايا من الفطرة السويَّة؛ لكنك أبيت إلا السعي الخبيث والدرب الضالَّ؛ فخُضت في الدم الحرام واستعذبتَه؛ واقترفت الشرور والآثام؛ فصارت نفسك خبيثة دَنَسَة نَزَّاعة إلى التجبُّر والتسلُّط؛ ولا دين يَمْنَعك ولا حُلُق يردعك؛ وأَمَنْت أهل الأرض ولم تخشَ بطشتهم؛ لذا جاءتك غارة من الله.

صمت الشيخ بُرْهة، رَمَق خلالها خيسوس بنظرة حادة ثاقبة ثم قال بصوت عميق وكأنه قادم من جوف الزمان:

- يُخزِيكَ الله.

أخذ خيسوس ينشج بعنف، وتعاضم خوفه وهلعته. طوال حياته لم يفرق من شيء قط؛ ولا هاب أحداً أبداً؛ لكن الآن رعب هائل لا حدود له استولى على قلبه واكتنفه فراح يسأل:

- من أنت؟

- الشيخ خضر عبد من عباد الله.

قالها الشيخ فارتج لها جسد خيسوس وتقوّضت أركانه؛ وتزلزل بنيانه؛ فأطلق صرخة عنيفة ارتجت لها جدران الجامع؛ وانهار على وجهه مغشياً عليه. لم يدر كم ظل فاقداً للوعي لكنه أفاق على يد تُعينه على النهوض وأحدهم يسأل بانزعاج:

- ما الذي اعتراك يا رجل، تبدو محمومًا.

لم يبال خيسوس؛ ألقى بصره حيث كان الشيخ فلم يبصر أحداً. كان الموضع خاليًا؛ فأشار قائلاً:

- أين ذهب الشيخ؟

قلب الرجل كفيه بحيرة وقال:

- أي شيخ؟ أرقبك منذ جلست هنا وأنت تُحدث نفسك؛ وتصرخ وتتأوه.

- أحدث نفسي؟!!

قالها بذهول طاغ وهو يحاول الوقوف فعاونه الرجل وهو يقول:

- أنت محموم ويبدو أنك تهذي؛ يجب أن يراك طبيب.

أصابته صدمة عنيفة جرّاء كلمات الرجل؛ فهرع ناحية باب الجامع مترنّحاً متعثراً. غامت عيناه فاتكأً بظهره على جدار الجامع دافعاً رجله كي لا تتخذُ لانه فيتهاوى أرضاً. التقط أنفاسه وهمّ بالخروج لولا أن التقطت أذناه صوتاً ألفته منذ قليل؛ فاستدار خلفه ليجد الشيخ خضر جالساً في المحراب يرمّقه بنظرات صارمة وهو يتلو قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أصابه الهلع وارتجفت كل ذرة في جسده وزاغت عيناه؛ ضاعت منه المعالم والأشياء، اختلطت الصور وتاهت الذكريات. طنين حادّ ضرب رأسه فرفع يده ساداً أذنيه فتعاضم الطنين وتزايد فأطلق صرخة مُلتاعة جذبت إليه الأنظار فيما هروا مغادرًا المسجد من دون أن يتتعل نعليه لمحّه خوان فأصابه الدهول من هيئته، فركض ناحيته متسائلاً بوجَل:

- ما الذي دهاك يا سيدي؟

طفق خيسوس يردد كلمات غير مفهومة وجسده يرتعش بعنف.

- الشيخ، النبع، لقد رأيته، إنه

لم يُتم عبارته وسقط مغشياً عليه بين يدي خوان الذي احتواه بين ذراعيه وحمله إلى العربة وانطلق به إلى بولاق. وضعه داخل السفينة وأحضر طبيباً ليراه قبل المغادرة. جسّ الطبيب نبضه واستغرق وقتاً طويلاً في تفحصه فيها سقط خيسوس في إغماء عميقة لا قرار لها ولسانه لا يكف عن الهذيان بصوت خفيض غامض:

- الخضر، النبع.

أنهى الطبيب فحصه ونهض مواجهًا خوان قائلاً:

- قلبه مريض بشدة، إنه يحتضر.

وقعت الكلمات كالصاعقة على رأس خوان فقال بارتياح:

- كان على ما يرام حتى ساعة مضت.

انتقل الذهول إلى الطبيب الذي أخذ يقول في ثقة:

- مُحال؛ هذا قلب عَطِبَ منذ سنوات طويلة؛ إنه مَحْطَمٌ ومُنْهَك؛ هذا قلب رجل ينتظر الموت منذ أعوام.

رد خوان بعصية بالغة:

- أقول لك كان يمتلك جسد ثور وقلب أسد حتى ساعة مضت، ما الذي اعتراه حتى صار كالتركام.

قلَّبَ الطبيب كفيه بحيرة ثم قال بنفاد صبر:

- إن كان ما تقوله صحيحًا فيبدو أن أحدهم اعتصر قلب سيدك منذ قليل؛ القلب الذي فحصته يصرخ وجعًا وألمًا؛ ساعاته في الدنيا قليلة.

قالها الطبيب ومضى إلى حال سبيله بينما أخذ خوان يتأمل جسد خيسوس الذي شحب وامْتَقَعَ وارتسمت على وجهه أسمى آيات الرعب والفرع فتمتم خوان بذهول قائلاً:

- أيُّ لعنة تنزلت عليك داخل ذلك المسجد، وأيُّ دواهٍ دهتك؟ وما الذي دفعتك إلى وُلوجه؟!

دقائق وأتاه صوت الربَّان من أعلى معلناً مغادرتهم الميناء. لم يكف خيسوس عن هذيانه مطلقاً أنيناً متقطعاً كالنُّباح، فدنا منه خوان مُصْغِياً

محاولاً تبين ما يقول لكنه لم يفلح. أما خيسوس فقد كان في شغل شاغل؛ لجة عميقة سقط فيها وراح يتجلجل داخلها بقسوة رهيبة. كان تشخيص الطبيب دقيقاً للغاية؛ لكنه أغفل أمراً مهماً لم يسعفه علمه ليحيط به؛ الروح في تلك اللحظة كانت روح خيسوس في ذروة اضطرابها؛ منهكة؛ عليلة؛ خائرة؛ مثقلة بأحمال تنوء بها الجبال؛ وبأوزار وآثام لو وزعت على أمة لوسعتهم. كان يخوض في لجة عميقة؛ ضحلة؛ زلقة؛ والسواد الدامس ابتلعه وأحاط به من كل جانب. أخذ يتلوّى وأنيته يخفت تارة ويعلو تارة، وتارة ينقطع تماماً، حتى تتابه رعدة فيصدر أنيناً عاجزاً مكتوماً. صرخات المعذنين والمذنبين كانت تطرق مسامعه كرعد غاضب جامح. كان خائفاً هلوغاً مذعوراً وهو يدنو من نهايته لينضم إلى جوقة الصراخ تلك؛ وفي داخله كانت كلمات الشيخ خضر تتردد بصوت مهيب:

- يُخزِيكَ اللهُ.

انتفض جسده بعنف هائل وانفتحت عيناه لتطالع عيني خوان الذي فزع وكاد أن ينقلب على ظهره فيما أطلق خيسوس صرخة رهيبة ارتجت لها السفينة واهتزت ثم خمدت روحه إلى الأبد؛ لينبلج الصبح ثانية وليعود الجو صحواً منعشاً؛ بينما قفل خوان عائداً إلى إسبانيا حاملاً ذكرى نهاية أليمة تعسة لأحد أهم رجالات الأخوية؛ لكن عزاءهم أنه عاد بكتاب شوق المستهام وصاروا على بعد خطوة واحدة من فك رموز الخارطة وطلاسمها.

الفصل الثاني عشر

انعكس وَهَجُ الفرن الطينِيِّ على وجه هيام فزادها جمالاً وفتنة. احمرَّت وجنتاها وجبهتها، بينما ارتصَّت بضع قطرات من العرق على وجهها فتركتهم يداعبونها برفق فيما انشغلت هي بإخراج آخر أرغفة الخبز من داخل الفرن الذي بدأت نيرانه تجبو بعض الشيء، فيما عبَّقت رائحة الخبز الأجواء حولها. للخبز رائحة مثيرة، تضرب خياشيم المرء فيشعر بدفء وحين إلى شيء ما لا يدري كُنْهه. انتهت وتراجعت في مقعدها الخشبي الصغير وأطلقت تنهيدة حارة طويلة وهي تغلق عينيها وكل ذرة في جسدها تشكو عناء يوم شاق بدأته مع أولى نسمات الصباح. ظلت على جلستها تلك لأكثر من دقيقة قبل أن تزفر بحرارة وهي تلتقط طاجناً فخارياً من جوارها لتضعه على فوّهة الفرن، ثم تنهض من مكانها بخفة ليبدو جلبابها الزهريّ الفَضفاض الذي تناثرت عليه ذرات الدقيق ولطخات العجين وغبار الفرن ليشكلوا لوحة فنية عبثية مثيرة. توجهت إلى رفٍّ خشبيٍّ مُعلّق على الجدار وتناولت من فوقه إناء السمن وعادت به لتضع منه ملعقة كبيرة داخل الطاجن ثم أَلقت ببعض من شرائح البصل والطماطم على السمن المذاب وأخذت تقلِّبهم برفق. تركتهم على النار وسحبت لفافة ورقية بُنيّة من جوارها وفصّتها لتجد بضع قطع من اللحم بداخلها فدفعت بهم داخل الطاجن ومن بعدهم قطع من البطاطس وحبّات البازلاء، ثم أضافت البهارات والماء الساخن وقلبت المحتوى جيّداً، ثم غطت الطاجن بغطاء فخاريٍّ ودسّته داخل الفرن تاركة

إياه ينضح على نار هادئة. أخذت تلتقط أنفاسها ببطء وهي تمسح عرقها بكُمّ جلبابها. قررت أخذ حَمَامٍ ساخن تستعيد به حيويتها ونشاطها وتنفض به عن كاهلها عناء اليوم، وأيضاً الليلة ليلة الخميس، وخميس أو شُك على العودة. ابتسمت عند تلك اللحظة ونهضت برشاقة متوجهة ناحية الحَمَام لولا أن استوقفتها طرقات هائلة كادت أن تقتلع باب الدار من مكانه. وجلت بشدة وارتجف جسدها وتسمّرت مكانها لثوانٍ قبل أن تخلع قدميها من الأرض بصعوبة وتتجه ناحية الباب الذي انهالت عليه الطرقات مجدداً. دنت من الباب بحذر حتى صارت خلفه وبصوت خائف متوجس انتزعته من حلقتها انتزاعاً قالت:

– مين؟

ساد صمت طويل كالدهر فكررت سؤالها مرة أخرى بلهجة حاولت أن تبدو قوية فجاءها صوت أجش متحشرج بهمهمات لم تبينها لكنها كانت كفيلة بصبّ الرعب داخلها صَبّاً. أزاحت مزلاج الباب وتركتها ينفرج قليلاً لُطّال وجه الطارق الذي ما إن رآته حتى اكتنفها رعب هائل وشهقت بارتياح وقلبها يكاد يقفز من بين أضلاعها هلعاً وفزعاً، بينما وضعت يدها على فمها لتمنع نفسها من الصراخ.

انسحبت الشمس خالفة وراءها بضعة خيوط أخذت تلملم نفسها ساححة لليل أن يفرض سيطرته ووسطوته، فيما أخذ خميس يهرول عائداً إلى داره مُميّناً نفسه بوجبة عشاء ساخنة وأمسية أمام التلفاز مستمتعاً ببرنامج أوسكار تعقبها سهرة تُحييها هيام، ولم لا، فالليلة ليلة خميس وقد قرر أن

يقضيها في الدار عوضاً عن المقهى. جمح به خياله وشطح بعيداً. راح يُمعن التفكير بأي قميص نوم ستحيي هيام الليلة. ربها بالأحمر الطويل أو الأسود المزركش. يروقه كثيراً هذا الأخير، لكن يعيبه أنه مهترئ بعض الشيء، ذهب بريقه وأبلته كثرة ليايله. إذن، لترتدي الليلة القميص الـ. توقّف ونكس على رأسه، يا أحمق هي لا تملك سوى هذين القميصين. هرش في رأسه قليلاً ثم لَوّح بسبابته أمام وجهه قاطعاً على نفسه عهداً بشراء قميص جديد لهيام من أول راتب يتقاضاه من الوظيفة الجديدة.

لكن حين اقترب من داره لفت انتباهه منظر هيام التي أخذت في الهرولة ناحيته ووجهها يُنبئ بمصيبة عظيمة، هاله الأمر وألقى في قلبه الفزع فهرع ناحيتها متسائلاً بخوف:

- مالك يا بت في إيه؟

- زغلول أخويا.

قالتها برعب واضح ودموعها تهطل بغزارة فصاح خميس بجزع:

- مات؟

- لا بعد الشر، ده لبسه عفريت.

انفعل عليها بحدة:

- عفريت إيه يا بت إنتي اتخبلتي؟!

ضربت ييدها على صدرها برعب:

- زي ما بقولك كدا، لبسه عفريت ويبرطم بالإنجليزي.

دلفا سريعاً داخل الدار متأملين زغلولاً الذى كان في حالة هياج وعصية شديدة وعينه محمرتان كالجمر وهو يتحدث مع شخص ما غير مرئي لهما موجهاً إليه كلمات نابية بالعربية أتبعها بكلمتين إنجليزيتين.

همس خميس برعب وهو يضم هيام إليه:

- يا داهية دقي، ده عفريت صح يا هيام.

- والعمل إيه؟

تساءلت بفزع هائل فأجابها بثقة:

- مفيش غيره هو اللي هيسلك معاهم.

- مين ده؟

انهالت الطرقات على باب فوزي كالطرقة، فتح الباب على عجل وقد اكتنفه الرعب وما إن رأى خميساً حتى أكفهر وجهه وصاح في غضب وهو يزددرد لعابه:

- في إيه يا خميس بتخبط كده ليه؟ وإيه اللي جابك دلوقتي؟

رد معتذراً:

- معلش يا شيخ فوزي فيه مصيبة حصلت وما حدش هيقدر عليها غيرك أنت.

أصابت الكلمات فوزياً بحالة من النشوة والسعادة كونه الوحيد القادر على حل المشكلة التي لا يدرك كنهها بعد، لكن مجرد إطراء خميس عليه أصابه بنوع من الزهو والاعتزاز فتساءل بعُنفهية وكبر:

- خير، جرى إيه؟

- الواد زغلول ركه جوست.
- نعم يا أخويا، ركه إيه؟
- قصدي لبسه عفريت.
- أعود بالله إزاي؟
- هز خميس كتفيه في حيرة:
- وأنا إيه عرفني، تلاقيه دلِق مية سخنة في الحمام، ولا نام في حنة ضلمة.
- المهم لازم تيجي حالا، الواد حالته متأخرة والجن هايج.
- اسبقني أنت، وأنا هجيب اتنين إخوة عفاي معايا عشان يمسكوا زغلول وهحصلك.
- لم تمض نصف ساعة حتى كان زغلول مُلقًى على الأرض وقدماه مرفوعتان يمسك بهما شخصان بينما عصا فوزي تنهال كالطر على قدمي زغلول الذي أطلق صرخات فزع وألم رهيبة.
- سيبوني يا ولاد الكلب.
- اطلع منه يا عدو الله.
- قالها فوزي بصوت عالٍ ارتجَّ له خميس وهيام وهما يقفان في آخر الحجرة فالتصقا ببعضهما من شدة الفزع وزغلول يصرخ:
- والله لأعورك يا فوزي، بطل ضرب يا وله، العفريت طلع خلاص.
- تساءل خميس بتخوف:
- بقالك ساعة بتضرب يا شيخ فوزي، مفيش حنة في جنة الواد زغلول إلا واتهرت ضرب، حتى لا مؤاخدة.

- أجابه فوزي بثقة عالية:
- لازم نضرب يا خميس عشان الجن يطلع، كل ما نضرب في حته يهرب لخته تانية، لكن على مين، إحنا وراه.
- انهالت الضربات مجددًا وخميس يواصل تساؤلاته القلقة:
- الواد زغلول مش ممكن يموت من الضرب؟
- هز فوزي رأسه نافيًا بثقة:
- أبدًا الضرب كله على الجن، زغلول مش حاسس بحاجة خالص.
- تساءل خميس باستغراب بينما هيام تلطم في صمت:
- آمال هو بيصوت ليه؟
- مش زغلول اللي بيصوت، ده الجن بيتكلم على لسان زغلول.
- قالها فوزي وهو يزيد من جرعة الضرب فبدأ زغلول في إطلاق وابل من السباب والشتائم أنهاهم بسبب اللغة الانجليزية، فتوقف فوزي واستدار ناحية زميله بذهول:
- ده مش جن، دي جنية عاشقة.
- غمغمت هيام ببكاء:
- يا ميلة بختك يا زغلول، ولا واحدة في البلد كانت راضية بك، ويوم ما تعشقك واحدة تكون جنية.
- تساءل خميس متوجسًا وهو يقترب منهم:
- والعمل إيه يا شيخ فوزي؟

بدأ فوزي في إخراج عدة أدوات من حقيته وهو يقول في ثقة:

- لازم يتكوي حالاً.

- مين الي هيتكوي؟

تساءل خميس ببلاهة، فأجابه فوزي ببساطة:

- زغلول، قصدي الجن الي لابس زغلول.

لطمت هيام على وجهها وبدا التردد على وجه خميس وهو يتساءل:

- وده مفعوله أكيد؟

- طبعاً طريقة مجربة، ثلاثين كوية في أماكن متفرقة من الجسم وبعدها

الجن بيتحرق.

صاح خميس بذهول:

- يا داهية دقي، ده زغلول هو الي هيتحرق.

نهره فوزي بحدة:

- ما تقلقش يا خميس، هي أول مرة ولا إيه.

بدأت عملية الكي وزغلول يصرخ مستغيثاً ومستنجداً بخميس.

- الحقني يا ض يا خميس بتتفرج علياً وساكت، بت يا هيام الحقني أخوكي.

لم يرد خميس كان منهمكاً في عد مرات الكي بتركيز شديد، صاح أحد

الرجال بصحبة فوزي:

- اتناشر كوية.

انفعل خميس بغضب وهو يقترب منهم ملوحاً بيده:

- أنت بتعد غلط يا جدع أنت وهو، عايزين تضروا الواد ولا إيه؟

التفتوا إليه مدهوشين فصاح:

- دي رقم عشرة مش اتناشر.

تأمل فوزي مساعديه بتردد ثم قال بارتباك:

- خلاص، يبقى هنعيد الكي من الأول، بس ركزوا في العد يا جماعة.

مع بدء الكي من جديد وتزامناً مع صرخات زغلول الهادرة تناهى إلى مسامع خميس صوت طرقات خافتة على باب الدار فاتجه ناحيته طالباً من هيام إكمال العد مكانه.

كان الطارق جمعة القهوجي الذي وقف يلهث بشدة وهو يحاول التقاط أنفاسه:

- مالك يا ض يا جمعة في إيه؟

- أنا جايلك بخصوص زغلول.

قالها بصوت متقطع من شدة اللهاث فاستغرب خميس:

- هو الموضوع اتعرف في القهوة؟

هزَّ جمعة رأسه إيجاباً:

- أيوه اتعرف والناس هناك زعلانة.

- قولهم ما يقلقوش الشيخ فوزي بيعالجه دلوقتي.

بدت الدهشة على وجه جمعة بينما تعالى صوت هيام:

- ستة وعشرين.

صاح جمعة في استغراب:

- فوزي إيه يا خميس، ده لازم يروح المستشفى.

- مستشفى إيه يا أشلح، هو الدكاترة بيعالجوا من الجن؟!!

تمتم جمعة بذهول:

- يا نهار أسود جن إيه يا جدع أنت.

- الجن اللي لابس زغلول.

- يا جدع ما فيش جن ولا حاجة، كل اللي حصل إن الواد زكريا الفرارجي

وعوض الفوال غفلوا زغلول وحطوله برشامة صراصير في كوباية الشاي،

عشان كده هتلاقي زغلول بيهلوس.

ارتجّ جسد خميس من المفاجأة وفَعَّرَ فاه بينما صوت هيام يطرق مسامعه

ممتزجًا بصراخ زغلول:

- تسعة وعشرين.

ارتد عائدًا إلى داخل الدار بسرعة فائقة وهو يصرخ بصوت هادر:

- وقف يا جدع منك له، وقف يا جدع.

في اليوم التالي ارتقى زغلول على السرير وهو في قمة الإعياء والتعب. لم

تترك الكدمات جزءًا من جسده إلا وحلّت عليه. وقف أمامه خميس وهيام

والأسف باد على وجهيهما وهيام تحمل صينية عليها دجاجة محمرة. بصوت

أشبه بالبكاء قال زغلول مؤنبًا:

- بقى أنت صاحب يا معفن، سايب الوحوش دول يجلدوني ويقطعوا فيا، لا وإيه واقف تعد وتغالط فوزي في العد كمان، يا ابن الكلب خلتيه يعيد الكوي من الأول.

ارتبك خميس وقال معتذراً:

- ياض أنا كنت خايف عليك، وكنا مفكرين لبسك جن.

ازدادت لوعة زغلول فصرخ:

- جن لما يركبك، الله يرحمك ياما كانت دايمًا تقولي آخرتك أنت وهيام على إيد خميس.

اندفعت هيام مدافعة عن خميس:

- والله يا زغلول كان خايف عليك، أنت ما شوفتش نفسك كنت عامل إزاي.

أيد خميس كلامها:

- آه والله كنت بتبرطم بالإنجليزي.

صرخ زغلول غاضبًا وهو يلوح بيده:

- نهاركم أسود، هو عشان قلت يس ونو وتبًا لك بالإنجليزي يبقى كدا لبسني جن.

أشار إلى خميس موجهًا حديثه إلى هيام:

- أهو جوزك اللي عرفني الكلام ده، من الأفلام اللي بيفرجني عليها.

أراد خميس إنهاء الحوار وإغلاق تلك الصفحة المخزية فقال:

- ما خلاص بقى عدت على خير.

ولول زغلول وصاح بيكاء:

- خير إيه، ده أنا اتكويت بالنار في كل حطة في جسمي حتى في..

وضعت هيام يدها على وجهها خجلاً بينما هرش خميس في رأسه وهو يقول:

- طب اسكت واحمد ربنا، ده أنا لحقت الواد الشيخ فوزي قبل ما يكونك الكوية الأخيرة، لو تعرف كانت فين كنت هتروح فيها.

انتحب زغلول وأخذ يضرب بيده على رأسه:

- والله يا ولاد الكلب أخف بس وأقف على حيلي وهوريكم شغلکم، أنتم والكلاب بتوع القهوة الي حطو ليا البرشامة. اندفع خميس في الكلام بحدة مزوجة بحماسة:

- ليه يا أهطل ما فيش وراك رجالة، أنا خلصت معاهم الموضوع وعملت قعدة لهم الصبح وهدلت الي جابوهم.

- وعملت معاهم إيه يا ناصح؟

أجاب خميس بجدية وثقة عالية:

- كوباية الشاي الي حطو فيها الحباية هيشيلو هما حسابها أمال إيه.

حدجه زغلول بنظرة دهشة قاتلة غير مصدق ما سمعه، هزَّ رأسه ثم لطم وجهه قائلاً:

- ده الي ربنا قدرك عليه، الله يرحمك ياما، يا ريتني خدت بكلامك.

أسرعت هيام ناحيته بالدجاجة إنقاذاً للموقف:

- قلبك أبيض بقى يا زغلول، ده أنا حتى عاملة فرخة محمرة نتغدى بها
سوا.

هدأ قليلاً وهو يرمق الدجاجة بنهم ولعابه يسيل، هرش في رأسه ثم
حدج الاثنان بنظرة مأكرة
- عاوزني أسامحكم:

صاحا في نفس واحد:

- آه والنبي يا زغلول.

ابتسم بخبث:

- ييقى تسيبوا ليا الفرخة لوحدي.

وجم خميس بينما صاحت هيام:

- موافقين.

وكزها خميس في كتفها:

- طب هاخذ حته من الورك.

- ولا حته منها، ده شرطي.

ربتت على كتف خميس:

- خلاص بقى، سيبها له والأسبوع الجاي هديك حته من الورك.

رمقه خميس بغیظ وهو يغادر الحجرة:

- ماشي يا طففس.

حمل زغلول الصينية ووضعها أمامه على السرير بلهفة ولعابه يسيل.
أمسك بها وهمَّ برفعها ناحية فمه فانفتح الباب فجأة وخميس يصيح بتوسل:
- طب حنة جناح حتى.
- أبداً. امشي غور اطلع برا عشان تبقى تعرف تجيب فوزي بسرعة.

أنهت نور مقالتها وخطت بقلمها آخر كلماته. نَحَّت القلم جانباً والتقطت الورقة بخِفَّة ورفعتها أمام عينيها متأملة بغبطة ما أنجزته. مَطَّت شفتيها وهي تمر ببصرها سريعاً على السطور المتراسة أمامها بزهو قبل أن تضع الورقة على مكتبها وترجع بظهرها إلى الخلف مسترخية في مقعدها الوثير مطلقة تنهيدة حارة طويلة. ضعطت زراً بجوارها وهي تبتسم فسرى في أرجاء المكتب موسيقى خلابة مثيرة للألباب، انبعثت من سماعات موزعة بعناية ودقة في جنبات المكان. بعض الأشياء لديها القدرة على زرع البراءة فينا مجدداً ولو بشكل مؤقت. لحظات نعود فيها أطفالاً نضحك ملء أشداقنا ونفرح ملء قلوبنا بفضل قطعة شيكولاتة أو أغنية قديمة، أو معزوفة موسيقية تذكرنا بأيام خوال مضت. أغمضت عينيها واسترخت تماماً تاركة الموسيقى تنساب داخل أذنيها وتتسلل إلى عقلها وقلبها حتى غلَّت كيائها بالكامل. للموسيقى سحر غامض أخاذ، يخلق حاجزاً وهمياً بيننا وبين الواقع، وعلى الرغم من وهميته فإنه ناجع للغاية ويجدي نفعاً، ولو للحظات تنتعش خلاله الروح ويسكن فيه القلب. سقطت في حالة من النشوة العارمة لم تفق منها إلا على طرقات خافتة على باب مكتبها فصاحت بتكاسل وتبرُّم:
- ادخل.

انفرج الباب قليلاً كاشفاً عن طارق الذي أطلت من وجهه ابتسامة
وادعة فنهضت نور من مكانها بسعادة مستقبلة إياه بحرارة:

- لا لا. مش مصدقة نفسي، طارق منصور بنفسه في مكثبي المتواضع.

تلفت حوله وأطلق ضحكة عالية قبل أن يقول مازحاً إياها:

- لما مكتبك يكون متواضع، يبقى مكثبي أنا أقل من الحقير، معرفش
إن الصحف القومية بتصرف كويس على مكاتب الصحفيين، ولا المميزين
بس؟

ضحكت وهما يجلسان على أريكة جلدية بنية اللون ونور تقول:

- أهو المكتب المميز ده متغيرتش حاجة فيه من ثلاثين سنة غير الصحفي
اللي بيقعد على الكرسي.

هم بالردّ لولا أن استرعى انتباهه الانسياب الموسيقي الهادئ الذي غلف
المكان فأغمض عينيه بنشوة لثوانٍ قبل أن يعاود فتحهما قائلاً:

- كسارة البندق. تشايكوفسكي ١٨٩٢م.

- مقطوعتي المفضلة، بكافئ نفسي بها بعد انتهائي من عمل مميز.

صمتت قليلاً وحدجته بنظرة فاحصة:

- وأنت مقطوعتك المفضلة إيه؟ عارفة إنك عاشق للموسيقى.

أجابها بتلقائية:

- كارمينا بورانا، لكارل أورف.

مطت شفيتها وهي تقول بمكر:

- تصدق متناسقة ومتلائمة تماماً مع شخصيتك وطبيعة عملك.

ندتُ منه ضحكة خافتة:

- وإيه سر تحليلك اللوذعي يا أستاذة؟

- كارمينا بورانا شيء من عقب التاريخ، فيها سحر وإثارة وغموض.

هزّت رأسها وأتبعَت:

- أساساً كارل أورف استوحاها من قصائد عُثر عليها في العصور الوسطى، أربعة وعشرين قصيدة بعضها مكتوبة باللاتيني والألمانية البافارية الجنوبية وعامية فرنسية، كوكتيل لغوي تاريخي غامض ومثير، وده اللي بحسه في مجال عملكم، الآثار والحفريات والمقابر، التاريخ اللي بتتقَّبوا عنه وتستخرجوه من تحت الأرض، شيء في غاية الروعة والإثارة.

أغمض إحدى عينيه وراح يَحْكُ أسفل ذقنه قبل أن يقول:

- تحليلك رائع، لكنه مش حقيقي، أنا بسمعها أو بحب أسمعها عشان خاطر بابا الله يرحمه.

ترقرقت الدموع في عينيه وقال بصوت مبحوح:

- أنا بسمعها مرة واحدة في السنة بس، وتحديدًا يوم ذكرى وفاة بابا. عارفة ليه؟

لم ينتظر منها إجابة طفق يُتبع ودموعه تتساقط:

- بحاول أعمل حاجة كان بيحبها، كفاية خيبات الأمل اللي شافها فيا قبل موته، فشلي كان السبب في وفاته.

تأمَلْتَه بحنوً بالغ وهي تقول:

- الفشل والنجاح ملوش مقياس معين، كل واحد له مقياسه وحكمه، ومش ضرورة برضه إن المعايير اللي الناس بتحكم بها على الفشل أو النجاح تكون صحيحة، فيه ناس كتير فاشلة بالمعايير دي، لكن في الحقيقة هما ناجحين، ناجحين بمعاييرهم الخاصة، بمعاييرهم الإبداعية والأخلاقية، وأنا شايفاك ناجح جدًا.

- معياري الأهم كانت عيون بابا، ومع الأسف كنت فاشل بمعايره، كنت نقطة سودة في حياته.

قالها وهو يُمعن النظر في عينيَّ نور، فلمح فيهما طوفان كلام يوشك أن يندفع فتدارك نفسه سريعًا ولملم شتات أحزانه وكتم أناته في صدره وغير سريعًا مجرى الحديث ليقطع عليها الاستفاضة في هذا الشأن:

- وإيه بقى العمل المميز اللي بتكافتي نفسك عليه، أتمنى يكون شيء ملوش علاقة بمشاكل من أي نوع.

حركت عنقها يمنة ويسرة وقالت بمكر تعمدت إظهاره:

- المشاكل اللي في حياتي كلها كانت بسبب شغلكم، أنتم تفتحوا مقابر وتاخذوا المجد والشهرة وأنا يتفتح عليّ أبواب جهنم.

قالتها وراح الاثنان في نوبة ضحك لم يوقفها إلا قول نور بجدية مجيبة عن سؤال طارق:

- كنت بكتب موضوع عن الشرِّ المتبدل.

عقد حاجبيه وابتسم مستفسرًا:

- الشر فيه مبتدل وغير مبتدل؟

اعتدلت في جلستها وراحت تقول بحماسة وحرارة:

- دي نظرية للفيلسوفة الألمانية حنة آرنت، بتقول فيها إن الشر لما يصدر من الشيطان أو من إنسان سادي عنيف، يمكن تحليله وتبريره بأن مرتكبه يستمتع بشره ويتلذذ به، شخص منحرف نفسياً، أو متطرف دينياً، يرتكب القتل باسم الدين زي محاكم التفتيش. لكن الطامة لما الشر يصدر من شخص سوي نفسياً، بمعنى أنه لا يستمتع ولا يتلذذ باقتراف الشر، لكن يقوم به في إطار مهني.

صمتت قليلاً ومطت شفيتها مستطردة:

- مثلاً شخص في وظيفة معينة تتيح له التحكم في مصائر العديد من الأشخاص، وضربت آرنت مثل بـ أدولف أيخمان، شخص عادي لا يمتلك قناعات أيديولوجية عميقة أو متطرفة أو دوافع شر، لكن وظيفته كمسؤول عن عمليات نقل اليهود وغيرهم إلى معسكرات الاعتقال الخاصة بـ النازيين في فترة الحرب العالمية الثانية تسببت في عذاب ومقتل آلاف من البشر. أيخمان أبدى براعة وحنكة في وظيفته وتفنن في الشر من أجل تعزيز مساره الوظيفي والمهني والترقي في الحزب النازي.

هز طارق كتفيه وقال بهدوء:

- لحد دلوقتي مش شايف فرق بين الشر الجذري لو صح التعبير والشر المبتدل بتاع آرنت.

- الفارق شاسع بين الاثنين، الشر المبتدل شر خفيف جدًّا، شيء رهيب وفظيع، لأنه يصدر من ناس عادية، موظفين زي أيخمان، شخص بيروقراطي يتفنن في الشر من أجل إرضاء رؤوسه والترقي الوظيفي، وده بيحول الشر

من عمل قذر منبوذ غير مستساغ إلى شيء روتيني، إنسان ينفذ الأوامر بدم بارد بدون وجود شعور بأنه يقتل إنسان زيه، القتل والشر سيكون بالنسبة له أشبه بوجبة يومية معتادة، ومع الوقت يتحول الشر في نظر مرتكبه إلى مسألة خيرة لصالح المجموعة التي ينتسب لها أو يقدم لها الخدمات.

تنهّدت بعمق وأتبع:

- الشر المبتلل خطورته وأثره السلبي ممكن يمتد لقرون طويلة، وجزء كبير من مشاكلنا كعرب نتيجة شر مبتدل داؤه أصابنا من قرون.

بدا على طارق الفضول فانتبهت حواسه ونور تستطرد:

- زياد بن أبيه وابنه عبيد الله والحجاج بن يوسف، شخصيات في غاية الخطورة وأثرهم السلبي لا زلنا نعاني منه لحد النهاردة، الثلاثة كانوا قادة في دولة بني أمية ويمكن لولاهم كانت الدولة الأموية سقطت سريعاً، لكن وجود الثلاثة دول وبدخلهم كم هائل من الشر المبتلل كان لصالح بني أمية. الثلاثة أبدوا استعداد رهيب لعمل أي فعل مهما كان شنيع من أجل ترقيهم الوظيفي وإثبات كفاءتهم لمرؤوسيههم، فقتلوا وسجنوا آلاف الأبرياء، والحجاج هدم الكعبة واستحلّ المحرمات، وخطورة الأمر هنا إن الثلاثة دول وضعوا أسس للقمع والاستبداد، وأنشأوا مؤسسات خوف وترويع بحق الناس كانت نهج ودستور للأجيال التالية من الحكام، وبالتالي النهج الإسلامي الأول التي كان في عهد النبي والخلفاء الراشدين انزوى وتراجع لصالح قمع واستبداد بني أمية، التي أصبح يبطاردنا لحد اليوم.

حكّ أسفل ذقنه قليلاً وهو يتساءل:

- لكن على الأقل زياد والحجاج ساهموا في إنشاء دولة قوية، شايف إنك بتحاكميها بمعايير زماننا، يعني جلد الماضي بسوط الحاضر.
لَوَحَتْ بسبابتها نافية:

- إطلاقاً، أنا بحاكمها بمعايير زمانها، بمعايير مشروع الإمام علي بن أبي طالب الي كان بيقوم على أسس المساواة والعدل والحرية، والإعلاء من قيمة المواطن بغض الطرف عن جنسه ولونه، مشروع الإمام علي كان هدفه العودة بنظام الحكم إلى قواعد وأخلاق الإسلام الأولى، وده طبعاً كان عكس أطماع ورغبات بني أمية فكان لازم يسقطوا مشروع الإمام علي ويحاربوه بكل وسيلة، وعندك مثال تاني، قبل الحجاج وزياد نجح عمر بن الخطاب في إنشاء إمبراطورية قامت على العدل والحرية والمساواة، لكن هما أقاموا إمبراطورية دموية قائمة على الظلم والجور والأثرة، عارف عمر بن الخطاب نجح في كدا ليه؟ لأن كان هدفه الصالح العام للأمة، هدفه إنشاء دولة وسلطة قوية تخدم الأمة، وتكون الأمة هي السيد والمتحكم ولها الحق في اختيار حكامها ومحاسبتهم وعزلهم، نظام تكون الأمة فيه فوق الجميع، لكن بني أمية محرّكهم كانت العصبية القبلية والمصالح الشخصية المتعارضة مع مصلحة الأمة، كان همهم إن مقدرات وثروات الأمة تكون في خدمتهم، وإن سلطتهم تعلو كل سلطة بما فيها سلطة الأمة، عشان كدا لجأوا للظلم والقهر لكسر الأمة وتخويفها.

ابتسمت وهي تُردف:

- ثانيًا أي دولة تقوم على الظلم والقهر مستحيل يطول عمرها، دولة بني أمية من بدايتها أيام معاوية لحد آخر حكامهم حوالي ٩١ سنة، وده بالنسبة لعمر الدول قصير جداً، في النهاية ظلمهم وبغيهم أنهى عليهم.

لمعت عينا طارق وتداعت الأفكار إلى ذهنه وألحَّت عليه بشدة، همَّ بقول شيء ما لكنه أحجم ووأد أفكاره في مهدها وأهال عليها التراب مع دخول ساعي البوفيه إلى المكتب وهو يضع القهوة أمامهما ثم التفت إلى طارق مناولاً إياه مطروفاً أبيض كبيراً من دون عنوان، فتساءلت نور:

- إيه ده يا عم كرم؟

- الاستعلامات تحت بعته ليا أوصله مكتب حضرتك، قالوا حد سابه من شوية لطارق بيه.

تناول طارق المطروف بدهشة فيما انصرف كرم ونور تسأل بتوتر:

- أنت معرف حد إنك جاي هنا؟

- لا، خالص. أنا أساساً معدي بالصدفة.

- أو مال ده معناه إيه؟

قالتها بقلق بالغ فأجابها طارق بصوت مُفَعَّم بالخوف وهو يعتدل في جلسته:

- معناه إني متراقب، مفيش تفسير تاني.

طفقا يتأملان المطروف لثوان برهة، ونظرات التوتر تتقافز بين عينيهما قبل أن يشرع طارق في فض المطروف بيد مرتعشة، رهبة وخيفة مما سيعثر عليه. كان بداخله عدد من مجلة أمريكية. تأملها الاثنان في ذهول ونور تقول:

- دي نسخة من مجلة أمريكية، إيه المغزى من كذا؟

لم تكذُ تتم عبارتها حتى شهق طارق بارتياح وهو يشير بيده إلى خبر تصدَّر الصفحة الأولى وضع أحدهم عليه دائرة حمراء بقلم عريض ليميزه عن باقي الصفحة.

ألقت ببصرها حيث يشير وقالت:

- ده خبر عن مقتل صحفي أمريكي في ظروف غامضة إيه الي يخلصنا في كدا.

مال بنصف جسده العلويّ إلى الأمام وهو يتمتم برعب هائل:

- الصحفي ده اتصل عليا من حوالي عشرة أيام.

تراجعت في جلستها والخوف يتدفق في عروقها بغزارة:

- إيه؟ كلمك؟

أكمل بنبرته الخائفة:

- أيوه اتصل عليا، عرفني بنفسه وسألني سؤال واحد.

توترت أعصابه وتاهت منه الكلمات فيما بدأ العرق يتصبب منه بغزارة ونور تُصغي باهتمام وهو يستطرد:

- قاللي إنه بيبحث عن السر اللي مخيون والبروفيسور اتقتلوا عشانه، وسألني بصفتي صديقه عن أي معلومات تخص القضية.

تساءلت بهلع:

- وقلت إيه؟

- مقدرتش حتى أحرك لساني، قفلت التليفون، حاول يكلمني تاني مردتش، تصورت لحظتها إنها خدعة من الناس دي بتحاول تجس نبضي وتشوف هتكلم ولا لأ.

صمت قليلاً وعيناه تدوران بعصبية ثم أردف:

- ودلوقتي بيوصلوا ليا رسالة إنهم عارفين كل حاجة.
جحظت عيناها من شدة المفاجأة ولم تدرِ ماذا تقول، فظلت ترمقه في
صمت ذاهل وهو يغوص في مقعده من شدة الهلع، وعرقه يتصبب بغزارة،
ودقات قلبه تكاد تطرق مسامعها.

* * *

الفصل الثالث عشر

مصر - بلبس

يوليو 1798م

الجو حار خانق، والهواء رطب مُثقل بالأتربة، روح ثقيلة جثمت على القرية بأكملها ناشرة جواً من الكآبة والقلق سيطرت على الجميع. الخوف دهم العقول واستولى عليها، ورويداً رويداً راح يتسلل إلى القلوب كقاتل صامت يتهياً ليطعن ضحيته. ظل أسود قاتم راح يلتف حول الأرواح ويخنقها بعنف. خوف مُريع من قادم مجهول، جعل الأجساد ترتعش وترتجف، بينما جرت في الأوردة حمم من القلق والتوتر. الحقول خلت من أصحابها، لم يقترب منها أحد. الناس في شغل شاغل. دخل كل منهم داره وأغلق بابه، مفترشاً الخوف ومعانقاً التوتر. انتشلهم من وهدهتهم الثقيلة تلك أذان الظهر، فهرولوا ناحية الجامع الكبير ملتجئين الأمان، تهفو نفوسهم إلى كلمة تطمئنهم وتريح الخوف عن قلوبهم.

أنهى الشيخ محمد الدين صلاة الظهر، وانتحى بنفسه جانباً والوجوم بادٍ على وجهه. الروح الغريبة انتقلت إلى داخل الجامع، لم ينبس أحد بينت شفة، ولم يضافحوا بعضهم بعضاً، ولم يجهر أحدهم بتلاوة أوراد بعد الصلاة ليرددوا خلفه كما اعتادوا دائماً. الحيرة المقيتة مرتسمة على الوجوه، فيما يعصف الصمت المخيف بأرواحهم. تزايدت آلامهم مع لمسات يأس باردة بدت كضباب كثيف ضرب قلوبهم، فغمر نفوسهم شعور عارم بفقدان

الأمان. انصرفوا واحداً تلو الآخر حتى لم يبق سوى بضعة أشخاص التفوا حول الشيخ مجد الدين وأكبرهم سنّاً يسأله بقلق:

- هل وردتك أخبار من القاهرة يا شيخ مجد؟

لم يرد. هزّ رأسه نافيّاً ولاذ بصمته على حين اندفع شاب متحمس يقول:

- آخر ما وصلنا أن المماليك يحشدون قواتهم لإيقاف زحف الفرنسيات، وقد بلغني أنهم جمعوا حشوداً عظيمة.

تساءل الكهل بتخوّف:

- وهل باستطاعتهم التصدي للملاعين الفرنسيات؟ سمعنا ما حصل في الإسكندرية، وكيف ارتكب فيها الملاعين مذابح بشعة بحق الأهالي.

- لقد أغضبهم وفاجأهم مقاومة أهل الإسكندرية وعدم الاستسلام لهم، لكن المماليك غير، المملوك الواحد على جواده قادر على الفتك بعشرة من الفرنسيات.

قالها الشاب وقد بلغت حماسته ذروتها على حين رفع مجد الدين بصره ناحيته وهو يقول ببطء:

- ليت الغلبة كانت بالتمني، لكنها بالقوة والعُدّة، والقوة لم تعد تُقاس الآن بمتانة الجسد وصلابته فقط، هناك ما هو أهم وأخطر.

اشرأبت إليه الأعناق وانتبعت الأذهان وهو يُتبع بحسرة مشوبة بالُم:

- بندقية في يد فتى متمرس، قادر على الفتك بعشرة من المماليك في غضون دقائق، فما بالك بجيش به عشرات الآلاف من البنادق والمدافع، جيش قويّ منظم ومدرّب بعناية ومهارة، وقادة خُبروا الحروب ودرسوها، أما مماليك

اليوم فهم جنود من ورق إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ويروك مقالهم، لكن عند الفعال تجد طبلاً أجوف فارغاً، لا قيمة له ولا شأن، فقط بأسهم علينا شديد وحردهم علينا غليظ.

اندفع الشاب قائلاً بانفعال وقد أحنقته كلمات مجد الدين:

- حتى وإن كانوا كما تقول يا شيخ مجد فإنهم حماة الدين والعرض، ولطالما كانوا درع الأمة وسيفها، ألم يكسروا المغول ويذلوا رقابهم؟ ألم يؤلموا الصليبيين ويأسروا ملوكهم؟ ألم يحرروا ديار الإسلام ويحموا الشرق بأسره طوال قرون؟

- كانوا كذلك يا بني، لكن للزمن تقلبات وتغيرات، وما أحنقك كلامي إلا لأنك تجد فيه حقاً تدافعه.

ابتلع الشاب ريقه بصعوبة واحمرَّ وجهه وهو يقول:

- كانوا وما زالوا يا شيخ مجد، ولن يخذلهم الله أبداً وسينصرهم على هؤلاء الكفرة الفرنساوية.

طفح الأسى على وجه مجد وهو يقول:

- أعتقد أنك لا تفهم عمق اتساع هشاشة أمتنا ومداه، لقد وصلنا قعرًا منحدرًا وعرًا لا أرى منه نجاة بعقليتنا هذه.

أصابته كلماته موضعها بدقة فارتجف بدن الشاب وزاغت عيناه. لكنه كان خائفاً، يبحث عن ملاذ آمن من مخاوفه وقلقه، ملاذ آمن، حتى لو كان وهمياً وحتى لو كان لبعض الوقت. فقال بصوت مضطرب على الرغم من محاولاته التماسك.

- ما هي إلا سويغات يا شيخ مجد وتأتينا الأنباء من القاهرة تحمل بشرى انكسار الفرنساوية واندحارهم.

بدتُ الحدة تكسو عبارات مجد الدين وهو يُحرِّك يديه بعصبية:

- ليتني أصدقك، لكن ما لا تعلمه يا بني أن الله لا يجابي أحداً على حساب أحد، ومُحال أن ينتصر السيف والجواد على المدفع والبنديقية فهذا يا بني ضرب من الخيال.

- كيف تقول ذلك يا شيخ؟

- لست أنا من يقول لكنها سنن الكون ونواميسه التي لا تتغير ولا تتبدل، ألم يدرِ بخَلَد هؤلاء يوماً أن العدو سيقصدهم وأنه يُعد لهم العُدَّة، فأين ما أعدوه له، ألم ينهبوا أموالنا ويكنزوا ثروات الأمة بحجة الذود عن حياض البلد، فأين بأسهم وفعلهم الآن، إن كانوا يحسنون فعل شيء فهو القول لا العمل.

- لكنهم على الرغم من ذلك سيقاتلون ويبدلون جهدهم.

- قتال لن يُغني ولن يدفع شراً، العاقل من يدبر الأمور ويقىسها قبل مباشرتها، فما رجا منها نفعا أقدم عليه، وما تخوف منه تجهز واستعد له، والممالك أخشى عليهم في تلك المعركة عاقبة جهلهم وبغيهم، فيران الهزيمة لن تطولهم وحدهم بل سيلفحننا ضرامها وتلظى بلهيبها، نار لكم أرجو أن تكون موقظة لنا مستنفرة لعقولنا فنعي وندرك ما نحن فيه من غي وضلال، وكم تأخرنا عن ركب الحضارة ورجعنا القهقري، أما أن نكابِر ونعاند ونبحث عن مشجَب نعلق عليه فشلنا وخيبتنا، فما هو إلا محاولة رديئة ومبتذلة لعدم نقد ذاتنا ومواجهة أنفسنا بواقعة المرير البئس.

كادت عيناه تخوناه وتنفلت منهما بضع دمعات أجمعهما ووأدهما في مهدهما
مُكابرة، بينما كسا الوجوم وجوههم وأطرقوا رؤوسهم أرضاً كأنهم يخشون
أن تلتقي نظراتهم فتبوح بما يعتمل في صدورهم. زفر العجوز بحرارة قبل
أن يقول:

- كل ما كان وسيكون فهو قدر الله ونحن به راضون.

تنهَّد مجد الدين بأسى وغدت عباراته أقل حدة، وقلَّت حركات يده
العصبية، وبدأ في صوته لحن حزين:

- لا اعتراض على قدر الله يا سيدي، لكن أسمى دلائل العجز أن نُحيل
مصائبنا ونكباتنا على المقادير، فالله سبحانه يلوم على العجز. وإنما قدر الله
مرهون بنا، إن أحسنَّا التفكير والتدبير كان قدرنا حسناً، وإن أسأنا كانت
عاقبتنا غيّاً. نعم مطالبون بالإيمان بالقدر والرضا به، لكن أيضاً مأمورون
بالأخذ بالأسباب، لكن وا حسرتاه، بينما وبين ذلك الأخذ بعد المشركين.

شعر العجوز بغصة في حلقه فقال بمرارة وهو يجاهد عبارته ألا تسقط:

- أرى أن نجتمع الأهالي بعد صلاة العصر ونقرأ صحيح البخاري عسى
الله أن يرفع عنا تلك الغُمة.

- هذا بلاء لا ينفع فيه صحيح البخاري، فما عساها تُغني الكتب أمام
بارود المدافع وطلقات البنادق، إن كان من ثمة شيء ينفع فقد مضى أوانه.

دَوَّت الكلمات في رأس مجد الدين وإن لم يسمح لها أن تصل إلى طرف
لسانه. بدا على وجهه الحزن وأطرق ملياً قبل أن يلتفت مفزوعاً لدى
مشاهدته أصغر أبنائه يهرول ناحيته بوجه مضطرب وعيون زائغة فوجف

قلبه وارتجف فيما انحنى الصبي على أذنه هامساً بوضع كلمات انتفض على إثرها كالملدوغ وهباً واقفاً مغادراً المسجد لفوره وهو يهرول في مشيته حتى وصل داره. دفع الباب ودخل مسرعاً فوجد زوجته تحمل إناء ماء تُسرّع به ناحية الدور العلوي. ما إن رأت مجد الدين حتى شهقت بعنف:

- أدر كنا، الرجل ينزف بشدة، عامر يحاول إيقاف النزيف:

وقف مجد متيبساً كتمثال خشبي لبضع ثوانٍ قبل أن يقتلع قدميه من الأرض بصعوبة ويصعد الدَرَج خلف زوجته التي اندفعت ناحية حجرة جانبية. وضعت إناء الماء بجوار الفراش الذي استلقى عليه جندي من المماليك غطت الدماء وجهه فيما ملأت الجروح جسده. انحنى عليه شاب في العشرينيات من عمره يضمّد جرحاً في كتفه بينما خمد صوت الجندي تماماً. احتشدت الدموع في عيني مجد الدين قبل أن تهْدُر كشلال هائج حتى اختنق صوته بالبكاء وهو يجلس بجوار الجندي. التفت إليه عامر قائلاً:

- لا تقلق يا أبت سينجو إن شاء الله، استخرجت الطلقة وكويت جراحه وأوقفت نزيف الدم، فقط ابتهل إلى الله أن يحفظ عليه روحه:

أمسك مجد الدين بقطعة من القماش بللها بالماء وراح يمسح بها الدماء عن وجه الجندي ولسانه يلهج بالدعاء. كان الجندي في نهاية الأربعينيات من عمره يصغر مجد الدين بسنتين، وقد نشأت بينهما صداقة دامت لأكثر من ثلاثين عاماً منذ التقيا في الجامع الأزهر إبّان دراسة مجد الدين هناك. صداقة استحالت إلى إخوة صارت مضرب الأمثال حينها. انتهى عامر من تضميد الجراح وجلس هو الآخر على حافة الفراش بجوار الجندي وهو يفر بحرارة بالغة، على حين ملمت المرأة خرق القماش التي غطتها الدماء وانصرفت.

طوال ساعتين لم يتفوّه أحدهما بكلمة حتى بدأ الجندي يُطلق آهات خافتة قبل أن يفتح عينيه ببطء لتلتقيا بعيني مجد الدين الباكتين.

هزّ المملوك رأسه قبل أن يقول بصوت ضعيف واهن:
- اعذربي يا صاحبي، لم أجد من ألوذ به سواك:

رَبَّتْ مجد الدين على رأسه بحنوّ بالغ:

- لا عليك يا عز الدين، ما قمت به هو الصواب، لكن خبرني ما الذي جرى؟

ترقرقت الدموع في عيني المملوك قبل أن يقول بحزن بالغ وهو يرمق سقف الغرفة بنظرات أسيفة:

- لم تكن معركة، كانت مجزرة. صدقني لم تكن تنقصنا الشجاعة أو الحافز على القتال، معنوياتنا كانت إلى عنان السماء، خيولنا كانت متحفزة غاضبة مثلنا، أذرعنا التي كنا نفتخر بأنها قادرة على هدم جدار بضربة واحدة كانت تمسك السيوف كمارد هائج، حناجرنا هدرت بتكبير هزّ أهرام مصر خلفنا، لكن كل ذلك لم يُغنِ أمام المدافع ودويّ البنادق ولهب البارود، تزلزلت الأرض تحت أقدامنا، وأظلمت السماء فوقنا قبل أن تفتح علينا أبواب الجحيم. تساقطنا كفراش لفحته نيران بركان هائل، الدماء غطت كل شيء، والنيران وصلت حافة السماء، طلقات البنادق كانت كمطر عنيف لا يُبقي ولا يذر، لم أدرِ بنفسِي إلا وأنا على صهوة جوادي وجسدي ينزف بغزارة، صَحَّتْ في الجواد «إلى مجد الدين» ولم أفق إلا الآن.

- هل دخل الفرنسيون القاهرة يا عماء؟

- ومن عساه يمنعهم يا بني؟ القاهرة هي البداية وبعدها سيبتلعون مصر بأكملها.

قالها المملوك قبل أن يحل الصمت لبعض الوقت حتى قطعه بقوله:

- حين اشتدت المعركة وحمي الوطيس، رأيت وجهك يلوح في الأفق يا مجد الدين، كان وجهك حزيناً غاضباً ومحاوراتك القديمة تطرق رأسي أعنف من مدافع الفرنسية، لقد حدث ما تنبأت به يا صاحبي ليتني صدقتك وأصغيت لك حينها.

- لا عليك ولا تحمل نفسك ما لا تطيق، يكفي أنك فرضت علي حمايتك ومنعتهم من البطش والتنكيل بي وتركت كلماتي تتردد في مجالسهم

صمت هُنيئَةً وعاد يكمل ببؤس:

- هؤلاء المناط بهم التصديق لم يكلفوا أنفسهم عناء السماع أصلاً، الكلام دخل من أذن وغادر من الأخرى، لم يكلفوا أنفسهم حتى مجرد إمعان النظر وتدبر الفكر، على الرغم من أن الحقائق والدلائل كانت كفلق الصبح، لكنهم أضحوا كالحفافيش لا يزيدهم ضوء الشمس إلا عمى.

- من تقصد يا أبي؟

- الجالسون على عرش الأمة، والمتحكمون في مصير الناس، كان يجدر بهم التحرك منذ عقود طويلة لمنع حدوث هذه الكارثة.

- وبأي شيء تنبأت؟

طال وهدة صمت مجد الدين قبل أن يقول بمرارة وعيناه ترمقان الحائط

بشرد:

- إن نهاية الممالك ستكون بتلك المدافع والبنادق التي رفضوها من قبل.

- رفضوها من قبل؟

- أجل يا بُنيَّ، كان ذلك في عهد السلطان الغوريِّ، حيث قدم تاجر مغربيٌّ حاملاً معه بندقيةٌ مخبراً السلطان أن عموم عسكر الفرنجة يستخدمونها، ناصحاً إياه بأن يدخلها إلى تسليح الجيش، أمر السلطان ممالكه بتجربتها وإبداء رأيهم فيها، فقالوا نحن لا نترك سنة نبينا في القتال بالسيف ونتبع سنة النصارى، وزاد بعضهم قائلاً: إنها حرام، وأنها سلاح النساء، فاستخدامها لا يدل على الشجاعة والفروسية.

ضرب الذهول وجه الشاب على حين تدخل المملوك في الحوار قائلاً بنبهة حزينة:

- والدك لطالما صرخ مطالباً الممالك بالتطور ومسايرة الزمن ومواكبة العصر، لا الانكباب على الماضي والتراجع إلى الخلف، فكان أقصى ما فعلناه أن أدخلنا الغدَّارات إلى تسليحنا، غدارة صغيرة تُطلق طلقة واحدة قصيرة المدى أمام بنادق تقتلع طلقاتها الرجل الشديد من مكانه، حتى المدافع التي كنا نستخدمها، كانت قديمة بالية لا تمنع شراً ولا تجلب نصراً.

جهجم مجد الدين بحسرة:

- تقلبات الدهر وقسوته يا عز الدين.

- مؤلمة وقاسية هي يا شيخ مجد.

هزَّ مجد الدين رأسه وهو يقول بأسى بالغ:

- قد أوجفت بنا مطايا الجهل حتى أوردتنا الهلكة وجللتنا العار.

- عارًا لا نحمل إثمه وحدنا، يشاركنا فيه بنو عثمان.

- تقاسم العار لا ينقصه يا صاحبي.

صمت قليلًا وأغمض عيناه لثوانٍ قبل أن يفتحهما ببطء وهو يقول:

- لا زالت تلك الوريقات التي عثرت عليها في إحدى خزائن الأزهر تقض مضجعي كلما عدت إليها، كأن خليلًا القماش كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، كلماته موجعة مؤلمة يا عز الدين، كلماته تتوقد جمرًا ويقطر منها الحزن قطرًا.

انتبهت الحواس وأحدقت فيه العيون مستحثة إياه أن يخبرهم عن وريقات القماش فقال الرجل:

- كان مما كتبه القماش «داء ان ضربا هذه الأمة في خاصرتها، داء حكمانا السوط ودأؤنا الصمت». والله لقد صدق الرجل فالداء استحكم واستشرى في مفاصل الأمة حتى استطابت الدعة واستمرأت الذلة، واستوطأت مركب العجز، وأعفت عقلها من الفكر، وقلبها من النظر، حتى غشتنا الظلمات، وأدركتنا الملمات، فاستباح العدو بيضتنا، وأسكت نأمتنا، وأباد خضرانا، فطوّقنا العار ونكس من أبصارنا، أما الجالسون على عرش الأمة فلا يشق شغاف قلبهم الصلد عويل أيم ولا هلع يتيم، لا يجزعون لذل يصيينا ولا يرنون إلى عز ينتشلنا من قعر الدنيا، فأَي قوم هؤلاء؟

غلبته عيناه فاستعبرتتا. أطرق برأسه قائلاً بحزن تجلّ في صوته:

- كأن الزمان أعارنا مجداً تليداً لم نصنه ونرعى حقه، فسلبنا الدهر ما وهبنا واسترجع ما أعارنا، ورمانا الزمان بسهامه، وعطف علينا عطف

الحنق المغتاز، كأنه أسف على ما فرطنا فيه فراحت سياطه تلهب الأجساد والأرواح.

أصابته كلماته موضعها فأغمض المملوك عينيه والأسى يطفح على ملاحه بجلاء، فيما هزَّ عامر كتفيه بدهشة وهو يقول:

- الأنباء الواردة من الإسكندرية تقول إن بصحبة الفرنساوية كوكبة من العلماء في شتى صنوف العلم، كما أنهم جلبوا مطبعة عظيمة قادرة على طباعة آلاف الكتب في بضعة أيام.

- وبنو عثمان كانوا يُجرِّمون الطباعة، أيُّ عقول كانت تقودنا طوال تلك القرون، أورثونا الضلالة، وألقونا في بحر الجهالة، وأردونا بغيهم، حتى غَشَّتْنا الظلمات، وتلاطمت بنا الشبهات.

قالها مجد الدين بحنق بالغ وجسده يهتز من فرط التأثر، فيما طفق عامر يقول:

- ما أسمعته عن الفرنساوية شيء يدعو إلى الانبهار بعلمهم وثقافتهم وحسن تنظيمهم وإدارتهم، أجد من الصعب أن أقول هذا لكنها الحقيقة.

أطرق مجد الدين برأسه ملياً قبل أن يرفعها بوجه حزين شاحب:

- وهذا ما كنت أخشاه يا بني، فهزَّيمتنا العسكرية لا شيء بجوار كلماتك تلك، والتي لم تجرِّ في عقلك وحدك، بل في عقل أهل الشرق أجمع، الآن وفقط التقى الشرق المهلهل الغارق في غمرات الجهل والظلام بالغرب المتأجج بالعلم والقوة، وهنا ذروة الانكسار والهزيمة.

صمت قليلاً وهو يتأمل الجدار أمامه بشرود كأنه يطالع شيئاً ما وقال:

- مصيبتنا ليست أرضاً أقحلت، بل عقول أجذبت. قديماً حين هزّمتنا في الشرق هنا أمام الحملات الصليبية وهزّمتنا في الأندلس، كانت نكبتنا عسكرية وهزّمتنا سياسية، لكن كنا على قمة الدنيا في العلم والتحضر، كنا سادة العلوم كلها، تخيل أنه حينها تمكن الفقيه والعالم المصري شهاب الدين القرافي من صنع تماثيل تسير وتتحرك، عجائب مذهلة هي وغيرها، جعلت الغرب يَحْزَنُ أماننا هداً، تعظيماً وتبجيلاً لحضارتنا، فانهزَمَ الغرب أماننا، ووقف كموقفنا هذا مذهولاً منبهراً، متسائلاً أيُّ أمة هذه، وأيُّ علوم هذه. لذا بدأوا في محاکاتنا والتعلم منا، نهلوا من علومنا، واقتفوا أثرنا، وبينما هم يصعدون ويرتقون في سلم الحضارة لم نتقدم نحن خطوة واحدة للأمم، بل تراجعنا ألف ألف خطوة، ليسبقونا هم ألف ألف درجة، بينما ما زلنا نعيش في تراث الماضي السحيق خالقين لأنفسنا عالماً من الخيالات والأحلام مدّعين رفعة زائفة وإعلاء ذاتياً وهمياً وشتان بين حالنا وحال التراث الذي نزعم إليه وصلّاً، شتان بين شهاب الدين القرافي الذي حرك الجهاد وأنطقه ومُدّعي علم اليوم الذين حرّموا بدييات الحضارة من علوم فلك وجغرافيا وطباعة بل حرّموا حتى النهل من حضارة الغرب التي هي في الأساس إرث أمتنا. والدين الذي كان بوّصلة نهضتنا من قبل جعله الجهل سبب خيبتنا والدين من ذلك براء، أسوأ شيء أن تُشرعن للجهل وأن تسرّبه برداء الدين، حينها يتمكن الجهل من القلوب والعقول وتكون وطأته شديدة.

- وما الحيلة يا أبي؟

طلق يُجيب بلهجة يقطر منها الغضب:

- لا أدري أيهما تجرّم على الآخر نحن أم الزمان، حتى صار لا ينفع مع

دائنا دواء، ولا يُجدي مع حالنا بكاء، ولا يُرجى مع فجيعتنا ذهاب، أخشى ما أخشاه أن تفضحنا المصيبة وأن يشغلنا الخوف عن العمل، فيملكنا اليأس ويقتلنا الأسف، إن كان من ثمة شيء نفعله الآن فلنصبر ولنتجلد ولا يدركنا الهلع فهو أفحش الجزع، وليرى هؤلاء الفرنساوية منا أن الموت أهون علينا من الاستسلام، وعزَّ الجحيم أحب لدينا من ذل جنتهم، حتى إذا شاء الله وانكسرت هجمتهم وذهبت فورتهم عمدنا إلى موضع الداء ورأينا فيه رأينا.

- وعلمهم وحضارتهم كيف ندانيهم فيها ونجارهم؟

- أذكر حديثي لك في صباحك عن عباس بن فرناس؟

- أجل. العالم الأندلسي الذي حاول الطيران، ما زلت أذكر حديثك بأكمله.

- ولا زلنا حتى يومنا هذا نتحدث عن ابن فرناس، على حين أخذ الغرب علمه وطوره حتى كان ما سمعنا عنه منذ سنوات عام 1794 حين حسم الفرنساوية معركة فلوروس بفعل منطاد طائر شقَّ صفوف أعدائهم حاملاً جنود الاستطلاع، فكشفوا ثغرات أعدائهم وأحاطوا بتحركاتهم وتشكيلاتهم فمالت كفة المعركة لصالح الفرنساوية، بينما نحن أحفاد صاحب أول تجربة طيران عاجزون عن مواكبة العالم وتقدمه، فأنيُّ بؤس وشقاء حلَّ بنا.

زفر بغضب وأردف:

- إن موكب الحضارة سائر لا يمكن لأحد إيقافه، ولا يجاي أحدًا على حساب أحد، ولا ملة على حساب أخرى، التمايز فقط في مسيرة الزمان والانصياع لبدبياته، أما المعاند والمكابر فسيلفظه الزمن خلفه ولن يُلقى له بالاً، لذا يجب أن نفعل كما فعلوا، ننهل من علومهم ونقتفي أثرهم، ونأخذ

منهم ما ينفعنا شريطة أن نحفظ هويتنا وثقافتنا، وألا ننجرَّ ونساق إلى تقليدهم، بل يصير لنا نهجنا الخاص وكيونتنا المتفردة، حتى لا نصير مسخًا، لا شرقًا صرنا ولا غربًا قصدنا.

- وأنى لنا ذلك؟

تنهّد بمرارة وأجاب:

- الأمر مُرتن برؤوس الأمة وقادتها، إن أحسنوا التدبير والتقدير، وأفاقوا من غيهم وخرجوا من ضلالهم، فمقاومة الجهل ومحاولة إزاحته أصعب وأمرُّ من مقاومة الفرنساوية، ففي بلادنا تجذّر الجهل حتى أعماق الأرض، وتمكّنت الضلالة من القلوب واستولت عليها، لذا فالقادم صعب عسير.

- هناك ما يُحيرني يا أبي وأعجز عن استيعابه، فلطالما حدثني عن الثورة الفرنسية وكيف ثارت ضد مساوى الحكم وأطاحت بالملك وفساده، ولطالما قلت إنهم يتشدّدون بالترويج لقيم الحرية والمساواة، وبحق الأمم في اختيار حكامها، فما الذي جاء بهم إلى ديارنا، ولم يسعون هنا إلى تنفيذ كل ما يخالف مبادئهم التي يبشّرون الناس بها؟!!

التقط مجد نفسه عميقًا وقال:

- مبادئهم تلك شعارات جوفاء، أثبتت الأيام وهيمتها حين تعارضت مع أطماعهم ومصالحهم الخاصة، فالحريات التي يتشدّدون بها في فرنسا يفرضون هنا علينا عكسها ويُسمون أمتنا وغيرها سوء العذاب، ما دام هذا يسهم في ملء خزائنهم وزيادة رقعة الأرض التي يمتد عليها سلطانهم، لذا يا بنيّ عليك أن تكون حذرًا وأنت ترُقّب هؤلاء، إذا فتحت قشرة العلم

والتحضر هذه، ستجد طبقات صلدة من التوحش والهمجية، ستجد قساوة وفظاعة لم تمحها من قلوبهم آلاتهم الحديثة ولا قوانينهم العلمية.

قالها مجد الدين وراح يتبادل نظرات حزن حائرة مع المملوك الجريح، نظرات صامته إلا أنها تشي بالكثير.

* * *

المعسكر الفرنسي - أطراف القاهرة

توجه الكولونيل الفرنسي جوان أرماند بخطوات سريعة واثقة نحو الخيام المخصصة لعلماء الحملة الفرنسية في مؤخرة المعسكر الفرنسي. الليل أرخى سدوله وفرض سلطانه، فيما انتشرت المشاعل تبدد دُجّة الليل مع انتباه دوريات الحراسة وتيقظها. توقف الكولونيل أمام خيمة منعزلة قليلاً عن باقي الخيام يقف على بابها جنديان أدّيا التحية للكولونيل ساحمين له بالدخول. دلف الرجل بخطوات مهلة وهو يرمي بصره متأملاً الخيمة التي اكتظت بمئات الكتب والمراجع فيما انكبَّ رجل في أوائل الخمسينيات من عمره جالساً أمام طاولة صغيرة في تدوين ملاحظات في ورقة أمامه. تنحّج الكولونيل فرفع العالم الفرنسي رأسه ببطء، كان له شارب عريض، وذقن مُربّعة، وعينان بنيتان غامضتان. تأمل أرماند لثوانٍ قبل أن يُعاود استكمال عمله لدقيقة أو أكثر حتى فرغ. التقط نفساً عميقاً وهو يتراجع في مقعده إلى الخلف ملوّحاً بذراعيه في الهواء قائلاً:

- كيف حالك أرماند؟ فقط انتهيت الآن من كتابة آخر التقارير.

- بخير حال يا سيد جاك فورييه، لعلك اطلعت أيضاً على التقرير الذي أرسلته لك هذا الصباح.

قالها بلهجة المتهيب المتوقر فأجابه فوريه:

- أجل. وقد ضمنته تقاريرى وإن كنت وضعت عليه بعض الملاحظات والتعليقات.

سحب كرسيًا صغيرًا وجلس مقابل فوريه كالتلميذ أمام أستاذه وهو يتساءل بحذر:

- أي نوع من الملاحظات يا سيدي؟

- تحليلك للوضع العسكريّ للحملة وأنها على وشك تحقيق نصرها النهائيّ وفرض سيطرتها على مصر لم يقنعني أبدًا:

- كيف ذلك سيد فوريه؟ المالك اندحروا أمامنا في معركة قصيرة لم تكلفنا سوى عدد قليل من القتلى بينما سقط منهم عدة آلاف في زمن وجيز، من يستطيع أن يقف في وجه جيش مثلنا؟
- المصريون يا أرماند.

بدا الاستهجان على وجه أرماند وهو يقول:

- الشعب تقصد؟ أشك في ذلك، لم يخوضوا حربًا من قبل فضلًا عن عدم حملهم وامتلاكهم السلاح من الأساس، المالك هم حماة البلد طوال قرون والمصريون أوكلوا لهم تلك المهمة، فالشعب لا يجيد ذلك
- وقد انهزم المالك وذهبت ريحهم، لذا لن يجد المصريون بُدًا من خوض المعركة بأنفسهم هذه المرة.

- ولم يفعلوا ذلك؟ لم لا يعلنون الاستسلام وتقبل الأمر الواقع، بدلًا من أن يُقحموا أنفسهم المتالف

لَوْح فورِييه بسبابته قائلاً بثقة:

- لأن بهم تلك الروح التي نشأت بين أضلاعهم منذ قرون، روح تسري في جسد هذه الأمة تمنعها دائماً من السقوط والذوبان، قد تنكسر أو تنهزم لكنها أبداً لا تموت. الفلاحون الذين لا تعباً بهم حين يأتي الوقت سيقاتلوننا ولو بحفّفات من تراب الأرض لكنهم أبداً لن يُذعنوا لنا.
مطَّأرماند شفتيه متسائلاً:

- أستمِيحك عذراً يا سيدي، لكن يُخَيِّل إليَّ كأنك معجب بهؤلاء أو على الأقل تقدّرهم أكثر من اللازم.
ابتسم فورِييه وهو يُحْكُّ أرنبة أنفه قبل أن يقول:

- ليس إعجاباً ولا تقديرًا يا أرماند، لكن ينبغي للعاقل أن يُلَمَّ بأحوال عدوه صغيرها وكبيرها، وأن يدرك سكناتهم وحركاتهم، وألا يستصغر عدوه، فإنَّ من استصغر عدوه اغترَّ به، ومن اغترَّ بعدوه لم يسلم منه، وإن من أشد الحماقة أن يستهين الرجل بعدوه، فنحن لا نأمن هؤلاء وثبة أو استفاقة قد تكلفنا الكثير.

- إذن، ماذا تقترح حيال ذلك؟

- دخولنا مصر بأحدث ما توصلت إليه حضارتنا الغربية من علوم وآلات وأدوات وأفكار، أحدثت هزة عنيفة في قلوب المصريين، بل في قلب الشرق بأسره، هزة سيكون لها ما بعدها.

- أي هزة تلك؟

ضابت حدقتا فورِييه وهو يقول:

- الهزّة ذاتها التي أصابتنا في القرون الوسطى حين شاهدنا حضارة الأندلس، وحين اقتحمنا الشرق بحملاتنا الصليبية، حينها كاد يقتلنا الذهول واكتشفنا أننا نعيش على هامش الحضارة والتاريخ، الأمر الذي استفز رجال الأخوية، وأصابعهم باستفاقة وبنوع من اليقظة الفكرية، فتحركوا ووضعوا أسساً وقيماً لبناء الحضارة الغربية حتى بات ما تشاهده الآن، من تنافس على سُدّة العالم الفرنسيون والإنجليز أي أبناء العرق الأبيض.

- وما الذي قد تحدّثه تلك الهزّة عند العرب والمسلمين الآن؟
هزّ فورييه رأسه وهو يقول ببطء:

- هذا أمر يصعب التنبؤ به، لكن يجب أن نحول بينهم وبين الاستفاقة واليقظة، يجب أن يظلوا دائماً بين المطرقة والسندان، فعدوك إن لم تشغله بنفسه وتلهيه بدواهي الزمان، انتبه إليك وسعى في طلبك، لذا لا بد من انتهاز الفرصة السانحة، الشرق الآن أصابه الخوف وهزّ كيانه، والخوف سلاح قاهر، يربك العقل ويضلله، يفقد المرء قدرته على التوجيه وتحديد المسار الصائب، وتختلط عليه الأمور وتكثر الشبهات.

صمت قليلاً وهو يقلب في عدة أوراق أمامه قبل أن يقول:

- دعنا من هذا الحديث الآن، أخبرت بونابرت أي سأكون بحاجة إليك في صعيد مصر، وقد وافق على التحاقك ببعثتي فور ما تنتهي من مهامك هنا.

- لا يرفض لك بونابرت طلباً.

- الدعم المادي الذي يتلقاه من خلال جمعيتنا العلمية يجعله طوع أمراً، وكما يقول الأستاذ دائماً: التحكم في الملك خير من الجلوس على العرش.

- أحسنت الأخوية بتأسيس تلك الجمعية العلمية، خير ستار لنا في عملنا هذا، من يمكنه الشك في مجموعة من العلماء ينقبون هنا وهناك.

نقر فورييه بأصابعه على الطاولة برفق وهو يقول:

- أجل يا أرماند، لكن أيضًا يجب أن نتوخى الحذر وأن نلزم الحَيَطة، خاصة في المهمة القادمة.

تحفّزت خلايا أرماند وانتبعت حواسه وفورييه يُتبع بصوت بدا كفحيح ثعبان:

- الصعيد مليء بآلاف البرديات المصرية القديمة، بعض الرّحالة أخبروني أن باستطاعة المرء الحصول على حمولة بغل من تلك البرديات بثمان بخس زهيد، الناس هنا لا تدرك قيمتها.

- وما حاجتنا إلى تلك البرديات؟

تجلّت نظرات الاستهجان في عيني فورييه وهو يقول:

- تخيّل أيها الكولونيل أن بردية واحدة وقعت قديماً في أيدي الأخوية غيرت مصيرنا تماماً، وأجلستنا على سُدّة الدنيا وحوّلت مجرى التاريخ، فما بالك لو حصلنا على كم هائل من تلك البرديات، أي أسرار وعلوم قد نظفر بها؟

أوماً الكولونيل برأسه وابتسم قائلاً:

- تناهى إلي حديث بعض من علماء الحملة عن محاولات ونظريات لفك رموز المصرية القديمة.

- وصلني تقرير مفصل عن ذلك، العديد من علماء أوروبا ينقبون خلف المصرية القديمة مستعينين بكتب عربية كشوق المستهام وكتاب ذي النون المصري، لكنهم لا يصرحون بذلك، كأنهم يأنفون من الاعتراف بأن العرب هم من يقودونهم إلى فك رموز تلك اللغة.

- هكذا فعلنا نحن أيضًا.

ابتسم فورييه وهو يقول:

- أجل، كانت لنا أسبابنا الوجيهة حينها، لكن تخيّل كيف يكون شعور هؤلاء الآن لو علموا أننا نعرف رموز المصرية القديمة ومعانيها منذ عدة قرون بفضل ذلك الكتاب العربيّ.

- هناك سؤال يحيرني فعلاً يا سيد فورييه، لم نعلن للعالم اكتشافنا رموز تلك اللغة ويكون لنا فضل السّبق في هذا المجال؟

- لم يحن الوقت بعد لفعل هذا، كما أنه من الأفضل أن تظل تلك العلوم والأسرار منطوية علينا وتحت أيدينا فقط، فمن يملك المعرفة هو وحده القادر على اتخاذ القرار الصائب.

صمت فورييه لثوانٍ قبل أن يقول بحذر:

- وبمناسبة حديثنا هذا، الأخوية تتخوف من اقتراب هؤلاء العلماء من ذلك، العالم النمساويّ جوزيف همر على وشك الانتهاء من ترجمة إنجليزية لمخطوطة شوق المستهام وينوي نشرها قريباً، وسيثير ما بها من رموز ومفاتيح ألعاب الكثيرين، وسيسعون بشدة خلف المصرية القديمة؛ لذا ينبغي أن نحرص كل الحرص على ألا تقع في أيديهم أيُّ برديات قد تكشف

أسرار الخارطة القديمة، حينها ستلحق بنا كارثة كبرى لا ندرى إلى أي مدى ستصل، لذلك نشرنا عيوننا ورجالنا في مصر في كل مكان ستحدث فيه عملية تنقيب أو بحث عن برديات، فقد نما إلى علمنا أن بعض الرحالة والمغامرين لديهم ميل وفضول إلى استكشاف بعض المقابر المصرية القديمة، لذا ينبغي أن نكون دائماً فوق رؤوسهم. هل تعي كلامي جيداً يا أرماند؟

زفر أرماند بحرارة وهو يؤمئ برأسه مجيباً:

- بلى، أعني كل حرف منه يا سيدي.

- إذن، أنصت إليّ جيداً وأعرّني كامل اهتمامك.

اعتدل أرماند في جلسته وأصغى السمع وفورييه يستطرد بهمس بالغ كأنه يخشى أن تلتقط الريح كلماته:

- هل سمعت عن مُسمّى زودياك من قبل؟

- كلا يا سيدي؟

- إنه مسمى أخذ اليونانيون مفهومه من المصريين القدماء، ويعني الرسم الذي يضم مجموعة حيوانات ترمز إلى شيء ما.

سكت قليلاً وهو يلتقط أنفاسه ببطء:

- هناك معبد قديم في منطقة دندرة بصعيد مصر، داخل هذا المعبد لوحة زودياك معلقة بالسقف، مهمتنا تفكيكها ونقلها إلى فرنسا في أسرع وقت.

بدا الاهتمام على وجه أرماند وتساءل بفضول:

- ما الذي تحويه تلك اللوحة؟

- برجا فلكيًّا، يضم ستة وثلاثين مجموعة نجمية تمثل الأبراج المعروفة لنا الآن، هذا البرج هو أقدم رسم فلكيٍّ للسماء.

- وما الداعي إلى تفكيكه ونقله؟

- كما قلت لك مسبقًا، بعض الأسرار يجب أن تظل منطوية علينا لبعض الوقت، انكشافها قد يضرنا أو يثير بعض القلاقل.

- وما الخطر الذي قد تمثله لنا تلك اللوحة الفلكية؟

زَمَّ فورييه حاجبيه وهبَّ واقفًا برشاقة مشبكًا كفيه خلف ظهره وتمشَّى بخطوات وثيدة حتى صار مقابل أرماند الذي وقف بدوره وهو يحدِّق في عيني فورييه بفضول والأخير يسأله:

- برأيك كم يبلغ عمر الإنسان على ظهر الأرض؟

- حسب أسفار العهد القديم يبلغ تسلسل الأجيال من بدء الخليقة حتى عهد المسيح حوالي خمسة آلاف وخمسمائة عام تقريبًا، هذا هو المسلم والمعترف به من قبل الكنيسة الكاثوليكية.

مطَّ فورييه شفثيه وأومأ برأسه لثوانٍ ثم قال بلهجة حذرة:

- ماذا -إذن- لو ظهر دليل قاطع ينفي ما ورد بالعهد القديم، دليل لا يقبل الشك يُرجع عمر الحضارة المصرية وحدها إلى أكثر من خمسة عشر ألف سنة؟

- ماذا؟ مستحيل ما تقول يا سيدي، حينها ستكون الكنيسة في ورطة، إذ كيف توفِّق بين روايات الكتاب المقدَّس وذلك الدليل، إيهان البعض سيصيبه الشك.

أخذ فورييه نفساً عميقاً وهو يهزُّ رأسه مؤمناً على كلام أرماند:

- لوحة دندرة الفلكية ستفعل ذلك، سيكون لرسوماتها الفلكية دويٌّ سيقضُّ مضاجع أهل الشرق والغرب.

صمت قليلاً وهو يتلع ريقه:

- عثرنا على رسومات لها مع المخطوطات القديمة التي تركها لنا آباء الأخوية الأوائل، حصلوا على تلك الرسومات مع الخارطة المصرية، لم يشغل الأمر الأجيال الأولى من الأخوية، لكن منذ أعوام بدأ بعض علمائنا في فحصها مجدداً ودراستها بشكل دقيق، ولحسن الحظ وجدنا عليها تعليقات وشروح من قبل العلامة غاليرا، حتى اكتشفنا ما أذهلنا، فاللوحة تعود بتواريخها المنحوتة عليها إلى أكثر من خمسة عشر ألف سنة، ما يعني أن كثيراً من المعارف والمعتقدات ستكون على المحك حيال ظهور ذلك الكشف، الأمر الذي سيضعنا في ورطة لا نعلم مداها ولا مغبّات نتائجها، كما أن الكشف سيحدث انقلاباً رهيباً في مجال العلوم المختلفة، لسنا مستعدين له حالياً.

- إذن، خطرنا علينا هائل يا سيدي.

- هذا ما أخبرتك به، لكن الخطر الأعظم من تحدي إيمان الكنيسة وتحدي معارفنا الحالية هو إعطاء الحضارة المصرية القديمة بعداً وعمقاً في التاريخ أشد غوراً مما كنا نتخيل، وهذا ما لا نريده.

- لم يا سيدي؟

- جذور خصمك إذا استطالت وتجدّرت في أعماق الأرض يصعب بترها
واجثائها، هل تدرك المغزى من كلامي أرماند؟
- أدرك يا سيدي، ويبدو أن الأيام القادمة ستكون حافلة بالكثير.

* * *

أكتوبر 1798م

لسعة برد تضرب أطرافه بين الفينة والأخرى فتجبره على الانتباه، دفء
الجمرات يداعب وجنتيه بعث فيرتعش جفناه وقبل أن ينغلقا يعاود البرد
لسعته برفق حان، لهيب النار عكس على الحائط أمامه خيالات شخوص
راح يناجيه بلا صوت ولا حرف، لحظات الفرح الشحيحة راحت تتراقص
أمام عينيه، تمر ذكرها في عقله السارح مغازلة إياه فلا يأبه لها، ربما لقلتها
وربما رغبة منه في تجاهلها، يخشى أن يستسلم لها، يقع في أسر الأوهام
والأحلام. كان يهرع إلى أحزانه وآلامه، تشد عزمه وتستثير حماسه وتحبي
همته، هكذا تعود منذ صباه، الأفراح طارئة لذا ليكن مرورها عليه خفيفاً،
أما الأحزان فتقيلة مريرة، لا يتحملها إلا أشد الرجال صلابة وأكثرهم
بأساً، دوت الكلمات في عقل مجد الدين وهو يقلّب الجمرات المشتعلة أمامه
في الموقد المعدني راقماً المملوك بنظرات مستشفة. أما عز الدين فكان عقله في
شغل شاغل، راحت الأفكار والذكريات تحتشد في رأسه وتشابك ثم تنفجر
بعنف بالغ فيرتجّ جسده وتهتز روحه. عادت به الذكريات لحوالي ثلاث
سنوات مضت، يومها كانت القاهرة تموج بالسُّخط البالغ، عسف الممالك
وجورهم تجاوز كل حد، الناس ضجت بالغضب ونفذ صبرها. الفلاحون
والصناع توافدوا من كل صوب وحذب ساعين إلى الأزهر وشيخه

الشرقاويّ. آلاف من الوجوه الغاضبة كانت تملأ الشوارع وتنحدر فيها من كل اتجاه، الحوانيت والدكاكين أغلقت أبوابها، سير الحياة تأجّل وتوقف. كانت مهمته تأمين أبواب القاهرة وحمايتها من الغوغاء والدهماء، يومها همس في قرارة نفسه، أيّ دهماء وغوغاء؟ الساخطون المطالبون بحقوقهم المنهوبة، أم الحثالة الجاثمون فوق صدر البلد؟ أمر جنوده بالترقُّب بالناس وعدم المساس بهم، متذرّعاً بعدم استشارة الناس وزيادة غضبهم، لكن في قرارة نفسه كان مملوءاً غيظاً وغضباً على مراد بك وإبراهيم بك ومن خلفهما الوالي العثمانيّ، لتماديهم في غيِّهم وضلالهم، وإطلاق يد مماليكهم سلْباً ونهباً هنا وهناك كان آخره ما حدث في بلييس منذ أيام، ثم زادت الطامة بمنعهم إرسال غلال الحرمين إلى أهل الحجاز ما أصاب أهلها بكرب وشدة. كان يدرك أن أنباء تعاطفه وميله إلى صفوف المصريين تُطرق مسامع مرؤوسيه وتُجيش صدورهم عليه منذ زمن، لذا حرص على إنشاء صداقات وتحالفات بينه وبين طرفي المماليك في مصر، فامتدت صلته حتى طالت رجال مراد بك من ناحية ورجال إبراهيم بك من ناحية أخرى، كان يدرك أن التنافس بينهما سيمنعهما من التحالف ضده، فكلما مال عليه أحدهما لجأ هو إلى الطرف الآخر، وهكذا لا تتوقف اللعبة. أيضاً كفاءته وجدارته واحتياجهم إليه في تلك الظروف العصبية منعتهم مراراً من البطش والتنكيل به، لكنهم أيضاً لم يغفلوا الأمر برمتيه، فعلى حين ارتقى رفاقه الدَرَج سريعاً كانت ترقّياته هو بطيئة للغاية، ولم يعبأ بذلك، بل على العكس شعر بسعادة وغبطة أنه يدفع ثمن دفاعه عن قضية عادلة. راح يتأمل الحشود الغاضبة الآتية من بلييس حيث اندلعت شرارة الغضب وتفجرت، جرّاء نهب المماليك أرزاق الناس

وأقواتهم. شيوخ الحرفيين والصناع تزعموا أتباعهم وتقدموا الصفوف، الوجوه جميعها اعترها حرْدٌ عارم. تاهت عيناه في الحشد وارتج قلبه بفعل اهتزاز الأرض تحت أقدام الثائرين، نبضات قلبه تسارعت، وروحه مسَّها عطر فَوَاح، تَلَفَّت حوله مدققاً النظر، عرف بوجوده وحضوره وإن لم تره عينه، لكن قلبه أَحَسَّ به، أَحَسَّ بمجد الدين الغاضب الثائر الذي أشعل في بلبس تلك الثورة وقادها نحو الملجأ الأخير للمصريين. سرت في جسده رجفة، فأخذ يلتقط أنفاسه بصعوبة، وعيناه تدوران بلهفة في الوجوه حوله، وفجأة وجد من يربّت على كتفه برفق فالتفت ليجد مجد الدين فراح الرجلان في عناق حارٍّ أدهش الناس حولهما، فكيف بالشيخ الأزهريّ الثائر يعانق مملوكاً ثاروا على أسياده. لكن سرعان ما ذهبت دهشتهم ويد الرجلين تشابكان في طريقهما إلى الأزهر. أمثال مجد الدين اختزلتهم الحياة فلم يبقَ للناس سوى قلة تتكأ عليها عند الملّمات، يهرعون إليهم، يحتمون بأرواحهم، يستمدون منهم القوة والمدد، ولم يخذلوا أحداً، صاروا في الدنيا كشجرة طيبة مُورقة لم ييخلوا يوماً على أحد بأفيائهم.

وهناك في الأزهر كان الشيخ الشرقاويّ بعمامته وجلبابه واقفاً كالطود شامخاً مستنداً على شومة غليظة تعود الناس من مشايخ الأزهر امتشاقها في الملّمات دلالة على استعدادهم حتى للقتال ضد الممالك لو لزم الأمر. حول الشيخ التفّ علماء الأزهر وطلابه بأعداد غفيرة، على حين تقدم مجد الدين الحشد الغاضب ووقف أمام الشيخ الشرقاويّ باحترام وتبجيل بالغين، وراحا يتبادلان النظرات الحماسية القوية لبعض الوقت قبل أن يشير الشيخ لمجد الدين آذناً له بالكلام. لمجد الدين جلاله في العيون ومهابة في الصدور،

وحين تنحدر الكلمات من فمه يصير لها بريق ولمعان، تنحدر كالشلال قوية بليغة، كلمات رجل مرّت عليه ضروب الدهر خيره وشره، وبلغ من العمر أشدّه، وأورت التجربة زنده، تجلّى كل ذلك وصوته يدوي مجلجلاً:

- أيا سيدي أليس السلطان قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد؟ أليس السلطان كالقلب بين الجوارح تصلح بصلاحه وتفسد بفساده؟ أليس السلطان نظام الحقوق، وقوّام الحدود، والقطب الذي عليه مدار الدين والدنيا، وهو حيّ الله في بلاده، وراعيه على عبادته، به يمنع حريمهم، وينصر مظلومهم، ويقمع ظالمهم، ويؤمّن خائفهم؟ فكيف الأمر وقد اختل الميزان، وصار الراعي ذئباً لا يرقب فينا إلا ولا ذمة، سفكوا دماءنا وهم يضحكون، واستباحوا حرماننا وهم يمزحون، وليس شيء أدعى نقمة ولا أعظم تبعة ولا أخرى بزوال نعمة من سفك الدماء بغير حقها، ولا أسرع بجلب جذب الزمان إلا جور السلطان، فأنتي لهم إصلاحنا وهم فسدة، وإرشادنا وهم غواة، وهدينا وهم ضلّال، أيا سيدي قد نفذ الصبر وبلغ السيل الزبى، قد تطاول هؤلاء وتعدّوا كل مدى، ومضوا في عمايتهم وتردّوا في جهلهم وتهافتوا في ضلالهم، فانتهكوا الحرمات ونهبوا الأموال ومنعوا الناس قوت يومهم، وجنودهم يسرحون كل يوم هنا وهناك يسرقون وينهبون ولا رادع لهم من سلطان ولا وازع لهم من دين، قد أثقلونا بالمكوس والإتاوات، فصاروا يعيشون في بحبوحة ونحن في فقر وإملاق.

رفع الشيخ الشرقاوي شومته عالياً وصاح بصوت هادر:

- ليس من العدل أن يتمتع هؤلاء وغيرهم يتقطّع، وويل لحاكم مستريح عيشه وشعبه يئنّ ويتألم، وإنّا ينبغي للحاكم أن تشمل رحمته رعيته، وأن

تحوطهم يقظته، وأن يذبَّ عنهم بصوْلته، وأن ينشر عليهم ألوية حِلْمه، ويسلسل لهم أنهار برّه.

تعالَت صيحات الغضب وارتجت جدران الجامع والشيخ الشرقاويُّ يستطرد:

- وإنما الأمير بالإعطاء لا بالأخذ، فالحاكم إذا كثرت جبايته ومكوسه مما ينهبه من رعيته كان كمن يُعمّر سطح بيته مما يقتلع من قواعد بنيانه، وإنهم قد غرّهم منا مُرتقَى سهلاً، فليجدوا منحدرًا وعرًّا، ليعلموا أن للأعمال جزاء، فيتقوا عواقبها، وأن للأمور بَغَتَات، وللأمة صولات وهبات ليحذروها، وليعلموا أن الرعية متى قدرت على القول قدرت على الفعل، وأنه لن يندمل من المظلوم جراحه إلا إذا كسرت من الظالم جناحه.

بلغت ثورة الناس مداها وجاشت صدورهم والشيخ الشرقاويُّ يهتف بصوت مزلزل:

- وإن كانوا قد دخلوا بيوتنا ونهبوها، فلندخلنَّ عليهم بيوتهم وننهبها قصاصًا لما فعلوه، وإن كانوا غصبوا أموالنا فنسنسُردها منهم بالدم والنار، لذا وَطَّنوا أنفسكم على الجِدِّ، وقدموا الحزم وأمضوا العزم، وأقيموا المتاريس وجهزوا العصي والنبابت، وكُرَّات النار، فإما أن يرضخوا ويعود الحق إلى أهلِه وإما أن نشعلها نارًا فوقهم، وإني متوجه إليهم بصحبة الشيخ السادات والسيد عمر مكرم للتفاوض معهم وإلزامهم بما نراه، وإن لم نعد بعد ساعتين فلتكنْ ثورة تنزعهم من قلب القاهرة إلى الأبد.

كان الوضع حرجًا للغاية على المماليك والعثمانيين، وصَلَّتْهم تهديدات الشيخ الشرقاويُّ وكلماته فشعروا أن الأمور على وشك أن تُفلت من بين

أيديهم ويحدث ما لا يُحمد عقباه، فالثورة عمّت القاهرة وملك الأهالي الشوارع والأبواب واستعدوا للموت في سبيل نيل حقوقهم، لذا لم يجدوا بُدًّا من الرضوخ والامتثال لمطالب المشايخ والأهالي، لكنَّ الشيخ الشرفاويّ زاد في الأمر حين طالب بتوثيق شروط الصلح والتفاوض تلك في وثيقة يلتزم بها المماليك والعثمانيون في سابقة هي الأولى من نوعها على الإطلاق وقَّع عليها أمراء المماليك والوالي العثمانيُّ، نصت فيها على إعادة الأموال والغلال التي سلبوها من أهل بليس، وعلى إرسال غلال الحرمين من جديد، وإبطال المكوس، وإلغاء ما استُحدث من ضرائب، وإلزامهم بقمع مماليكهم وحماية الناس منهم، كما تعهّد المماليك بالرجوع إلى كبار المشايخ عند أيّ أمر يتعلق بأرزاق الناس وقوتهم. راحت تلك الذكريات تطوف في عقل عز الدين وهو منكبٌّ بكامل تركيزه على بضع ورقات راح يخط فيها بقلمه ما يجول في خاطره. أخرجه مجد من تلك الحالة متسائلًا:

- ألم تفرغ بعد من خواطرك تلك؟

هزَّ عز الدين رأسه وهو يرفعها والأسى بادٍ عليه:

- هزيمة نكراء، يستحيل نسيانها يا شيخ مجد، منذ أيام وأنا أعيد ترتيب المعركة في ذهني وأتمعن في تفاصيلها باحثًا ومتقبًّا عن أسباب كانت لتمنع هزيمتنا.

- وهل وجدت؟

- أجل. على الرغم من التفوق التسليحيّ للفرنساوية، فإنه كان من الممكن تفادي الهزيمة أو حتى تخفيف حدتها.
اعتدل مجد في جلسته متسائلًا بفضول:

- وكيف ذلك؟

أخذ المملوك نفساً عميقاً قبل أن يقول:

- لقد واجهنا الفرنساوية بنفس الطريقة والأسلوب الذي نقاتل به منذ قرون طوال، وكان حينها مميزاً وفعالاً لأقصى درجة، صفوف متراسة منتظمة يصعب اختراقها أو تفكيك تشكيلاتها القتالية، لكن في معركتنا الأخيرة كان هذا الأمر طامة علينا. قذائف المدافع وطلقات البنادق الفرنسية لم تحبّ أبداً، كنّا أمامهم مباشرة وفي متناول مدفعيتهم، لذا كان لزاماً علينا تغيير ذلك النهج واستبداله بصفوف طولية مائلة بها فرجات واسعة تعبر من خلالها القذائف فتضيع سُدى، أيضاً كان علينا الالتفاف ومحاصرة الفرنسية من الخلف مع سرعة الاقتراب منهم لنمنعهم من استخدام البنادق بشكل فعّال، حينها سيكون القتال رجلاً لرجل وهو ما يصبُّ في صالحنا.

صمت المملوك للحظات وهو يدق الجدار خلفه بقبضته قائلاً بحزن:

- ليتنا فطنّا إلى ذلك مسبقاً، كانت الأمور لتتغير كثيراً:

- الأمور كانت بحاجة إلى تغيير منذ قرون يا عز الدين، لو امتلك الممالك سلاحاً مماثلاً للفرنساوية لتغيرت الأمور بالفعل، لكن -مع الأسف- لم نَعِ ذلك إلا من خلال تجربة مريرة وعنيفة.

- وأي تجربة يا شيخ مجد؟!

- هكذا التجارب هي خير معلم للإنسان.

صمت عز الدين للحظات وهو يُقلب أمراً ما في رأسه قبل أن يبادر

متسائلاً:

- برأيك يا شيخ مجد، متى ضرب أمتنا الاختلال وأصابها الاعتلال؟
طالت وهدة صمت مجد الدين وهو يرقب الشرارات المتطيرة أمامه من
راكية النار قبل أن يرفع رأسه قائلاً بهدوء:

- بدأ انحدارنا لحظة وصولنا ذروة المجد، حين ظنت أمتنا أنها وصلت
إلى قمة الدنيا وأن سقف الحضارة قد خُتم بنا.
ابتلع ريقه قبل أن يُتبع:

- قبل قرون من حالة الجمود والانحطاط التي ضربت أمتنا، كانت لدينا
وقفات ومنعطفات غيرت مسار الحياة الإنسانية. إن تلك اللحظة التي اعتلى
فيها عباس بن فرناس مئذنة جامع قرطبة واستعد للقفز في أول تجربة طيران
في التاريخ، كانت تلك اللحظة هي ذروة الإنجاز البشري وجرأته في حينها،
لحظة تحدّى فيها ابن فرناس المتوارث والمألوف، لحظة تحدّى فيها كل المعارف
والعلوم السابقة، لحظة ريادة وسيادة للحضارة الإسلامية، التي قفزت أعلى
درجات السلم الحضاري، تاركة خلفها باقي أمم العالم المكلّلة بالجهل
والانحطاط، لحظة انتصار عظيمة للحضارة الإسلامية خاصة، وللإنسانية
عامة. لكن بعد قرون من تلك المحاولة وبدلاً من استثمارها، دخلنا في سُبات
عميق وفي حالة تشبع حضاريٍّ، وهنا تأتي الطامة الكبرى.

اعتدل عز الدين في جلسته وبدأ عليه الاهتمام البالغ ومجد الدين يستطرد:
- تنحدر الأمم وتبدأ سقوطها حين تزدهر وتعتقد أنها أنجزت كل ما
يجب، وأنها ارتقت أعلى درجات السلم الحضاري، فتركن إلى الدعة والراحة،
وتخلّد إلى سُبات فكريٍّ عميق، من دون أن تدرك أن السلم الحضاري ليس
لدرجاته منتهى، وأن هناك أمماً أخرى تصعد الدرج بثقة وبسرعة عالية.

- وما الحيلة الآن، وما عساها تصنع أمتنا لتنهض من جديد؟

هزَّ مجد الدين كتفيه بحيرة قبل أن يقول بمرارة:

- المأساويُّ أن أمتنا تحتضر، ماضينا بدأ في التلاشي والذوبان، بينما مستقبلنا لا يعاني فقط من ولادة متعسِّرة، بل على الأرجح سيكون مستقبلًا مشوَّهاً معوجَّاً.

قالها وran على المكان صمت ثقيل له وطأة قاسية قبل أن يخرجهما من تلك الحالة زوجة مجد الدين هاتفة فيه لأخذ العشاء، اختفى لثوانٍ وعاد حاملاً صينية ارتصَّ عليها بضعة أرغفة من الخبز الساخن، وقطع من الجبن الطازج والبيض المسلوق، وقشدة وعسل. وضع الصينية بينه وبين عز الدين وشرع الرجلان في تناول عشائهما بنهم بالغ. انتهيا من طعامهما فدرس مجد الدين داخل الموقد إبريقاً نحاسياً وهو يقول:

- لا شيء أفضل من كوب شاي مغلي بعد هذا العشاء.

فهقه عز الدين قائلاً:

- أراك صرت لا تطيق فراق هذا الشراب مذَّجرتته، كأن التاجر الإنجليزِّي الذي جلبه لي عناك به.

مازحه مجد:

- حسنة واحدة تفضلت بها عليَّ من بين بحر خطاياك الذي يلاطمني.

صمت قليلاً ثم لوح بإصبعه مستطرداً:

- أجزم أنه في غضون سنوات سيغزونا هذا الشراب بقوة، المصريون سيقبلون عليه أيَّما إقبال.

- أقله سيكون غزوًا ناعمًا، يسلب ما في جيوبنا بلا بارود ولا مدافع.
همَّ مجد بالرد على الدعابة لولا أن انتبه إلى أمر ما فانعقد حاجباه وقال
بعد تفكير:

- وهذا أسوأ ما في الأمر، غزو نرحب به ونغفل عن نواياه، غزو ناعم
يتسلل إلى العقول خلسة حتى يتمكن منها وينال مراده.
- ماذا تعني؟

- إن أسوأ أنواع الغزو الذي يرمي إلى احتلال العقول ومحو هويتها،
وطمس معتقداتها، ومن ثم يُرسِّخ لفكر جديد يحمله هو، ليضمن السيطرة
والهيمنة على الشعوب، قل لي برأيك ما الذي حمل الفرنسيات على جلب
علمائهم وأفكارهم معهم إلى هنا؟
- أيضًا جاؤوا ببارودهم وناهم.

- البارود والمدافع فقط لتمهد الطريق أمام غزو الفكر، فالقوة ستحدث
هزةً في النفوس تجعلها تتضعض أمام الأفكار الجديدة ما يسهل عليها
احتلال العقول والسيطرة عليها، خاصة إذا واجهت حضارة منحدرية
منهزمة كحالنا الآن.

صمت هنيهة ابتلع خلالها ريقه ثم قال بعد أن التقط نفسًا عميقًا:

- أندري كيف تتفكك الأمم وتنحلُّ عُراها؟

لم ينتظر إجابة راح يستفيض في كلامه قائلاً:

- الحصن الحصين لأيِّ أمة هو هويتها ومعتقداتها، ذلك ما يمنعها من
الدوبان والدخول في التيه الحضاري الذي لا قرار له، لذا يهدف الأعداء

دائماً إلى طمس الهوية وتشويه المعتقد وتحريفه عن مراده وجوهره، فيصبون جهودهم لتتحرف الأمة عن دربها من خلال خلق مسلك ضال يُقحمون الأمة فيه بشتى السبل حتى إذا ولجته صار من العسير العودة مرة أخرى.

- وأنى يتأتى لهم ذلك؟

- من خلال هدم الحصن والدرع الباقي للأمة.

- أيّ حصن تقصد؟

- الأزهر.

- ماذا؟

- أجل، الأزهر هو الحصن الأخير لنا ضد هجمة الغرب الوحشية هذه، لذا سيكون مقصدهم ومبتغاهم وسيسعون إلى النيل منه وهدمه بكل سبيل.

- وهل يتأتى لهم ذلك؟

- إن لم يكن بوسعهم هدمه وتقويضه، فأقله سيسعون إلى تحجيمه وتقزيمه، سيسعون إلى هدم جوهره وبقاء اسمه، سيسعون إلى خلق أزهر ضعيف، أجوف، يبقى رسمه وينمحي أثره.

احتشدت الدموع في عينيه وهو يردف:

- الأزهر ليس قلعة العلم واللغة والدين فحسب، بل هو كل ذلك وأعمق من ذلك، الأزهر هو هويتنا وثقافتنا، هو جذرنا الضارب في جوف الزمان المتغلغل في قلب التاريخ، هو صلتنا بالماضي وجسرنا إلى المستقبل، هو صوت الحق النابض، وقلب الدين المتأجج بالعلم ونور الحقيقة، هو لواء محمد الخافق وسيفه القاطع، هو سراج أمتنا المنير في حُلُكتنا هذه، لذا سيسعون بكل قوة إلى إخماد جذوته وإطفاء نوره.

بدا الذُّعر على وجه عز الدين فراح يحدِّق في اللهب المتراقص أمامه
لبضع ثوانٍ ثم التفت قائلاً:

- يا إلهي الرحيم، حديثك هذا ضرب قلبي وروحي بشدة، لم يُخفني
حديث من قبل مثل هذا.

- الأيام القادمة حُبلى بخوف لا يعلم مداه إلا الله.

- وما عسانا نصنع يا شيخ مجد حيال ذلك، أذكر أنك رويت لي حادثة
مشابهة من قبل لكنها كانت لنا لا علينا.

- تعني الشيخ نجم الدين الكبرى وصنيعه مع المغول؟

- نعم، أعني هذا.

تنهد مجد قليل ولوى عنقه يمنة ويسرة وهو يقلِّب أمراً ما في رأسه وقال:
- كان صنيع الكبرى لحظة فارقة في تاريخ الإسلام، بل إن شئت قلت في
تاريخ العالم أجمع، فلولا اهتدأؤه إلى فكرة اختراق المغول فكرياً وروحياً ونشر
الإسلام بينهم ومن ثم تحويل المغول من خانة المحتلين إلى خانة المنافحين
لربما صار وجود الإسلام محل شك. الشيخ نجم الدين حينها أدرك صعوبة
التصدي العسكري للمغول وإيقاف زحفهم الوحشي على ديار المسلمين،
ولفهمه طبيعة المغول العقلية وتركيباتهم، وخلو قلوبهم وعقولهم من معتقد
ديني راسخ، لجأ إلى ضمهم وشملهم تحت مظلة الإسلام الواسعة، ولقد
نجح مسعاه وبشدة، فقبيل اندلاع معركة عين جالوت كانت دولة المغول
قد انقسمت، ووجد هو لاكو نفسه تحت وطأة خصمه وابن عمه المسلم بركة
خان وضرباته، ما أجبر هو لاكو على الانسحاب بمعظم جيشه وارتداده إلى

الخلف ليخوض حرباً ضروساً مع المغول المسلمين، تاركاً جزءاً صغيراً من قواته تكمل الطريق إلى عين جالوت، وهنا حصد المهاليك ثمرة جهد نجم الدين الكبرى، وكسروا شوكة المغول وتحول مجرى التاريخ لصالحنا من جديد.

اعتدل عز الدين في جلسته وقال بلهفة:

- والآن لم لا نجرب حيلته؟

هزَّ مجد الدين رأسه بأسى وقال:

- تغيرت الأمور واختل الميزان، ففي عهد نجم الدين الكبرى كان انحدارنا سياسياً وعسكرياً، لكننا حينها كنا سادة الدنيا في العلم والفكر أجمع، لم يكن يدانينا أحد في منزلتنا هذه، حضارتنا كانت تلامس عنان السماء، ومن ثم خضع الغالب لثقافة المغلوب، أما الآن فوا حسرتاه، خيبة في كل الميادين، صرنا في ذيل الأمم، لا قوة تحمينا ولا علم يدارينا، حتى باتت حالتنا تقلب شماتة الحاسد إلى شفقة أم الواحد.

حل الصمت بينهما لبعض الوقت راح خلاله عز الدين يتأمل مجدداً وكأن الخطوط التي علَّتْ جبهته السمراء صارت خارطة وبوصلته التي بها يسير ويهتدي كلما ضاقت عليه المذاهب، واستبْهَمت لديه المسالك. ابتسم برقة وقال بود صادق وهو يمسخ فمه بمنديل قماشى:

- قد منَّ الله عليَّ بصحبتك يا شيخ مجد، تعلمت خلاها ما لم يُعلمني الزمن إياه، لطالما غبطتك على صلابتك وإصرارك، على روحك المتوهجة المتوقدة، فعلى الرغم من خطوط الزمان وعثراته تظل قوياً أبياً، واقفاً بشموخ كالمراد لا تحشى هَبَّات الرياح ولا غضبات السلطان ونقماته.

- إن كنت قد تعلمت شيئاً فإنها هو من تجارب الأيام وحقن الزمان.

- كثيرون يمرون بتجارب لكنهم يخرجون منها خالي الوفاض.

لوح مجد بسبابته وهو يقول:

- الجزع عند البلاء تمام المحنة، فمن قتله الجزع وأزاده الخوف خرج من محنته أسيفاً كسيراً، وإنما الرجال تزيدهم المحن صلابة والأيام صلادة، فيقبلون على الموت كإقبالهم على الحياة، يستوي عندهم الاثنان، حينها تنقاد لهم الأمور وتُذَلُّ لهم الصعاب.

اعتدل عز الدين في جلسته مصغياً باهتمام ومجد يُتبع بلهجة عذبة رائقة وبصوت قويٍّ متماسك:

- في صغري حين التحقت بالأزهر، أرهقني الأمر وأضناني، بعدُ عن الأهل، وقلة في المال والزاد، وكدت وتعب في نيل العلم، حتى ضاقت نفسي وكدت ألمم شتات روحي وأعود إلى قريتي خاوياً فارغاً كما غادرتها، لولا ذلك الشيخ الذي جلست إلى حلقة فضربت كلماته شغاف قلبي وهزّت روحي هزاً، كان مما قاله: «احذر من عدوك مرة، ومن نفسك ألف مرة، فمن طأوع هواه، سقط وتردّى، وإنما ينبغي للعاقل أن يكون لهواه متهاً، فالنفس تأتيك من حيث تهوى وتحب فإن سَنَحَ لها الأمل أذلّتكَ بالطلب، وإن هاج بها الخوف أردتكَ بالهرب، وإن ملكها الجزع أهلكتك بالأسف، وإن اتسع لها الأمان استلبتكَ بالغرّة».

صمت قليلاً وهو يسكب الشاي المغلي في كوبين من الفخار ثم ناول أحدهما لعز وهو يردف قائلاً:

- يومها أيقنت أن من صبر على نائبته كانت كأنها لم تنزل به، ومن جزع عندها أعطبت قلبه وثلّمت روحه، في تلك اللحظة ولد في قلبي صبر كالجبال، وتملك روحي عزم وهمة جعلاً كل عقبة كؤود أمامي كالهباء المنثور، حينها أدركت أنني ولدت من جديد وأن حياتي الحقّة قد بدأت لتوها، حياة أكون فيها سيداً لهوأي ومتحكماً في نفسي وأغراضها، عندها وقر في نفسي أن العز يطلب ولا يمنح، وأن بلوغ الآمال في ركوب الأهوال، وأن القناعة محمودّة إلا في طلب المجد ونيل الرفعة، فمن قنعت به نفسه في تلك المواطن فقد أصابه بعض من حال البهائم.

قالها وحلّ صمت مهيب لبعض الوقت راحت خلاله كلمات مجد الدين تتردد في قلب المملوك وعقله الذي همّ بطرح تساؤل ما لولا أن تناهى إلى مسامعها صوت عامر صاعداً الدرج ناحيتها فانتفض الرجلان بلهفة، ومجد يهتف:

- لقد عاد عامر من القاهرة.

اندفع الشاب ناحيتها محتضناً إياهما والسعادة بادية على وجهه.

- أي أنباء تحمل يا سعيد الوجه؟

- أنباء يطيب لكما سماعها.

ضمه مجد الدين وهصره بشدة وهو يصرخ فرحاً:

- هات ما عندك وعجّل به، الشوق والفضول سيقْتلاني:

قالها بشغف هائل فأجابه الفتى بحُبور ووجهه يشعُّ بحماسة هائلة:

- الأزهر أعلن غضبته وثورته، وفي الصباح ستشتعل الأرض ناراً تحت أقدام الفرنسيّة.

تراقصت السعادة على وجه الرجلين ولمعت عيناها ببريق نائر متحمس.

- أحقًا ما تقول يا بني؟

- أجل يا أبي، ولقد كاتبوا سرًا عموم المشايخ في شتى ربوع مصر يعلمونهم بذلك لينتفض الجميع في لحظة واحدة فيعجز الفرنسيون عن إخماد الثورة.

- بعد صلاة الفجر نعلن ذلك للأهالي ونحمسهم للمشاركة.

- أترى الأمر يجدي نفعًا يا أبي؟

رَبَّتْ مجد الدين بيديه على كتف الفتى بقوة وهو يقول:

- إن لم يجلب لنا نصرًا وعزة، فعلى الأقل سيجلب لنا موتًا كريمًا مجيدًا يليق بشعبنا، وحاشانا أن يُقال عنا أننا خنعنا وخضعنا أمام غاز آثم يريد بنا وببلادنا الولايات والثُُور.

ضجَّ الجامع بالمصلين وتعالَت الأصوات واختلطت وأحدهم يهتف بخوف:

- قوة ضخمة من الفرنسيات تعسكر خارج البلدة، ومع أولى بشائر الصباح سيقتحمون القرية لمصادرة الحبوب والغلال والماشية لتأمين مؤونتهم وأيضًا لمصادرة الحميمير والبغال لنقل جنودهم وعتادهم.

تساءل البعض مذهولًا:

- وما عسانا نصنع؟ الممالك أهل الحرب والبأس لم يثبتوا أمامهم ساعة.

تدخل آخر في الحوار:

- وهل نتركهم ينهبون أموالنا ويدنسوا شرفنا ونحن مكتوفو الأيدي؟

صاح عجوز يستند على عصا خشبية بصوت واهن:

- أرى أن نجنب أنفسنا وأهالينا الدمار والموت، لنرسل وفداً إليهم للتفاوض وتسليمهم ما يريدون شريطة ألا يقتحموا القرية وألا يؤذوا أحداً من أهلها.

ارتفعت بعض الأصوات مؤيدة لرأي العجوز على حين هبَّ فريق آخر معارضاً الرأي قبل أن يهدر صوت مجد الدين بغضب بالغ أسكت الجميع:

- لا يضير المرء فقدان حياته، إنما يضره فقدان إنسانيته وإهدار كرامته.

هتف شاب بتوتر بالغ:

- الناس خائفة يا شيخ مجد، ما عساها تصنع؟

أجابه مجد الدين وعينه تلمعان بحماسة:

- الخوف سلاح ماضٍ قهار، يسلب الأمل ويحطم الروح، فلا تمنحوه لأعدائكم. أضيئوا بداخلكم مشاعل الشجاعة والإيمان، اجعلوها تتوهج بشدة ليتحول ضعفنا إلى قوة، ويأسنا إلى أمل مشرق براق، اقتحموا دوامات الخوف ممتشقين سيف الصدق حاملين درع الإيمان رافعين راية الأمل، مضيئين الدرب لمن يأتي بعدكم ليسير على طريقكم ويسلك نهجكم.

سرت رعدة حماسية في عروق الناس وتعالَت الهمهمات قبل أن يرفع العجوز عقيرته وهو يمتطّ شفتيه قائلاً:

- يا شيخ مجد لا تنقصنا الشجاعة ولا النخوة، لكن على المرء أن يعي متى يقدم ومتى يحجم، ونحن نبحث عن أقلّ الخسائر الممكنة، لا طاقة لنا بالوقوف في وجه هؤلاء.

— هبْ أنا فعلنا ذلك يا سيدي، هل ترى الفرنسيّون يلتزمون بعهودهم؟ هؤلاء لا عهد لهم ولا ذمة، كم من قرية قبلنا اقتحموها وغدروا بأهلها، ولم يكتفوا بمصادرة المؤن، بل أيضًا أزهدوا الأرواح وانتهكوا الحرمات! دعونا لا نكرر خطايا الماضي حين تدرّث أمتنا بالخوف، وتحججت بالبرد وحر الصيف، فكان عاقبتهم أن ملكهم الزّيف، وحكمهم الحيف.

تعالّت أصوات عديدة تؤيده وهو يُتبع بشموخ وعزة:

— وأنا والله لا أعطي بيدي إعطاء الذليل، ولا أمنحهم بيدي حبة قمح واحدة طوعية، إن أرادوا أخذها فليعبروا فوق جسدي أولاً، وخير لنا أن يقال ماتوا كرامًا مدافعين عن عرضهم وأرضهم بدلًا من أن يقال ذبحهم الفرنسيّون كالنّعاج بعد أن سلبوهم أموالهم وقوت عيالهم، وإني والله لا أنصرف عن قتال الفرنسيّين إلا قاتلاً أو مقتولاً، وشتان بين قتالنا وقتالهم، قتالهم سلبًا ونهبًا، غزوًا وقهرًا، وقتالنا عزًّا وكرامة، حفظًا للدين وصونًا للعرض، وحماية للأرض، أجل تلك الأرض المباركة التي رواها أجدادنا بدمائهم الزكية، وغرسوا نبتها من فيض أرواحهم النقية، تلك الأرض التي تركوها لنا وديعة وأمانة، وإنا والله معشر أوفياء أمناء لا ننخلع من عهدنا ولا نحنت بقسمنا، فإما أن نصون الدين والأرض ويكون لنا في بلادنا الصدر أو تكون لنا قبرًا شاهدًا على كفاح أمتنا وبسالتها، واعلموا أنه لا يصبر على القتال إلا ثلاث ذو دين، أو غيران، أو ممتعض من ذل، وإنا والله أهل هذه الثلاث، وأما سلاحهم وعتادهم فلا تخشونه، فإنه وإن طال الأبدان وأذاها، فشيء واحد لن يستطيعوا الوصول إليه، شيء واحد هو ما نحتاجه لنعبر دربنا.

قالها ووضع يمينه على قلبه فضج الجامع بالتكبير واندفعت الحماسة في العروق ومجد الدين يهتف بحماسة:

- الآن وفي تلك اللحظة رجال الأزهر يشعلون القاهرة ناراً فوق رؤوس الفرنساوية، لقد اندلعت ثورة الأزهر ولن تتوقف حتى تُلقى بالملاعين خارج مصر كلها، ولن تنجح تلك الثورة ما لم تشارك فيها كل القرى والأنحاء، ليعجز الفرنساوية عن قمعها، وأنا والله أبدأ بنفسى وأهل بيتي نقدم الصفوف ونقتحم المهالك ونقضي نحبنا ونحن نقاوم هؤلاء العلوج حتى لا تطأ أقدامهم الدنسة قريتنا هذه.

هتف شاب بصوت جهوري:

- نحن معك يا شيخ مجد الدين.

تصاعدت الصيحات الحماسية وارتجّ الجامع بالتكبير ومجد يهتف بصوت مجلجل:

- اليوم سنكتب قصيدتنا.

بمداد من فيض دمانا.

بدموع مختلطة بغبار أرضنا.

نرسمها على أشلاء قتلتنا.

اليوم سنكتب قصيدتنا.

وفي الغد يتلوها أحفادنا وأحفاد أحفادنا قصيدة العز لا قصيدة الذل والهوان.

- الله أكبر، ليبارك الله الأزهر ورجاله.

سرت الحماسة في القلوب وغلّفتها تمامًا، وتعالّت أصوات عديدة متسائلة:

- ماذا تقترح يا شيخ مجد، ما الذي يمكننا صنعه؟

تطوُّع شاب في الرد قائلًا:

- أرى أن نهجم الآن على معسكر الفرنساوية ونشعل فيه النار:

أشار إليه مجد الدين بسبابته قائلًا:

- لا نريد أن نتحرك من دون تنظيم ولا دراية، عز الدين له خبرة ودراية بالحرب والقتال، وقد قاتل ضد الفرنساوية، ويعرف حربهم ونظامهم، لذا سيتولى تنظيم صفوفنا وتوزيعنا بما يتناسب مع وضعنا.

قالها مجد الدين وهو يربت بيده بقوة على كتف عز الدين مستحثًا إياه على التقدم وتولي الأمر. تردد قليلًا وهو يحدّق النظر في عيني مجد الدين فلمح فيها بريقًا وإصرارًا هائلًا، فجرت في عروقه الحماسة وتقدم خطوتين إلى الأمام لافظًا خلفه مخاوفه وتوتره متأملًا الحشد بعين متأهبة واثقة وقال:

- لا طاقة لنا بمواجهة الفرنساوية في ساحة مفتوحة، يفوقونا عددًا وعدة، لذا سنعمل على استدراجهم وجرّهم إلى داخل طرقات القرية، حتى تنفك تشكيلاتهم ويضطرون إلى التفرق داخل الأزقة والشوارع الضيقة، فتضعف قوتهم ويعجزون عن استخدام المدافع، حينها نحاصرهم من كل جانب، النساء والأطفال من فوق أسطح البيوت، يقذفونهم بالحجارة، والرجال يحملون ما يقدرّون عليه من سلاح، وسكاكين، وشوم، ونباييت، ونلتحم معهم ملتصقين المدد والعون من الله، ووطنوا أنفسكم على الجد

والعزيمة، ولا تتركوا مدخلاً إلى قلوبكم يذهبكم منه الخوف والهلع، واعلموا أن المنية هي والله خير من الدنية.

تعالّت التكبيرات وصيحات الحماسة وعز الدين يوزع الأهالي على طرقات القرية وشوارعها.

* * *

دويُّ البنادق أصمُّ أذني أرماند ورائحة البارود ملأت رثيته بالكامل، النيران وصلت حافة السماء، امتلأ الأفق بصرخات مكلمة مفجوعة، ممتزجة بصيحات قتال دام. تلفت حوله في ذهول وهو يقف أعلى تبة يشاهد المعركة الدائرة داخل القرية بين قواته والفلاحين الذين هاجموا الجنود بكل بسالة. لم يُصدّق عيناه وهو يشاهد الرجال والنساء يندفعون في الشوارع والطرقات حاملين الشوم والنباييت مهاجمين الجنود المدججين بالسلاح. اعتقد لوهلة أنها فورة حماسة سرعان ما تحمدها طلقات البنادق حين تخترق الصدور ويسقط الرجال صرعى. لكن ظنه خاب لم يتوقف الموج المناضل، ولم يتراجع الفلاحون، عبروا فوق أجساد رفاقهم مكبرين بصوت زلزل كيانه واخترق روحه فسرت فيه رعدة عنيفة وهو يشاهد جنوده يتساقطون الواحد تلو الآخر. وعبثاً حاول الجنود إيقاف الأهالي والتصدي لهم.

- هل هؤلاء مجانين، يقفون أمام البنادق بصدور عارية، أي قوم هؤلاء؟ قالها وعيناه ترقبان رجلاً أزهرياً معممًا بدا كمارد هائج يحمل شومة في يده راح يهوي بها كهزيم الرعد على رؤوس الجنود فيفلقها نصفين، لم يقف أمامه أحد، الجنود فروا من أمامه بذعر هائل.

صرخ أرماند بوحشية في الجندي بجواره:

- أرسل باقي الجنود، مُرهم بالقضاء عليهم، لا تتركوا منهم أحداً حيًّا.
اندفع باقي الجنود مساندين زملاءهم داخل طرقات القرية، ورويدًا
رويدًا بدت كفة المعركة تميل لصالحهم، طلقات البنادق أوقفت ضربات
الشوم العنيفة. حوصر الأهالي في الطرقات وسد الفرنسيون المخارج
والمداخل عليهم، فيما أمر أرمائد مدفعيته بالتجهز لقصف القرية بالكامل.
أخذ مجد الدين نفسًا عميقًا وهو يمسح الدماء من على وجهه ملتفتًا إلى
عز الدين بجواره وهم ينحنون خلف جدار محتمين من طلقات البنادق
وخلفهم العشرات من أهل القرية قبضت أيديهم بقوة على عصيهم وهم
يرقبون بحذر اقتراب عساكر الفرنسيين.

- بذلنا وسعنا يا عز الدين، مرحبًا بالموت بعد ذلك.

- أجل والله يا شيخ مجد، الآن لا أخجل أن أقضي نحبي بعد أن بذلت
قصارى جهدي.

تأمل مجد الدين زيه الأزهرى الذي خضبت الدماء، ابتسم وهو يقول:
- الحمد لله على هذا، أن تُخضب الدماء زِيَّ الأزهر خير من أن يُلطخه
عار الذل والهوان.

هزَّ عز الدين رأسه بحماسة بالغة واعتدل في جلسته متأملًا الوجوه
الباسلة من حوله. لم يعد يفصل عنهم عساكر الفرنسيين غير بضعة أمّات.
أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يهتف بصوت جهوريٍّ مُزلزل ارتجت له القلوب:

- مرحى أيها الرجال، ومرحبًا بموت في مثل هذا الموضع، وإن كنا عدنا
عيشًا حميدًا فلن نعدم موتًا مجيدًا، قوموا وناضلوا عن أرضكم وعرضكم،
واعلموا أن الموت في طلب العز أحسن عاقبة من الحياة مع الذل.

قالها وهو يهز سيفه بقوة قبل أن يتحرك برشاقة وسرعة ليقفز وسط
الفرنساوية ضارباً بسيفه يمناً ويسرة ومن خلفه اندفع باقي الرجال
وتكبيرتهم تصل عنان السماء، فيما صرخ مجد الدين بصوت مزلزل:
- ألا إن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء.

ألهبت كلماته حماسة الرجال، وأشعلت ثورة قلوبهم فمضوا في معركتهم
بثبات يفوق رسوخ الجبال. كان قتالاً عنيفاً، الرجال قاتلوا ببسالة نادرة، لم
يوقفهم عن القتال سوى قبض أرواحهم، عيونهم امتلأت بالأمل وقلوبهم
غشتها السكينة، لم يبالوا ببارود فرنساوية، استقبلوه بلا خوف، بل
بشجاعة فائقة وثبات منقطع النظير. رجال ونساء تشاركوا ساحة القتال،
حاملين أرواحهم في كف والأخرى تحمل عصاً يناضلون بها عن أرضهم.
لكن قديماً قالوا الكثرة تغلب الشجاعة، فرنساوية تكاثروا حولهم وأعادوا
تنظيم قواتهم فيما اقتربت ثلاثة مدافع صغيرة متأهبة لإطلاق قذائفها،
الأنفاس احتبست في الصدور، والجنود يقتربون رويداً رويداً. طلقة ضربت
مجد الدين في كتفه الأيسر فترنح جسده وتراجع خطوة للخلف، كتم آلامه
في صدره وتحامل على نفسه ودماؤه تنزف بغزارة. تقدم ثانية فأصابته طلقة
في ساقه فسقط أرضاً على ركبتيه. الطلقات كانت تأتي من كل اتجاه حتى ظن
البعض أن السماء تُمطر ناراً. غامت عيني مجد الدين واضطربت الرؤية، لوهلة
خُيل له أن المشهد حوله تجمد تماماً، وحل صمت هائل لا تسمع خلاله حتى
النأمة، فيما أخذت عيناه تطوفان بساحة المعركة متبيناً كل تفاصيلها بوضوح،
حتى طلقات فرنساوية توقفت في الهواء، وليس بعيداً عنها زخات من
الدماء معلقة بين السماء والأرض. وجد نفسه يتمتم بسكينة وادعة:

- حم حم حُم الأمر وجاء النصر فعلينا لا ينصرون.

قالها وتناول بقبضته حُفنة من الحصى والتراب ضمها بقوة ثم فرد ذراعه عن آخرها وضرب بها وجه الجنود وهو يصيح بقوة وغضب وبصوت هادر وصل أبواب السماء:

- شامت الوجوه.

رأى ذرات التراب تقتحم العيون والأنوف وتلفح وجوه الجنود، رأى الحصى وكأنها طلقات لا تخيب رميتها، فقأت العيون وأدمت الرؤوس، راح يلتقط أنفاسه ببطء ونبضات قلبه تطرق مسامعه كدويّ طبل هائل. وفجأة عاد المشهد كما كان، مع تصاعد الغبار بشكل كثيف غطّى وجه السماء، تزامناً مع اهتزاز الأرض وارتجاجها بتكبير هائل وأصوات صارخة غاضبة، واندفع الرجال والنساء من كل صوب وحذب، بدوا أشبه بسيل جامح لم يصمد أمامه الفرنسيون راحت العصا والشوم تنهال على رؤوس الجنود فتساقطوا قتلى وصرعى ومجد الدين يهتف بسعادة غامرة على الرغم من جراحه:

- لقد انتفضت القرى من حولنا.

تداعى الأهالي من القرى المجاورة وهرعوا إلى مؤازرة إخوانهم. كان يوماً مشهوداً حين فرّ من تبقى من الفرنسيون تاركين بنادقهم ومدافعهم في أيدي الفلاحين الذين كتبوا أول سطر في تاريخ مصر الجديد، بل وفي تاريخ الشرق بأسره. لقد صار لطبلهم صوت أفضّ مضاجع الفرنسيون وقوّض أحلامهم وآمالهم في أن يصير لهم موطأ قدم في مصر.

كانت ثورة عظيمة أشعلها الأزهر ضد الفرنسيون، ثورة لم يستطع نابليون قمعها إلا بعد أن ضرب القاهرة بالمدافع بكل عنف ووحشية،

ليقتحم بعدها الأزهر بخيله ورجله، ولتسيل دماء الأزاهرة على أرضية الجامع، دماء طاهرة زكية، أبت إلا العيش الكريم أو الموت المجيد، دماء ستكون لعنة على نابليون وحملته، فروح الثورة لم تخمد في نفوس المصريين، ولم يهنأ الفرنسيون بالإقامة في مصر حتى اضطروا بعد ثلاث سنوات من عمر الحملة إلى الخروج منهزمين منكسرين. ولكن، آه من لكن.

* * *

الفصل الرابع عشر

تأوّه زغلول بصوت خفيض وهو يتحرك بصعوبة في أحد شوارع القرية. بدا عليه الإجهاد والإنهاك التام. أصابه دور برد قاس فتناول الدواء على معدة فارغة فأدركه إعياء شديد. كان يود لو يظفر بطبقٍ من الشوربة الساخنة وقطعة من اللحم تُنعش قواه الخائرة من جديد، لكن أنى له هذا فلا زوجة تطهو له ولا مال في جيبه يعينه على شراء حتى ولو قطعة عظم يصنع عليها طبق الحساء.

لمح خميسًا يتجه ناحيته فاستند على حائط مجاور له ملتقطاً أنفاسه بصعوبة:
 - مالك يا ض يا زغلول وشك زي الليمونة كده ليه؟
 - تعبان يا خميس، دور برد هادد حيلي، لا وإيه خدت العلاج على بطن فاضية، حاسس إن روحي بتتسحب منى.
 - غشيم وأشلح، قبل العلاج كان لازم طبق شوربة وليمونة وهبرة لحم ترم العضم.

سال لعاب زغلول وارتحف جسده وتساءل بحسرة:
 - ودول أجيبيهم منين؟
 تحرك الاثنان في طريقهما وخميس يقول بخبث واضح:
 - الصبح قبل ما أروح الشغل معدي على المعلم دكش الجزار، عارفه يا وله؟

- عارفه يا خميس ما له؟
- كان عنده حطة لحمة من الموزة، إنها إيه من جمالها كانت هتنطق، عارف الموزة ياض يا زغلول؟
- جرى ريق زغلول أكثر وهتف بانهار:
- عارفها يا خميس عارفها، كمل وبعدين.
- رمقه خميس بنظرة مأكرة وهو يقول:
- رocht جايب منه كيلو.
- تزايدت ضربات قلب زغلول تزامناً مع جريان الريق وبالكاد نطق:
- أيوه وبعدين يا خميس.
- مرت بجوارهم امرأة فأشار إليها خميس:
- إزيك يا خالة نعيمة، عم رشاد مات ولا لسه؟ بيقلوا حالته متأخرة.
- سيبك منها وكمل يا خميس الله لا يسيئك.
- صاح زغلول بحدة فعاود خميس كلامه:
- وقفنا فين يا وله؟
- لما جبت حطة الموزة.
- أيوه، جبت الكيلو وبعدين بصيت لقيت جنبه الولية أم تهاني بتاعت الخضار، كان عندها شوية بسلة إنها إيه عنب، رocht جايب منها نص كيلو.
- مر بجوارهم شاب فاستوقفه خميس متسائلاً:
- ازيك ياض يا فخري، إلا صحيح أمك اتطلقت؟

- انفعل زغلول أكثر ووكزه في كتفه:
- سييك منه يا خميس وكمل.
- أكملوا سيرهم وخميس يتساءل بخبث:
- كنا واقفين فين يا وله؟
- عند بسلة أم تهاني.
- أيوه جبت منها كمان شوية جزر وشوية طماطم لزوم السلطة، أصل الشورية تحب جنبها السلطة.
- مر بجوارهم شخص فسأله خميس:
- إلاماتش الأهل والزمالك امتي؟
- صرخ زغلول ولعابه يسيل:
- سييك من الماتش يا خميس وكمل الله يسترک.
- حاضر يا وله. المهم خدت حطة الموزة والطلبات ورجعت بهم على البت هيام أختك، قلت لها تروقه وتظبط معاهم طاجن رز معمر في الفرن، أصل الموزة بتحب جنبها طاجن المعمر.
- استدار ناحية زغلول وأردف ببطء وهو يضغط على حروف الكلمات:
- عارف طاجن المعمر وحلاوته بقى لما يكون على وشه حطة سمنه زبدة.
- سال لعاب زغلول حتى أغرق وجهه وارتجف جسده هاتفاً بانهيار تام:
- عارفه، عارفه.
- مرت بهم سيارة نصف نقل تحمل عمالاً ومعدات حفر فأشار إليها خميس قائلاً:

- بتوع الصرف الصحي، يركبوا ماسورة فيه في الأرض اللي بغفرها بقالهم يومين.

- سيبك منهم كمل، وبعدين أخبار الطاجن إيه؟

هرش خميس في رأسه ببرود ثم قال:

- زمانه جهز، روح أنت بقى، وأنا هروح اتغدى، وأقابلك بالليل على القهوة، اتغطى كويس وهتبقى زي الفل.

همَّ بالمغادرة فتعلق زغلول برقبتة وبصوت أشبه بالبكاء صرخ متوسلاً:

- خدني معاك يا خميس، خدني معاك.

- أأخذك فين؟

- خدني أتغدى معاك، أنا واخد مضاد حيوي ألف يا خميس.

- ياض مش هينفع، روح يا طففس.

- طففس، طففس نفسي في حطة لحمة وشوية شوربة من دول.

راح خميس في نوبة ضحك هستيريٍّ وهو يقول:

- وقعت يا مدب، ده أنا بشتغللك، أختك هيام عاملة مكرونة محمرة.

ازدادت لوعة زغلول.

- بتكذب، خدني معاك يا خميس، والله تعبان وواحد مضاد حيوي ألف.

صاح خميس بحدة:

- ياض والله عندنا مكرونة محمرة، طب تعال شوف بنفسك.

صمت زغلول وراح يتأمل به غلٌّ وغيظ شديد:

- طب غور من وشي، جاتك نيلة، جريت ريتي وشغلت معدتي على الفاضي.

استغرق خميس في الضحك مجددًا وغادر تاركًا زغلولًا في معاناته فتوجه الأخير إلى دكان البقالة واستند على بابه:

- والنبى يا عم عفيفي اديني برقع جنيه لانشون، هفتان وهقع من طولي.

- مالك ياض يا زغلول وشك مصفر كدا ليه؟

- تعبان وواحد مضاد حيوي ألف.

تساءل الرجل باستغراب:

- ولانشون إيه اللي هتاكله، أنت محتاج طبق شوربة وحتة لحمه.

بنفاد صبر تساءل زغلول:

- وأجيبهم منين؟

- من عند أختك هيام يا وله.

- هيام طابخة النهاردة مكرونة.

بدا الاستغراب على وجه عفيفي وهو يقول:

- مكرونة إيه؟! دي كانت عندي الصبح وواحدة طلبات أد كدا، وقالت

هتعمل طاجن رز معمر على حتة لحمه موزة، قال إيه عاملة مفاجأة لخميس:

لم ينتظر زغلول سماع باقي الكلمات فأطلق ساقيه للريح صوب دار خميس

الذي جلس في تلك اللحظة على الطبلية وهو يتأمل الطعام ضاحكًا:

- والنبى الواد أخوكي زغلول لو عرف هيطب ساكت.

تساءلت هيام بلهفة:

- وهو فين كان جه يتغدى معانا.

ضحك خميس:

- ده لو عرف هيموت أصله واخذ مضاد حيوي ألف، وقلت له عندنا مكرونة.

لم يتم خميس كلامه إذا ارتفعت الطرقات على الباب وزغلول يصرخ:

- افتح يا خميس، افتح يا ض، والله واخذ مضاد حيوي ألف.

تهاوت سوزان بجسدها المنهك على أريكة صالونها الأنيق. أَلقت بحقيبتها بجوارها واسترخت في جلستها وراحت تتنفس بعمق وبطء وكأنها تنضو عن نفسها عناء يوم شاق. مدت ساقها على الأريكة وهي تلتقط علبة سجائر من جوارها أخرجت منها سيجارة طويلة بنية اللون، أشعلتها وراحت تنفث دخانها باستمتاع بالغ، وهي ترجع برأسها إلى الخلف مُغمضة عينيها سامحة لجسدها بالاسترخاء الكامل. انتهت من سيجارتها فهَمَّت بإشعال أخرى لولا الرنين الذي تصاعد من هاتفها المحمول فغادرها الاسترخاء وشدت أعصابها وتوترت كعادتها دائماً كلما هاتفها الدكتور. تناولت الهاتف بلهفة وراحت تحيب.

جاءها صوت الدكتور محملاً بلهفة وسعادة بالغة:

- سوزان، حددنا مكان المقبرة بالضبط، هبعثلك كل التفاصيل حالاً.

اعتدلت في جلستها والسعادة تغمر كيائها وقالت بلهفة بالغة:

- مش معقول، قدروا في اليومين دول يوصلوا لمكانها، ده أسعد خبر سمعته في حياتي.

- أيوه. المهم العملية لازم تتم الليلة، رجالتك يروحوا يكملوا الشغل. أخذتها الحماسة فاندفعت قائلة:

- كل حاجة جاهزة والرجالة مستعدين.

- عايزها عملية سريعة، ونظيفة، ما فيش أثر ورانا، هي فتحة صغيرة يدخلوا منها يجيبوا البرديات وبعدين يردموا تاني. قالت بثقة عالية:

- اطمئن خالص، الرجالة محترفة، ودي مش أول مرة. جاءها الصوت قلقلًا:

- بس دي أخطر مرة يا سوزان، لازم ياخدوا حذرهم تمامًا، وقبل الفجر يكونوا خلصوا.

اعتدلت في جلستها وبدا عليها الاهتمام:

- حاضر يا دكتور، ابعثلي التفاصيل وأنا هرتب كل حاجة.

- المنطقة هناك مهجورة، مفيهاش غير غفير غبي رجالتنا أقنعوه إنهم تبع الصرف الصحي وسابهم يشتغلوا، وعامة هو معظم الأيام مش موجود بالليل، لكن لو ظهر يتخلصوا منه فورًا، المهم ما فيش دليل يبقى ورانا.

نهضت من مكانها وهي تقول:

- أنا هتابع معاهم العملية لحظة بلحظة.

- منتظر أخبار سارة منك يا سوزان.

ابتسمت بثقة:

- تسمعها الليلة يا دكتور.

* * *

لم يتوقف خميس عن رواية ما جرى له مع لصوص المواشي طوال الليل وهو يتوسَّط رواد المقهى. كان يضع لمساته في كل مرة ويعيد ويزيد في الحكاية. لم يوقفه غير قيام جمعة بتشغيل فيلم جديد لتنشيط الزبائن على طلب المشروبات. اندمج خميس وزغلول في متابعة الفيلم بينما انهمك الرجل بجوارهم في حديث لم يع خميس منه حرفاً واحداً لانشغاله بمتابعة الفيلم. كان يكتفي فقط بهز رأسه موحيًا للرجل بالإنصات له لكن الجملة الأخيرة حفزت خلاياه.

- أمال إليه الحفر الي شغال في الأرض عندكم؟

- بتوع الصرف الصحي.

تساءل الرجل مندهشاً:

- صرف صحي إيه؟ مفيش حد من عندنا شغال هناك.

التفت إليه خميس مدهوشاً وتساءل بقلق:

- إزاي الكلام ده؟

- زي ما بقولك كدا، أنا شغال في الصرف الصحي ومفيش شغل لنا

هناك.

زاد قلق خميس وضافت عيناه وهو يقول:

- أو مال دول مين؟

- وأنا إيه عرفني، مش يمكن بيضحكوا عليك وهي عملوا هناك مصيبة.

انتفض خميس واقفًا بفرع:

- يا داهية دقي روحت في داهية يا خميس.

قالها وأطلق ساقيه للريح، من دون أن ينتظر زغلول الذي راح يحاول عبثًا اللحاق به. عرج على الدار حمل بندقيته وهرول ناحية الأرض. اقترب منها فلمح أضواء خافتة وثلاث سيارات سوداء ضخمة توجد داخلها وعدداً من الرجال منهمكين في إخراج الرمال من داخل حفرة ما.

تسلل ناحيتهم بحذر واختبأ خلف كومة رمل يرقب الموقف بهلع وقشعريرة باردة تتاب جسده. جال في خاطره أنه ربما يقومون بدفن شيء ما داخل الحفرة، جثة أو ما شابه أو ربما مخدرات.

غمغم بصوت مضطرب:

- وأشيل أنا المصيبة دي وألبس في الحيط، يا سوادك يا خميس، شكلها المرة دي هتتطبق على دماغك يا مارشال.

تصبّب العرق منه بغزارة على الرغم من برودة الجو وبدأت الهواجس تتلاعب برأسه والحيرة تُغرقه في بحارها. حسم قراره بعد عناء وقرر عدم المواجهة المباشرة معهم. رفع بندقيته إلى أعلى وأطلق طلقة هزّت الأرجاء وبدأت في ذلك الفضاء الساكن كدويّ ألف طلقة.

توقف الرجال عن الحفر وبدأوا سريعاً في سحب زميلين لهم من داخل الحفرة. أصابهم التوتر والارتباك بينما بدا وكأنه قائدهم يتحرك سريعاً

لاستطلاع الأمر، فيما أخذ البعض يهرول ناحية السيارات. أطلق خميس طلقة الثانية والثالثة فلم يبقَ في المكان أحد قفزوا جميعهم داخل السيارات وانطلقت بسرعة هوجاء مثيرة خلفها عاصفة ترابية.

ظل كامناً مكانه حتى تأكد من ابتعادهم فاقترب بحذر من منطقة الحفر وهو يقدم قدماً ويؤخر الأخرى تحسب لما سيلاقيه.

دنا من الحفرة وألقى بصره داخلها فتسمّر مكانه وهو يتأمل باباً حجرياً ضخماً بدا نصفه العلوي بارزاً بينما ما زالت الرمال تظمر جزءه السفلي. تتم بذهول:

- يا ولاد الكلب، مقبرة فراعين.

* * *

انقلب الليل نهراً وخلال ساعة واحدة طوّقت الشرطة المنطقة بينما وصل وفد أثريّ في الصباح لمعاينة المقبرة.

- الظاهر إنهم عصابة تنقيب عن الآثار، لكن الغريب وصلوا للمكان ده إزاي، كأنهم محددين المقبرة بدقة، مش مجرد حفر عشوائي.

قالها مفتش الآثار لضابط الشرطة بينما يواصل رجاله رفع الرمال من داخل الحفرة.

هزّ الضابط رأسه مؤكداً كلام المفتش لكنه تساءل مستغرباً:

- الغريب في الأمر إن المنطقة هنا غير مشهور عنها تواجد آثار فيها.

أوماً المفتش قائلاً بثقة:

- كل حاجة هتظهر بمجرد فتح المقبرة بكرة، فيه لجنة من الوزارة هتشرف على العملية وتجرد محتويات المقبرة. النهاردة هنكتفي برفع الرمال عن الباب ووضع حراسة على المكان.

* * *

طالت مكالمه الهاتف التي يجريها الدكتور بصوت خافت لم تتبينه سوزان التي جلست ترقب الظلام بعينين خائفتين وقلب هلوع وجسد مرتعش. عجزت أناملها عن الإمساك بسيجارتها من شدة التوتر، فألقت بها أرضاً ساحقة إياها بقدمها، قبل أن يتناهى إلى مسامعها صوت الدكتور الغاضب.

- شُفتي وصلتينا لفين، الدنيا مقلوبة عند المقبرة.

شَحَبَ لونها وردت بجزع وبصوت مرتعش:

- الأمور كانت ماشية كويس جداً، لحد ما الغفير ظهر وضرب نار.

رد عليها الدكتور بصوت هادر كاد يصمُّ أذنيها:

- إنتي باعثة شوية متخلفين، مش عارفين يأمنوا مكان شغلهم.

صمت قليلاً ثم صاح بعصية بالغة وهو يدق بقبضته على سطح مكتبه:

- الأمور لو فلتت من أيدينا تمنها هيبقى حياتك يا سوزان.

تساءلت بتضرع بالغ ووجهها يزداد شحوباً وامتناعاً:

- والعمل إيه دلوقتي؟

- أنا هتصرف بنفسي.

تساءلت بصوت مرتجف وعيناها تجاهدان لاختراق الظلام وتبين ملامح

الدكتور:

- إزاي؟

جاءها الصوت صارماً للغاية:

- هروح المقبرة الليلة بنفسى، الوضع لا يحتمل أي مخاطرة ثانية.

بدا عليها الذهول وانعقد حاجباها لكنها لظمت الصمت والدكتور

يردف:

- بكرا وزارة الآثار هتفتح المقبرة ولو عشروا على البرديات تبقى كارثة.

- والحراسة هناك؟

سألته بخوف فأجابها بثقة عالية:

- مجرد حراسة عادية، الشرطة اعتقدت أن الحفر كان من خلال عصابة

تنقيب عن الآثار، واستحالة يتوقعوا رجوعنا تاني هناك.

* * *

الفصل الخامس عشر

قبل الغروب بقليل وقف خميس في منتصف الدار فارغاً كفيه بنفاد صبر
وهو يصيح في هيام:

- العشا بسرعة يا بت يا هيام، لازم أرجع عند المقبرة حالاً.

دخلت هيام حاملة لفافة قماشية يفوح منها رائحة فطير وجبن قديم،
ناولتها خميس والقلق بادٍ على ملامحها:

- وأنت مالك ومال وجع القلب ده، مش كفاية الي حصل امبارح؟!
وقف بشموخ قائلاً:

- يا بت جوزك أهم واحد في الحراسة دي، معايا اتنين غفر من المركز
ولازم أكون معاهم.
تبسم واستطرد قائلاً:

- عارفة النهاردة الطابط وأنا بحكيه الي حصل اتبسط مني أوي
وطبطب على كتفي ووالي أنت بطل يا خميس.
زادت نشوته وسعاده وهو يردف:

- عشان الأشالح الي كانوا بيتريقوا عليّا ويقولوا المارشال بيحرس
أرض بور، أهو جوزك يا بت طلع بيحرس مقبرة فراعين.

أطلق ضحكة جذلة عالية بينما اقتربت منه هيام وهمست بقلق:
- بس مش عارفة يا خميس قلبي متوغوش ليه؟

- سيبها على الله.

- ما هو كله على الله، بس النسوان في البلد النهاردة كانت بتقول فيه حاجة اسمها لعنة الفراعين بتصيب أي حد يقرب من مقابرهم.

قالتها بخوف واضح فأطلق خميس ضحكة مججلة:

- مفتش الآثار النهاردة قاللي دي إشاعات، أنا برضه سمعت كذا وسألته، وبعدين متقلقيش كلها سواد الليل والحكومة هتلم المساخيط اللي جوه المقبرة ويقفلوها.

- مش هيجي ليّا نوم طول الليل غير لما ترجع.

- يا بت متقلقيش، وابقى خلي الأهطل أخوكي زغلول معاكي أهو يسليكي لحد ما أرجع.

لم يتم كلامه حتى تناهى إلى مسامعها طرقات خافتة على باب الدار. فتح خميس الباب متأملًا الطارق باستغراب بالغ. كان زائرًا غير متوقع بالمرة. هرش خميس في رأسه محققًا النظر في الشيخ فوزي الذي رسم ابتسامة بلاستيكية باهتة على وجهه قائلاً بتزلف واضح وهو يباعد بين ذراعيه:

- أنا جاي أبارك وأهنّي يا مارشال خميس.

جمعتهما جلسة داخل الدار وخميس يضع صينية الشاي أمام فوزي الذي حاول تلطيف الأجواء فواصل تزلفه وتملقه وهو يلوّح بيده رافعًا حاجبيه قائلاً:

- ما شاء الله بطولاتك صارت على كل لسان، أنت بقيت رمز من رموز

البلد يا مارشال.

- تأمله خميس بدهشة وهزَّ رأسه باستغراب قائلاً:
- يا سلام، أو مال كلامك عليّ في خطبة الجمعة كان إيه؟
- احمَرَّ وجه فوزي وارتبك وتلعثم قائلاً وهو يلوِّي عنقه:
- وأنت بتصدق كلام الناس يا خميس، أنت سمعت حاجة مني بنفسك؟
- الصراحة لأ.
- بدا الارتياح على وجه فوزي واتسعت ابتسامته البلاستيكية:
- يبقى خلاص، تيجي تصلي في الجامع تبعنا وتسمع بنفسك.
- رد عليه خميس بجدية بالغة مشيحاً بيده:
- لا يا عم، آخر مرة صليت عندكم طولتم أوي في الخطبة وملحقتش أنفـرج على سر الأرض.
- فغَرَّ فوزي فاه من الدهشة وقلَّب كفيه بذهول:
- سر أرض إيه، وكلام إيه ده يا خميس؟!
- سكت هُنَيْهَةً محاولاً التغلب على ذهوله وأعاد رسم ابتسامته ولانت لهجته وبلغ تملقه أوجه وهو يقول:
- سيبك من الكلام ده، وخلينا في المهم، إحنا عايزينك معنا.
- معاكم فين؟
- تلتزم وتكون مع الجماعة، وتصبح واحد مننا.
- ضاقت عينا خميس وتراجع برأسه للخلف قائلاً:
- أيوه، أيوه عايزيني أبقي تبع السنّة يعني؟

لم يرق الوصف لفوزي فتبرّم بعض الشيء لكنه واصل مجازاة خميس قائلاً
باقتضاب:

- بالظبط يا خميس ده قصدي.

اعتدل خميس في جلسته وبدأ عليه الجدية البالغة وراح يقول بثقة
مفرطة:

- أنا هتكلم معاك بصراحة يا شيخ فوزي، احنا مؤهلات زي بعض
وهنفهم بعض كويس.

ضرب الذهول وجه فوزي فتساءل:

- مؤهلات إيه الي زي بعض؟

- أنت مش معاك دبلون صنايع؟

- أيوه.

- وأنا معايا مؤهل نحو أمية.

امتّنع وجه فوزي وكاد يطلق سبّةً بذيئة لولا أن تمالك نفسه وقال من
بين أسنانه:

- وهو ده زي ده يا خميس؟

ابتسم خميس بثقة وأجاب:

- طبعاً زي بعض، أنت مش شهادتك مختومة بختم النسر؟

- طبعاً.

- وأنا برضه شهادتي مختومة بختم النسر، ومتسجل عند الحكومة إني

واخذ مؤهل.

أحسّ فوزي بدوار هائل يضرب رأسه وأن ضغطه سينفجر جرّاء كلمات خميس فصاح متبرّماً وهو يحكّ جبهته:

- ماشي يا خميس، خيلنا نعدي النقطة دي، عايز تقول إيه؟

تناول خميس كوب الشاي وارتشف منه رشفة بصوت عالٍ وقال بنبرة ثقة عاتية:

- الصراحة يا شيخ فوزي أنا خايف أمشي معاكم والتزم وأربي دقني ودي مشكلة كبيرة هتضايق هيام عشان لا مؤاخذه الـ، لكن دي مقدور عليها، لكن طبعاً لسه موضوع الجلايات، لازم ألبس جلايات قصيرة لحد الركبة زيكم، وهضطر أقص جلاياتي ودي برضه مشكلة عويصة لكن مقدور عليها.

تمللم فوزي بنفاد صبر وصاح:

- أومال إيه المشكلة؟

اعتدل خميس في جلسته ملوّحاً بسبابته قائلاً:

- أنا خايف بعد ده كله ألاقىكم غيرتم النظام، والفتوى اتغيرت زي اللي حصل في الانتخابات، ساعتها هكون لبست في الحيلة، لا وإيه مش أي لبسة.

جحظت عينا فوزي وألجمت المفاجأة لسانه فانعقد ولم ينبس ببنت شفة. راح يحدج خميساً بنظرات ذاهلة لبعض الوقت قبل أن ينفض رأسه يميناً ويسرة بحركة خاطفة كأنه يستفيق من أثر ما سمع وطفق يقول:

- اللي تشوفه يا خميس، خلي الموضوع ده بعدين، أنا عايزك في موضوع ثاني أهم.

قال العبارة الأخيرة بلهجة ذات مغزى واضح وهو يقترب في جلسته من خميس وبصوت أشبه بالفحيح أنشأ يقول:

- أخبار المقبرة الفرعونية إيه؟

أجابه خميس ببساطة وتلقائية:

- تمام. أنا رايح عندها دلوقتي.

واصل فوزي فحичه وهو يُغمض إحدى عينيه:

- خدت نصيبك منها ولا لسه؟

أوما خميس برأسه بسداجة قائلاً:

- آخر الشهر هيكون فيه مكافأة مائة جنيه.

ضحك فوزي ووكزه في كتفه وراح يقول في خبث واضح:

- يا جدع خليك دوغري، أنا بتكلم على حقك في المقبرة. خدت منها

حتة ولا اتنين؟

وقعت الكلمات على خميس كالصاعقة فهب منتفضاً وارتعد جسده وهو

يقول بغضب واستهجان:

- يا ليلتك السوداء، عايزني أسرق المقبرة؟!

انزعج فوزي لارتفاع صوت خميس فسارع بجذبه وأجلسه ثانية بجواره:

- سرقة إيه، دي حقك، المقبرة دي من ركاز الأرض.

زاد ذهول خميس وتساءل بعدم فهم:

- ركاز إيه؟

أجابه فوزي بثقة:

- ركاز الأرض. الشرع الي بيقول كدا، الي يلاقي حاجة تحت الأرض ياخذها ويطلع زكاتها، وأنت حقك في المقبرة دي كثير أوي.

رمقه خميس بانزعاج:

- كلام إيه ده؟ دي حق الحكومة.

همس فوزي بجوار أذنه:

- وحقك أنت كمان، خد منها حطة ولا اتنين، ومتقلقش، لو على التصريف أنا هصرفهم لك، دي طاقة القدر وافتحت لك يا مارشال.

ابتعد خميس عنه بجسده ورمقه بازدرأ بالغ ولوّح بكفّه غاضبًا:

- يا جدع اتقي الله، عايزيني أدخل بيتي فلوس حرام.

- وإيه اللي حرمها يا جدع أنت؟

- الحكومة.

انفعل فوزي وقال بحدة:

- الحكومة بتحلل على مزاجها، وتحرم على مزاجها، اسمع كلامي دي فرصة عمرك ومش هتتكرر.

لم يدر خميس بما يجيبه، أصابته صدمة عنيفة، وشعر أنه عاجز عن التفكير. راح يحدج فوزي بنظرات ذاهلة لبعض الوقت قبل أن يعزم أمره ويقول في ثقة:

- حرام حلال مليش دعوة، أنا غفير هناك، والحاجات دي أمانة في رقبتي، تيجي الحكومة تستلمها وهي حرة فيها.

دُهل فوزي وصاح بغضب:

- أنت غبي، تتضيع فرصة عمرك.

فوجيء بخميس يحببه بتلقائية وهو يومئ برأسه:

- ممكن أكون غبي، بس عمري ما هكون خاين، أنا مش يهوذا.

وقعت الكلمات كالصاعقة على فوزي فانكمش على نفسه وراح يتأمل خميس باستغراب مشوب بخوف. حتى خميس نفسه أصابته دهشة عارمة ولم يدر كيف خرجت منه الكلمة الأخيرة، وكأن أحدهم وضعها على طرف لسانه. حتى معناها لم يدركه لكنه سمعها تردد في عقله بقوة.

غمغم فوزي بخوف:

- يهوذا إيه؟

بدت الحيرة في عيني خميس، وأخذ يلتقط ريقه بصعوبة، همَّ بالصراخ في وجه فوزي وطرده، لكنه عوضاً عن ذلك وجد نفسه يسدد إليه نظرات زاجرة قائلاً بصوت عميق، وكأن أحدهم ينطق على لسانه:

- نسكٌ ظاهر، وفُحشٌ خفيٌّ.

ارتعد فوزي لدى سماعه الكلمات، ولمح في عيني خميس وميضاً أخافه بشدة، وبدا وكأنه شخص آخر راح يطالعه من عيني خميس فانتفض كمن لدغه عقرب ورائحة بحر لم يدر كيف أتت ضربت خياشيمه بقوة فراح يلهث وهو يلملم جلبابه وشاله وهب متعثراً مغادراً الدار تاركاً خميساً تنهشه الحيرة وهو يضرب رأسه بتوتر:

- الكلام ده جه منين، ومعناه إيه؟

لم يجد جوابًا. لفتته الحيرة وأخذ يقلب كفيه بدهشة وبداخله ثار بركان هائل من التساؤلات والهواجس التي لم يجد لها إجابة.

رويدًا رويدًا زحف الغسق بظلمته التي أخذت تلتهم كل شيء أمامها، فيما اسودَّت صفحة السماء لينجلي فيها القمر بتؤدة بصحبة بضع نجمات أخذت تتلألأ بسطوع مبهر.

تعالت الضحكات بجوار المقبرة وخميس يناول الخفيرين بصحبته أكواب الشاي وأحدهم يهتف بمرح وهو يُقَرِّب يديه من رابية النار ملتمسًا الدفء: - والله أنت نكتة يا خميس، حلوة أوي قصة المارشال دي.

ضحك بصوت عالٍ:

- آمال لما تسمعوا باقي الحكايات.

قاطعهم أحدهم بفضول:

- لكن قلبك جامد يا مارشال وأنت بتضرب نار على العصا.

أصابته كلمات الرجل بحالة من النشوة فاندفع في رواية ما حدث. طال حوارهم وانتقل بهم خميس من حديث إلى آخر من دون أن يلاحظ أحدهم اقتراب ثلاثة من الرجال منهم بهدوء مستترين بظلام الليل. فجأة أصبحوا فوق رؤوسهم فهبَّ أحد الحارسين متأهبًا:

- إنتوا مين؟

لم يكذب يَتَمُّ عبارته حتى انقضَّ عليهم الثلاثة بمهارة فائقة وطرحوهم أرضًا على وجوههم مكبَّلين حركاتهم تمامًا. شعر خميس بفُوَّة باردة تلتصق بمؤخرة عنقه وصوت حاد يصيح بشراسة:

- حركة واحدة وجنازتك هتطلع الصبح.

سرى الرعب فى عروقه وانتصبت الشعيرات على مؤخرة عنقه فلاذ بالصمت التام وهو يُنصت لصوت اقتراب سيارات توقفت قريباً من المقبرة خلف أكوام الرمال، فيما خرج منها الدكتور مرتدياً زياً أسود كاملاً يخفى ملامحه تماماً.

أدار بصره فى المنطقة متفحصاً إياها بدقة ثم ألقى نظرة خاطفة ناحية خميس ورفاقه قبل أن يستدير بهدوء ناحية المقبرة. كان برفقته ثلاثة رجال آخرين يمسك أحدهم بسلم من الحبال ألقاه سريعاً داخل الحفرة، فيما هبط رجلان وهما يمسكان بمصابيح يدوية وأخذوا يزيجان الأخشاب عن مدخل المقبرة. دقائق قليلة وصعد أحدهم ليساعد الدكتور على النزول إلى أسفل.

* * *

لم تكفَّ هيام عن الحركة طوال الليل. ظلت تذرع الحجرة ذهباً وإياباً والقلق يكاد يفتك بها بينما استلقى زغلول على الكنبه مستغرقاً فى مشاهدة التلفاز.

صاحت بتوتر:

- عيني بترف يا زغلول، حاسة إن فيه مصيبة هتحصل لخميس.

من دون أن ينظر إليها قال ببساطة محاولاً طمأنتها:

- سيبك من الكلام ده وادخلي نامي، الصبح هيبكون جاي زي الجن. المارشال ما يتخافش عليه.

جلست بجواره وقالت بتردد:

- مش جايلي نوم، قلبي واكلني عليه، أنا بفكر أروح أطمئن عليه دلوقتي.
التفت إليها مدهوشاً:

- انت اتجبلتي يا هيام، تروحي فين دلوقتي، الدنيا ليل والحتة هناك
مقطوعة.

وَجَمْتُ ولم ترد. لمح زغلول القلق يكاد يلتهمها ويقضي عليها، أشفق
عليها وأراد تهدئة بالها فابتسم وهو يقول مازحاً:

- متقلقيش أدام سبحة الشيخ خضر في رقبتة يبقى محفوظ ومحمي.
جمدت ملامح هيام بغتة واقتربت من زغلول وبدا في عينيها كلام كثير
يتدفق.

- مالك يا بت في إيه؟

قالت بعد تردد وشرود:

- هقولك على سر، بس اوعى تقع بلسانك وتقوله خميس.

بدا عليه القلق واعتدل في جلسته قائلاً بتوجس:

- سر إيه؟ أنت عارفة حاجة عن موضوع الشيخ خضر ده؟

تنهّدت بحرارة وقالت بحزن:

- فاكّر اليوم الي خميس اتخانق فيه مع أمك الله يرحمها أيام الخطوبة عشان

ميعاد الفرح، ويومها زعل وقال إنه هيسيب البلد خالص.

- أيوه. وبعدين غاب كام ساعة ورجع يحكي عن قصة الشيخ خضر

والسبحة الي علقها في رقبتة.

هَزَّتْ رَأْسَهَا وَطَفَقَتْ تَقُولُ:

- اليوم ده خميس كان محموم، وحرارته عالية أوي، وقبل ما يطق في دماغه موضوع إنه يسيب البلد كان في الدار عندنا معاك.

- كان نايم معايا في الأوضة، قبل خناقته مع أمك.

- اليوم ده أنا كنت في السوق واشترت السبحة الخضرا من هناك، ولما رجعت لقيته نايم جنبك رocht خطاها في رقبتة عشان لما يصحى أعملها له مفاجأة، لكن ملحقتش وحصل الي حصل.

جحظت عينا زغلول وراح يقول في ذهول:

- أو مال إيه موضوع الشيخ خضر ده؟

هَزَّتْ رَأْسَهَا وَقَالَتْ بنبرة حزينة:

- خميس خياله واسع، والحمى اللي كانت عنده في اليوم ده خلته يهلوس ويخترع موضوع الشيخ خضر.

- طب مقلتش له الحقيقة ليه؟

- أقول إيه يا زغلول، ما أنت شفته لما رجع يومها كان عامل إزاي، فرحان وعنده أمل وحاسس إن الدنيا هتفتح له حضنها. خفت أقوله يتصدم ويحصل له حاجة.

تأملها قليلاً وهو يُمعن التفكير ثم تساءل بقلق:

- وبعدين، هنسيبه كدا من غير ما يعرف الحقيقة؟

بدا عليها الشرود قبل أن تهمس بشفقة:

- سيبها على الله، مسير الزمن يعرفه الحقيقة.

لم يغادرها القلق بعد فحاول طمأنتها فتبسم قائلاً:

- سيبك من الكلام ده وتعالى اتفرجى على الفيلم، يقولو فيلم جامد متاخذ من قصة حقيقية

أشاحت بوجهها غاضبة:

- والنبي أنت فايق ورايق، فيلم إيه وأنا قلقانة كدا.

- يا بت ده فيلم حلو، بيعحكي عن لعنة الفراعين، قال إيه حارس مقبرة طلع عليه بالليل عفاريت الفراعين وقتلوه.

أطلقت هيام صرخة عالية ولطمت على وجهها وانتفضت من مكانها:

- قوم بنا نشوف خميس.

أخذ زغلول يتأملها بذهول وهي تجذب طرحتها واضعة رجليها في شبشبها مهرولة ناحية باب الدار، فيما طفق يرمقها لثوان غير مستوعب ما يحدث، قبل أن يهبَّ من مكانه راكضاً خلفها لاعناً حظه العثر الذي ساقه للسهر تلك الليلة في بيت خميس.

تسلَّق الدكتور السلم بحذر شديد حتى وصل أعلى الحفرة فمدَّ أحد الرجال يده مساعداً إياه على الخروج. ظهر من خلفه باقي الرجال وأحدهم يحمل صندوقاً ذهبياً صغيراً مضى به نحو السيارة خلف التل الرملي. التفت الدكتور ناحية خميس ورفقته وتأملهم بصمت لبضع ثوانٍ قبل أن يقترب منهم بخطوات بطيئة وهو يشير إلى الرجل المسك بخميس فرفعه من على الأرض بقسوة ليعتدل ويجد نفسه مواجهاً للدكتور وقناعه الجامد.

فاجتاحت خميس حالة من الفزع وهو يُحملق في الكتلة السوداء أمامه وبالكاد تتم برعب:

- هو إيه اللي بيحصل؟

لم يجد جوابًا، الصمت خيم تمامًا، بينما التقط أحد الرجال بندقية خميس وناولها إلى الدكتور الذي أمسك بها وصوبها إلى رأس خميس.

في تلك اللحظة وصلت هيام وزغلول. ومن بعيد لمحا السيارات المتوقفة وبالقرب منهم ظلال تتحرك في الظلام، وشاهدوا أحدهم يضع الصندوق في السيارة ثم يعاود مسرعًا ناحية المقبرة. كَمِنَا خلف كوم رمليٍّ وهيام تهمس بقلق:

- الناس دي مين؟ وبتعمل هنا إيه؟

أجابها زغلول بخوف وهو يتلفت حوله بحذر:

- تلاقيهم من الحكومة ولا بتوع الآثار، مش شايفة العربيات السوداء.

تعاضم قلقها فقالت:

- طب خميس فين؟

حدَّق في الظلام محاولاً تبين شيء لكن بصره ارتد إليه حسيراً:

- أنا مش شايف حاجة في الضلمة، تلاقيهم عند المقبرة ورا أكوام الرمل.

- بينا نروح هناك.

همَّت بالنهوض فأمسك بها بهلع:

- تروحي فين، خيلنا هنا لما نطمن ونعرف مين دول.

- خائفة يعملوا حاجة في خميس.

زادت كلماتها من قلقه فتردد قليلاً ثم همس:

- بصي يا بت، خليكى هنا، وأنا هتحرك من بعيد لبعيد أشوف إيه اللي بيحصل، ولو لقيت الدنيا أمان هنده عليكى.

ازدادت نبرته خوفاً وقال محذراً إياها:

- إوعي تتحركى غير لما أنادي عليكى، فاهمة؟

أومأت برأسها فتحرك هو بخفة مقترباً من إحدى السيارات واختبأ خلفها محاولاً استطلاع ما يدور عند المقبرة، لكن موضعه لم يُتَح له رؤية جيدة، فقط شاهد ظلالاً تقف صامتة.

واصل الدكتور تصويب البندقية على رأس خميس الذي راح يردد الشهادتين برعب واضح .

ثوان وامتلات الأفق بالصرخات المفجوعة المكلومة وهيام تصرخ :

-خميس اتقتل

* * *

(2)

1942م

مر حجرى طويل أخذت إضاءته الخافته فى الإرتعاش ما أضفى على المكان حالة من الرعب والغموض.

ضابط ألمانى راح يقطع الممر بخطوات واسعة متعجلة بدت أشبه بالهرولة وصوت أقدامه الثقيلة يدوى كنذير خطر داهم.

يده القابضه على ورقة صغيرة يكاد يعتصرها عصرا أخذت فى الإرتجاف بينما ارتسمت على ملامحه أمارات قلق واضطراب هائلين «توقف أمام باب خشبى عتيق» عدل قبعته وشد قامته ثم أدار المقبض ودلف إلى حجرة ضيقة متوجها ناحية طاولة فردت عليها خريطة ضخمة لمصر وراح هتلر وثلاثة من مساعديه فى تأملها باهتمام متبادلين تعليقات على بعض النقاط المرتسمة عليها.

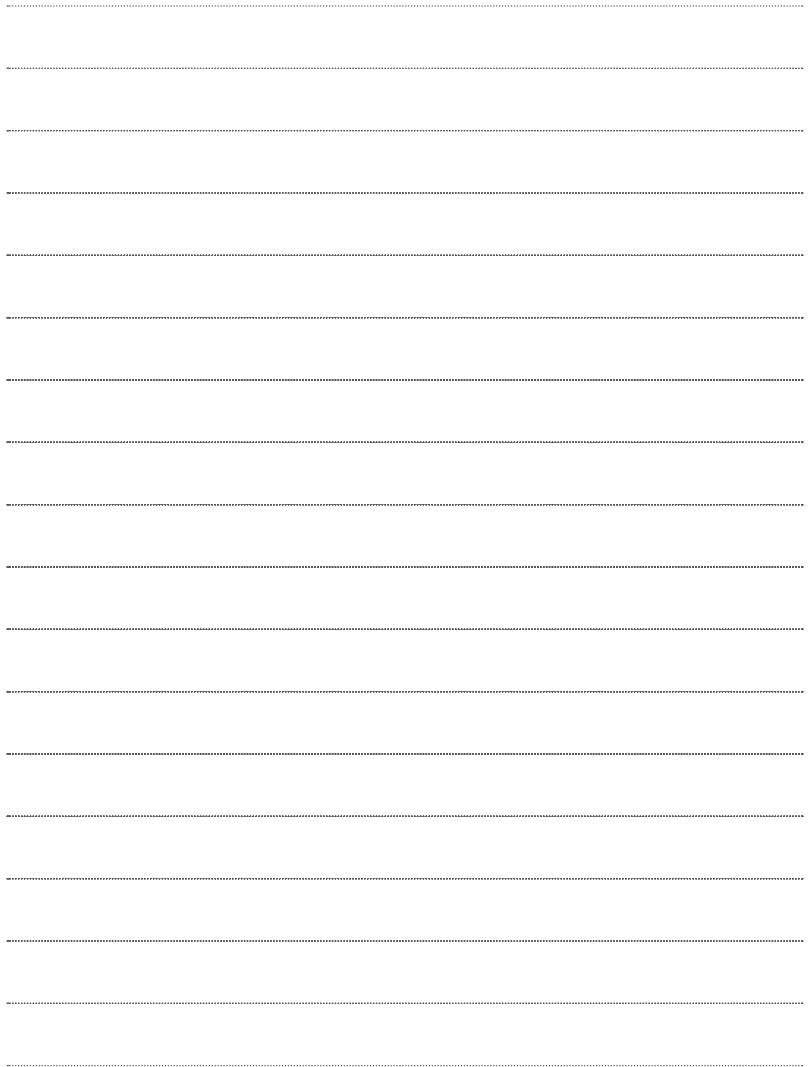
وضع هتلر سبابته على مجسم يمثل أهرامات الجيزة الثلاثة وهم بطرح شئ ما لولا نحنحة صدرت من الضابط خلفه فاستدار ناحيته مؤديا التحية مناولا إياه الورقة ثم تراجع خطوتين للخلف فيما فض هتلر الورقة التى حملت أعلاها (سرى للغاية) وراح يلتهم كلماتها بلهفة عاتية ثوان وندت فيه شهقة بالغة فالتفت إليه مساعده بوجل بينما أخذت يد الفوهرر بالإرتعاش وعينته اللتان اتسعتا بذهول تمران على السطور المدبجة بالغموض والمهابة وأنفاسه تكاد تخمد من شدة الإثارة.

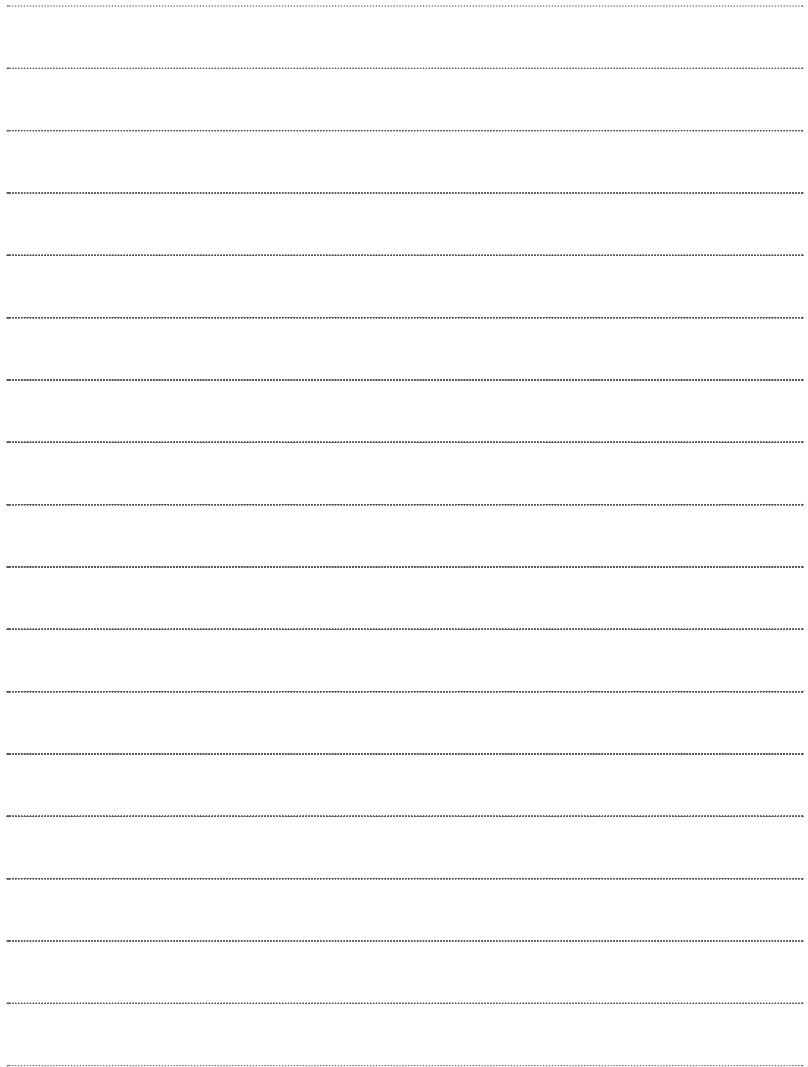
رفع عيناه الذاهلتان نحو مساعديه قائلاً بصوت مفعم بالرهبة (البردية
المصرية القديمة).

انتهى الجزء الأول بحمد الله؛ ونلتقى في الجزء الثانى

(حضرة مولانا المارشال ٢)

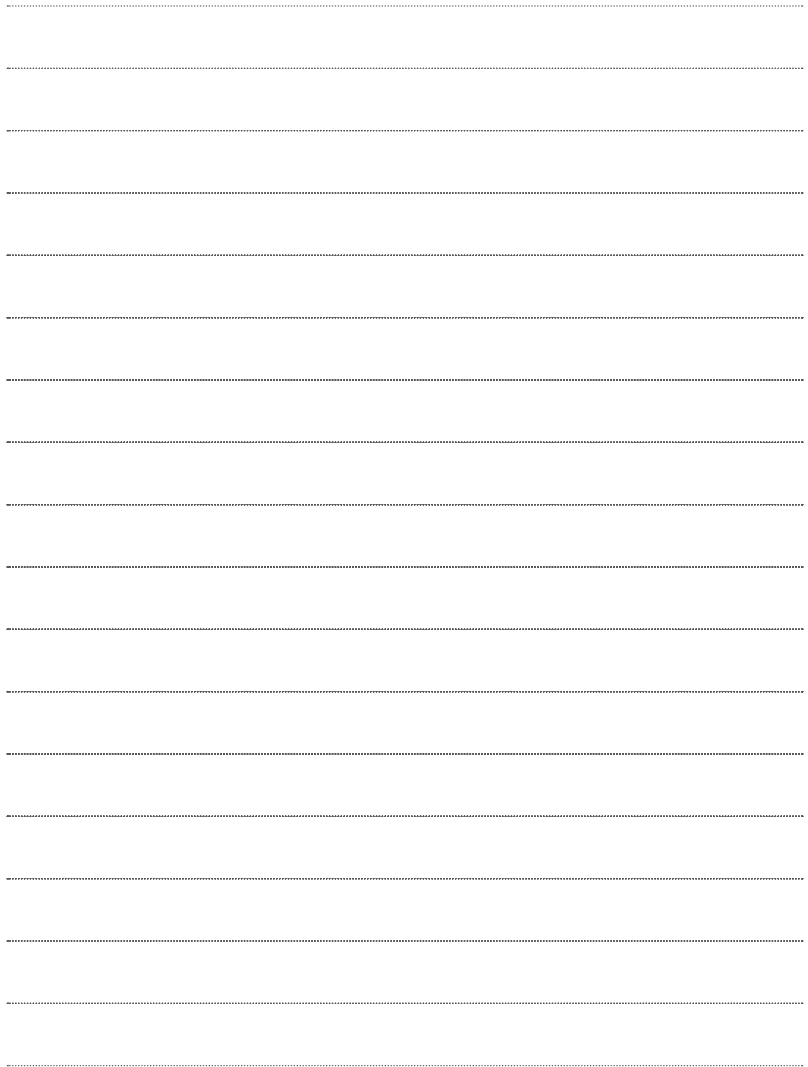












دار الشيراز